

العدد الرابع والعشرون

2001

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

مجلة محكمة تصدر مرة كل سنة

لواردة في المقالات عن آراء أصحابها


مجلة
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية
الرباط



العدد الرابع والعشرون

2001



المجلـة : **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ الرباط.**

العـدد : الرابع والعشرون سنة 2002.

منشورات : كلية الآداب بالرباط.

مطبعة : النجاح الجديدة ــ الدار البيضاء.

رقـم : التسلسل الدولي الموحد : ISSN 0851-1160.

رقـم : الإيداع القانوني : 1977/1.

فهرس المحتويات

بحـوث أساسيـة

نـصـوص ووثـائـق

بحـوث مترجـمـة

دراسات وعروض ببليوغرافية

بحوث أساسيّة

النصوص التاريخية والهوية القومية(*)

محمد حجي
كلية الآداب ـ الرباط

أود في هذا الدرس الافتتاحي الحديث باقتضاب عن النصوص التاريخية ودورها في الحفاظ على الهوية القومية المغربية بالرغم من الأزمات الكبرى التي تعرضت لها البلاد عبر العصور، ومناورات الخصوم الهادفة إلى تحطيم معنوية الأمة واجتثاث أصولها لتسير في ركاب الأجنبي مستسلمة خانعة.

نعني بالنصوص التاريخية ما يشمل الكتب الموضوعة أساساً في التاريخ والتراجم والمناقب والأنساب، وكتب الرحلات والفهارس، والنصوص الأدبية التي تسجل أحداثاً ووقائع أو ظواهر طبيعية أو اجتماعية، نثرية كانت أو شعرية. وكذلك النصوص التاريخية الدفينة في كتب لا صلة لها في الظاهر بالتاريخ، ككتب الفقه والنوازل والتصوف والأذكار، وحتى كتب اللغة وقواعدها.

ومن النصوص التاريخية كذلك الوثائق المكتوبة من ظهائر ومراسلات رسمية وإخوانية، وكناشات تجارية ومخزنية وعائلية، ورسوم عدلية تتعلق بالنكاح والإرث والأنساب، والبيوع والهبات، وقسمة المياه والمراعي، وكذلك المنقوشة على الصخور أو الألواح أو شواهد القبور وما إلى ذلك.

ونعني بالهوية القومية حقيقة الشخصية والذاتية للأمة المغربية المتحلية بصفات جبلية عرفت بها منذ القدم. كالتشبث بالحرية، والأنفة وإباء الضيم، ومقابلة التحديات الأجنبية، ورفض كل سيطرة دخيلة.

سنجتزىء بالحديث عن فترتين عصيبتين من تاريخ المغرب الإسلامي تجلت

(*) قدم هذا البحث برسم الدرس الافتتاحي للموسم الجامعي 1999–2000م بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

فيهما الهوية القومية باعتبار أنها لا تبرز وتتفاعل إلا بالضغط والاستفزاز. حدثت إحداهما في نهاية العصر الوسيط حين ضعف المرينيون المتأخرون في القرن التاسع (15م) وأخذت السلطة المركزية بعد ذلك تنهض وتتعثر في القرنين التاليين. احتل البرتغاليون خلال هذه الفترة سبتة سنة 1415/818 وامتد تسلطهم على الثغور الواقعة على المضيق والمحيط الأطلنتي إلى مصب نهر ماسة بالسوس الأقصى، في حين احتل الإسبان ما وراء ذلك من شواطىء المغرب الجنوبية المقابلة للجزر الخالدات، واحتلوا في الشمال مدينتي مليلة وحجر باديس. استحوذ الغزاة على خيرات البلاد التي سقطت في أيديهم وأفقروا السكان بالإتاوات الثقيلة حتى اضطروا إلى الافتداء بأولادهم ونسائهم، فنقلوهم أرقاء إلى بلادهم ظانين أن هويتهم انمحت، وأن أمر التنصير الذي كانوا يعملون له قد حان أوانه.

في هذا الظرف القاتم تجلت بوادر القومية المغربية بكيفية تلقائية على ساحة القتال، وفي نصوص حماسية سنذكر نماذج منها بعد قليل. بدأ ردُّ الفعل المغربي للغزو الأجنبي شعبياً تلقائياً، حيث قام رجال القبائل من الجبال المجاورة لسبتة والبعيدة عنها بالإغارة على المحتلين وحصارهم، وشاركهم في ذلك مجاهدون متطوعون من بلاد الهبط والغرب، ومدينة فاس نفسها، ثم من مدينة تطوان بعد تأسيسها. وتذكر كتب التاريخ كذلك أن متطوعة من مجاهدي مدينة سلا كانوا يغيرون على العدو في أزمور ومازغان (الجديدة) والعرائش وأصيلا وطنجة، وأن مقاتلين من أقصى السوس وجبال الأطلس خفوا لنجدة إخوانهم المهددين بالغزو المسيحي في السواحل الشمالية.

وفي مرحلة لاحقة تكتل المجاهدون المتطوعون في الجنوب بقيادة شيوخ التصوف حول الشريف محمد بن عبد الرحمن الدرعي الملقب بالقائم بأمر الله وبايعوه على الجهاد، فتمكنوا من طرد البرتغاليين من مصب ماسة وحصن فونتي (أكادير) وحرروا مُدن أسفي وأزمور والعرائش وأصيلا، وكونوا دولة جديدة قائمة على الجهاد هي دولة السعديين. وقد وضعت معركة وادي المخازن الكبرى سنة 986/ 1578 حدا لحركة احتلال الثغور المغربية، و لم يكن الانتصار المغربي الساحق فيها راجعاً إلى ما كان يتوفر له من جيش نظامي بقدر ما هو راجع إلى المشاركة الشعبية الفعالة، حيث استجاب للنفير العام الذي أعلنه عبد الملك في الجنوب وأخوه أحمد في الشمال، جميع فئات الأمة في الحواضر والبوادي.

لقد سجلت أحداث احتلال الثغور المغربية ودعت إلى المقاومة وتحرير الثغور وسكانها سلسلة من النصوص التاريخية والأدبية والفقهية لم يطلع عليها المؤلفون المشارقة المعاصرون لها، فجاءت كتاباتهم عن المغرب والمغاربة ناقصة أو محرفة، كما نجد ذلك عند نجم الدين الغزي الدمشقي في «**الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**». وشهاب الدين الخفاجي المصري في «**خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا، وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا**». ومحمد أمين المحبي الدمشقي في «**خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**».

وقد تلقى أحمد المنصور السعدي من المؤرخ التركي مصطفى بن حسن الجنابي النسخة الأصلية من كتاب «**العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر**». «أجمع ما جُمع في دول الملوك» والمحتوي على اثنين وثمانين باباً بعدد الدول التي تعرض إلى تاريخها. وقد لاحظ المنصور نقصاً وخلطاً في الباب المخصص للمغرب فكتب إلى المؤرخ التركي يشكره على هديته ويصله بـ1500 أوقية ذهباً. وفي نفس الوقت ينبهه إلى ما في كتابه تجاه المغرب من «غلط واضح وضوح النهار... إذ سلك شعباً وقد سلكت الدولة وادياً، وجرى على غير سَمْتها فلم يجد هادياً». ويطلب منه في الأخير ألا ينشر الكتاب إلا بعد تصحيحه على ضوء ما سيصله في كتاب تاريخ الدولة السعدية : «**مناهل الصفا**» الذي كلف بإنجازه عميد الكتاب في بلاطه : عبد العزيز الفشتالي.

وفي شهر ماي من سنة 1967 عقدت بالرباط جمعية تاريخ المغرب أياما دراسية حول مفهوم القومية باعتبارها مصطلحاً حديثاً أطلقه المؤرخون الغربيون على الحركات التحريرية التي زعزعت أوربا في القرن التاسع عشر، لإعادة تكوين وحدات قومية متجانسة مزقتها الحروب والمعاهدات، ومن الغرب انتقلت فكرة القومية إلى الشرق.

كانت مداخلتي في هذه الندوة بعنوان فكرة القومية بالمغرب وبعض مظاهرها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، انطلقت من أحداث احتلال الثغور المغربية وردود الفعل الميدانية من مختلف أنحاء البلاد، كدليل على شعور قومي عام لدى السكان في الشمال والجنوب والسهول والجبال والمدن والأرياف، دونما شوائب جهوية أو عرقية أو سلطوية.

وعززتُ وجهة نظري بمقتطفات من نصوص تاريخية وأدبية معاصرة لتلك الأحداث تؤرخ لها وتفيض حيوية وغيرة على الثغور الضائعة وسكانها المعذبين. من بينها كتاب ابن يجبش التازي في «الحض على الجهاد» وديوان شعره في إنهاض الهمم للوقوف في وجه الغزاة الذين مافتئوا يحتلون المدن ويطمسون معالمها ويخرجون الناس من ديارهم بغير حق؛ ومنه قصيدة تائية في 168 بيت مطلعها :

أبى القلبُ أن يسلو ومن لي بسلوة ونومي جفا من أجل ما ناب مقلتي

إلى أن يقول :

وشاركنا الأعداءُ في قطر غربنا وقد أخذوا جل البلاد البهيـة
وقد أُرعِبت تلك السواحل منهم وصاروا يؤدون الخراج كجزيـة
وقصةُ أصيـلا عـرفتم جميعَهـا وما فعل الأعداءُ من شرّ غدرة
وأضحت على الإسلام تبكي رسومُها وسكانُها قد صاروا في أرض غربةِ

ومثلها قصيدة ابن أبي محلي الفيلالي الذي كان يعيش في واد الساورة بالصحراء المغربية يؤلف كتاب «**سلسبيل الحقيقة**» والحق إذ بلغه خبر احتلال العرائش، فتوقف عن الكتابة وأنشأ قصيدة حماسية من 50 بيتاً سجلها في نفس الصفحة التي توقف عندها من الكتاب، مطلعها :

لئن صحّ ما قد قيل ما عيش عائش إذا أخذ الكفار ثغر العـرائش

ثم كسر القلم وقام بثورته المعروفة التي انتهت بموته في مدينة مراكش.

تبلغ النصوص النثرية المؤلفة في هذه الفترة عن الاحتلال وفواجعه ـــ عدا الرسائل والخطب ـــ خمسة كتب، منها كتاب «**فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة**» لعبد الهادي بن طاهر الحسني من شرفاء سجلماسة؛ والمؤلف من رجال السيف والقلم طالما حمل السلاح إلى جانب المجاهد العياشي السلاوي في مهاجمة الثغور الشمالية المحتلة من المهدية إلى طنجة. وقد اخترت من هذا الكتاب قطعة تلوتها في ندوة القومية :

«فيالله ويا للأبطال ! ويا لحماة الزمان من الرجال ! هل فيكم من يعين المسلمين !؟ ويستنصر لإخوانه المؤمنين ؟ أو منْ تهزه أريحية التعطف فيلبّي نداء المستصرخين، أو من له أنفة أبية لا يرضى بترك إخوانه بين أظهر المشركين !؟ ألا من فيه رحمة للمستضعفين ؟ ألا ذو همة كريمة ! ألا من له عزيمة ! ألا شخص

لا يرضى بالعار ! ألا شخص لا يبقى مع المراضع في الدار ! لو سمع هذا من تقدمكم من أهل الصلاح، لبادروا إلى الكفاح. ولو عاين ما وقع من فساد من سبق من الأبطال، لم يعرجوا على أهل ولا أطلال، ولو أبصر أهل النجدة ما جرى في الإسلام، لرأوا أن الخير كله في ورود الحمام. عجباً كيف يستبيح الذلّ مقدام ! أم كيف يجبن أريب همام ! أم كيف يتأخر متعصب لدينه ! أم كيف يتوانى مساجل عن نفيسه وثمينه، أم كيف يتردد من يريد حماية الأوطان، أم كيف يقصر من يسعى لنفسه وأهله في الأمان ! أم كيف يصح في الأذهان توشية بملابس وتيجان ! أم كيف لا يتضمخ الإنسان بالأحزان، على محارب كانت تعمر بالقرآن، صارت لنواقيس الرهبان ! أم كيف يريد الحياة كرام، بعد أخذ حصون الإسلام ! أم كيف يلذ قرار، بعد أخذ سواحل البحار ! أم كيف يصحو عن الأسى عاقل، بعد أخذ المراسي والمعاقل...».

أريد إثارة الانتباه إلى أن كاتب هذا النص كان يعيش بمنطقة مدغرة وسط تافيلالت، ويتحدث عن السواحل المهددة كأنها داره بل ويحمل السلاح للدفاع عنها.

لقد استأثرت هذه النصوص باهتمام بعض المشاركين في الندوة الذين كانت عروضهم تؤكد أن مفهوم القومية أوربّي حديث لم يعرف قبل القرن التاسع عشر. ومنهم الأستاذ جرمان عياش الذي قال أثناء المناقشة : إنني وأنا أستمع إلى هذه النصوص أتخيل وكأني أمام خطب حماسية للثورة الفرنسية. ولذلك يجب إعادة النظر في مفهوم القومية التي وجدت في المغرب ــ وربما في غيره أيضاً ــ قبل قرون عديدة.

أما الفترة العصيبة الثانية التي سنتحدث عنها فهي فترة الأطماع الأوربية في المغرب منذ احتلت فرنسا الجزائر سنة 1245/ 1830. ذلك أن فرنسا لم تكد تستقر أقدامها في القطر المجاور حتى بدأت تتطلع إلى التوسع يميناً وشمالاً في تونس والمغرب. وقد صعب عليها انتهاك حمى المغرب بسبب رسوخ الهوية القومية المتمثلة في الدولة القائمة ولو أنها كانت منغلقة على نفسها تعاني من ضروب الضعف والتدهور. لن نتحدث عن التدخلات العسكرية الفرنسية بالمغرب بدءاً من مطاردة الأمير الثائر عبد القادر الجزائري الملتجىء إلى التراب المغربي ومعركة إسلي وما

تلاها من أحداث انتهت بفرض الحماية سنة 1912، وإنما نتطرق إلى التحرشات المصطبغة بصبغة «علمية» والهادفة إلى تقويض هوية المغرب تمهيدا للاحتلال.

تجاذبت الدراسات الاستعمارية المتعلقة بالمغرب كل من المدرسة العليا للآداب بالجزائر والمعاهد العلمية بفرنسا، وتركزت حول التعرف على تاريخ البلاد وجغرافيتها، وأصول السكان ومعتقداتهم وعادتهم ولهجاتهم وسائر تنظيماتهم الاجتماعية. وتميز في هذا المضمار الفريد لو شاطوليي Alfred Le Chatelier الذي أصبح منذ سنة 1889 يلقي دروسا عن المغرب في كوليج دوفرنس، ثم أصبح أستاذ كرسي علم الاجتماع الإسلامي بنفس المعهد، وأسندت إليه مهمة تكوين إداريين استعماريين وتخطيط سياسة استعمارية للبلاد الإسلامية. وقد حاول هذا الأستاذ تأسيس معهد مغربي خاص فلم يتم له الأمر، فأرسل المستشرق جورج سالمون G. Salmon إلى طنجة ليعمل إلى جانب المفوضية الفرنسية على جمع المعلومات وتكوين خزانة مختصة بكل ما يتعلق بالمغرب تمهيدا لإقامة مؤسسة «علمية» في عين المكان.

وفي 20 أكتوبر سنة 1903 تأسست بطنجة البعثة «العلمية» للمغرب بقرار من الحاكم العام بالجزائر. واضطلع بتسييرها جورج سالمون. ولم تلبث البعثة أن أصدرت في السنة التالية الجزء الأول من سلسلة مجلة الوثائق المغربية Les Archives Marocaines. وقد احتج مندوبو المغرب في مؤتمر الخزيرات سنة 1906 على الدراسات الاستكشافية (وبعبارة أخرى أعمال التجسس) التي تقوم بها البعثة «العلمية» بالمغرب بكيفية غير مشروعة، فتصدى للرد عليهم جورج سالمون بعد أن وزع الأعداد الأولى من مجلة الوثائق المغربية على المشاركين في المؤتمر مموّها بطابعها «العلمي».

وقد توفي جورج سالمون في نفس السنة 1906 فخلفه على رأس البعثة ميشوبولير الذي وسع دائرة عملها وحدّد مهمتها في «البحث في عين المكان عن كل الوثائق الضرورية لدراسة المغرب، وإعادة صياغة تنظيماته وحياته، ليس فقط بالاستعانة بالكتب والمخطوطات، بل أيضاً بالمعلومات الشفوية وبأعراف القبائل والزوايا والعائلات. وبموازاة مع هذه الغاية «العلمية» أصبح للبعثة هدف سياسي محدد هو توفير الظروف المواتية للدخول الفرنسي إلى المغرب مع تفادي الأخطاء المرتكبة في الجزائر نتيجة عدم دراسة البلاد بما فيه الكفاية».

وبعد توقيع معاهدة الحماية أقر ليوطي البعثة «العلمية» للمغرب في مركزها بطنجة وأعطاها شخصية قانونية بمقتضى ظهير 11 أكتوبر 1913، واقترح على منظرها لوشاتليي التعاون بين البعثة والإقامة العامة، على أن تستشار البعثة من طرف مصالح الحماية في كل ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي للمغرب بنظامه القانوني ومؤسساته الأهلية، وأن تسلّم الجذاذات التي يُعدها ضباط الاستعلامات للبعثة العلمية لتستغلها البعثة فيما تكتب عن المغرب. وهكذا بدأت تكتب منوغرافيات صغيرة عن عدد من المواقع المغربية، وصدرت ابتداء من سنة 1915 سلسلة مدن المغرب وقبائله Villes et tribus du Maroc في أحد عشر جزءاً، عن الدار البيضاء والشاوية، والرباط وإقليمه، وطنجة ومنطقتها، والقبائل البربرية، وأيت باعمران وقبائل هضبة درعة العليا، ومنطقة دكالة.

نلاحظ أن محرري هذه الكتب اعتمدوا أساساً على الرواية الشفوية واستبدلوا بالنصوص التاريخية والجغرافية المعتمدة جذاذات ملفقة من وضع ضباط الشؤون الأهلية، أغلبهم شبان مبتدئون أو عسكريون لا صلة لهم بمثل هذه الدراسات. الأمر الذي يؤكد طبيعتها الإعلامية الوقتية لتكون دليلاً يسترشد به الحكام الفرنسيون لإحكام قبضتهم على الجهات المسند إليهم أمر تسييرها، وقد ابتكر رجال البعثة «العلمية» عبارة «بلاد السيبة» في مقابل «بلاد المخزن» لضرب الوحدة القومية المغربية في عمقها وتحطيم فكرة الدولة المغربية القائمة منذ اثني عشر قرنا، وستصبح هذه العبارة المحور الذي تدور حوله الإستوغرافيا الاستعمارية في العقود التالية.

وفي سنة 1919 نقل مقر «البعثة العلمية» إلى الرباط، وألحقت مباشرة بمديرية الشؤون الأهلية ومصلحة الاستعلامات باسم الشعبة الاجتماعية. وبذلك اختفى اسم البعثة العلمية بالمغرب وحل محله اسم «معهد الدراسات المغربية العليا» الذي أسس في نفس السنة، وأسست بجواره الخزانة العامة للحماية. التحق بالتدريس في هذا المعهد عدد من الباحثين الفرنسيين المتخصصين في الدراسات الإسلامية والمغاربية، جاؤوا من الجزائر ومن فرنسا. وأصدر المعهد ابتداءً من سنة 1921 مجلة هيسبريس Hesperis، وسلسلة من المنشورات في مختلف الموضوعات المتعلقة بالمغرب.

وفيما يهم تاريخ المغرب عرف المعهد صنفين من الباحثين الفرنسيين، صنفاً

معتدلا قليل العدد لم يعمر طويلاً، يمثله ليفي بروفنصال الذي هيأ أطروحته عن **مؤرخي الشرفاء** أي المؤرخين المغاربة في القرون الأربعة الأخيرة، ترجم لهم وعرّف بمؤلفاتهم واستخرج مصادرها وجعلها ملاحق في قوائم مرتبة. وقد صدرت هذه الأطروحة سنة 1922 ضمن منشورات معهد الدراسات المغربية العليا. ونشر كذلك فيما بين سنة 1925 و1934 كتاب «**المسند الصحيح الحسن**» لابن مرزوق في تاريخ الدولة المرينية، والجزء الثالث من «**البيان المعرب**» لابن عذاري المراكشي، ونبذة تاريخية انتقاها من كتاب «**مفاخر البربر**» لمؤلف مجهول، ومجموعة رسائل موحدية. ثم انقطع إلى الدراسات الأندلسية.

أما الصنف الثاني من الباحثين في تاريخ المغرب بالمعهد، وهم الأغلبية، فكانت كتاباتهم تجانب الحقيقة والموضوعية، وتسير في ركاب الحماية، يمثلهم هنري طيراس مدير المعهد الذي نشر سنة 1949 كتاب «**تاريخ المغرب منذ أصوله إلى إقامة الحماية الفرنسية**»، في جزءين، بناه على إديلوجية الحماية القائلة بأن المغرب لم يكن قط دولة ذات نفوذ على التراب الوطني كله مستغلا أبشع استغلال عبارة «بلاد السيبة وبلاد المخزن» وحتى الدولة الموحدية التي أقامت أكبر إمبراطورية في المغرب والأندلس تماسّ حدودها الشرقية تخوم مصر، والجنوبية بلاد السودان وراء الصحراء. لم تسلم هي كذلك من السياب والاضطراب والخارجين عن النظام.

هنا نجد النصوص التاريخية تقوم في القرنين التاسع عشر والعشرين بنفس الدور الذي قامت به من قبل في التصدي لحملات التشويه والاستلاب، وتركيز الهوية القومية. كان أحمد الناصري في مقدمة الذين نقبوا عن النصوص التاريخية القديمة والحديثة جمعها من مختلف الجهات التي تقلب فيها في خدمة المخزن، كانت كتباً مستقلة أو فقراً من كتب في التاريخ أو التراجم أو المناقب أو الفقه أو غير ذلك، إضافة إلى عدد من الوثائق المخزنية التي اطلع عليها في بنايق الوزارات التي عمل أو التي امتلكها بوسائله الخاصة، وهي ملء أكياس. وصاغها صياغة جديدة في كتابه «**الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**». طبع بمصر سنة 1895 في أربعة أجزاء منطلقا من الفتح الإسلامي وتأسيس الدولة الإدريسية، متتبعاً المراحل التاريخية حسب تسلسل الدول إلى وفاة الحسن الأول، متناولاً إلى جانب الأحداث السياسية الأوضاع الاجتماعية والفكرية، غير غافل عن تسجيل المحن التي أصابت

المغرب ـــ كما هو شأن البلاد الأخرى ـــ من قحوط ومجاعات وأوبئة واختلال أمن خاصة عندما تدول الدولة من أسرة إلى أخرى، مبيناً كيف ترأب الدول اللاحقة صدع الدول السابقة لتستأنف السير على نفس النهج دون انقطاع.

وبعد **الاستقصا** ظهرت منوغرافيات لأهم المدن المغربية تبيّن أصالتها وعلاقتها الوطيدة بمحيطها، وما كان لها من نظم حضارية وخطط دينية ودنيوية. وما أنجبت من رجال فكر ودين وسياسة وحرب، أسهموا في تسيير دولاب الحياة الوطنية في عصرهم.

يأتي في طليعة هذه المنوغرافيات كتاب «**سلوة الأنفاس**» لمحمد بن جعفر الكتاني. طبع على الحجر بفاس سنة 1900 في ثلاثة أجزاء. تعرّف السلوة بالشخصيات الشهيرة المدفونة في فاس منذ المولى إدريس الأزهر إلى عصر المؤلف، مرتبة حسب الأحياء التي دفنوا فيها، من بينهم أكثر من مائة وأربعين مؤلفاً في مختلف المعارف الإسلامية.

رجع الكتاني في تحرير تراجم كتابه إلى نصوص وثيقة في مصادر أغلبها لمؤلفين فاسيين ذكرها دون ترتيب في آخر الجزء الثالث، وهي تعد بالمآت، عرف كيف يستغلها بأمانة وينسقها بمهارة في مختلف فصول كتابه. مقدماً بذلك نموذجا لتجانس وتمازج سكان أقدم حاضرة إسلامية بالمغرب، يتكونون أساسا من القبائل الأمازيغية الكبرى المجاورة، ومن العرب الوافدين من القيروان والأندلس، ثم من النازحين إليها من المغارب والمشارق، انصهروا جميعا في بوتقة الإسلام والعروبة، وعاشوا اثني عشر قرنا متميزين بعمرانهم ومعارفهم وصناعاتهم وطرقهم في الري والزراعة، على صلة وثيقة بمحيطهم الضيق والواسع مع إشعاع حضاري جاوز الحدود.

ونشر نقيب الشرفاء عبد الرحمن بن زيدان سنة 1928 كتاب «**إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**» في خمسة أجزاء، يمتاز الإتحاف عن كتب التراجم الأخرى بمزاوجته بين التاريخ والتراجم، واشتماله على عدد من النصوص الوثائقية مصورة أو مكتوبة نظرا لموقع المؤلف من الأسرة العلوية المالكة الذي مكّنه من الاطلاع على محفوظات الدولة ووثائقها. وبهذه الصفة للمؤلف نجده ينافح في **الإتحاف** عن الدولة العلوية التي ابتليت بالحماية ورميت من كتابها

الارتجال والانحلال. فكان أبلغ الرد عليهم تراجم المولى إسماعيل والحسن الأول في الجزء الثاني ومحمد بن عبد الله في الجزء الثالث وما قاموا به من أعمال لتركيز الدولة وحفظ هيبتها ونشر الأمن، وتنشيط التجارة والصناعة والتعليم وربط العلاقات الودية مع الدول، وإدخال إصلاحات وتنظيمات حديثة ضمنت استمرار الهوية القومية حتى بعد أن أصابت البلاد مصيبة الحماية.

ولابن زيدان في نفس السياق عدة كتب صغيرة منشورة في أعوام الثلاثين، منها كتاب «**الدرر الفاخرة**»، أصله مسامرة ألقاها المؤلف في المؤتمر الثامن لمعهد الدروس المغربية العليا بالرباط سنة 1933 وجعلها في فصلين، أولهما في نظم الدولة العلوية : حكومة المخزن المركزية والمؤسسات المدنية والعسكرية التابعة لها مبرهناً بذلك على أن الدولة المغربية كانت مكتملة الأجهزة تسير على نظم مقررة ثابتة لم تنقطع إلى الحماية.

وظهر في سنة 1938 كتاب «**الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**» لعباس بن إبراهيم المراكشي في خمسة أجزاء، يعرّف بمراكش حاضرة المرابطين والموحدين والسعديين، وجارتها السابقة أغمات، ولا يقتصر على تراجم المراكشيين والأغماتيين، بل يعرّف بجميع من حل فيهما ولو كان من غير أهلهما، نظراً لكثرة الوافدين على مراكش في العصر الوسيط بالخصوص من علماء الأندلس والمشرق وأقطار المغارب باعتبارها دار العلم والإمارة. لا تقل النصوص التاريخية التي رجع إليها صاحب **الإعلام** عن التي رجع إليها مؤلف «**سلوة الأنفاس**»، بل تتميز مصادر المراكشي بتنوعها وتشتتها في خزانات العالم. وهي لا تؤكد رسوخ الهوية القومية فحسب، ولكنها تدل كذلك على تلاقح هذه الهوية وتجدد عناصرها عبر مختلف الأجيال.

إلى جانب هذه المنشورات الموسوعية بدأ المؤرخون الوطنيون يحققون بعض المخطوطات التاريخية الأصيلة وينشرونها، مثل «**الأنيس المطرب بروض القرطاس**» لابن أبي زرع الفاسي، نشر بالرباط سنة 1936 بتحقيق الهاشمي الفيلالي؛ و«**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**» لعبد الواحد المراكشي، نشر بسلا سنة 1938 بتحقيق وتقديم محمد الفاسي. ويعرّبون كذلك بعض النصوص الفرنسية الموضوعية المتعلقة بتاريخ المغرب، مثل كتاب «**أزهار البستان في أخبار الأندلس والمغرب على عهد**

المرابطين والموحدين»، للأخوين جان ــ جيروم طارو. ترجمه المرحومان أحمد بلافريج ومحمد الفاسي ونشراه بالمطبعة الوطنية بالرباط سنة 1930.

وأهم من ذلك وأعظم، قيام المؤرخين الشباب في فترة الحماية بنشر مقالات وبحوث تعتمد على أشهر مصادر تاريخ المغرب وترد بكيفية غير مباشرة على الإستوغرافيا الإستعمارية، تنشرها في دوريات ومجلات كانت تصدر آنذاك في المنطقتين الشمالية والجنوبية، مثل **مجلة المغرب** بإدارة محمد الصالح ميسة، وجريدة **المغرب** وأعدادها الممتازة وملحقاتها الثقافية الصادرة بسلا، و**مجلة السلام**، و**المغرب الجديد**، الصادرتين بتطوان ثم **رسالة المغرب** بالرباط.

شارك في هذه الحملة التاريخية الأساتذة المرحومون محمد بن تاويت الطنجي، ومحمد بن تاويت التطواني، وعبد الله كَنون، وعبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي والأستاذ عبد العزيز بنعبد الله. وجلّى في هذا المضمار الأستاذ محمد الفاسي الذي كانت سلاسل بحوثه في مختلف عصور المغرب ودوله وأبرز شخصياته العلمية والأدبية، منها سلسلة : هل كان للمغاربة أدب في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي ؟ والآداب العربية بالمغرب أيام المرابطين، والشريف الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق، وابن بطوطة، ورحلته تحفة النظار في غرائب الأمصار، ورحلات المغاربة للحجاز، وأعلام المغرب في التاريخ والأدب، وهم كثير. واهتمام بني مرين بالمعارف والعلوم إلخ..

ومما امتاز به الأستاذ الفاسي أنه كان لأسباب خاصة يتمكن من إلقاء هذه البحوث أو ملخصاتها أحاديث في راديو المغرب فتلاقي إقبالا كبيرا، لغزارة مادته وأسلوبه المشرق ولثغته الفاسية. كانت هذه البحوث المكتوبة والمسموعة في تاريخ المغرب وحضارته توقظ شعور الشيوخ والشباب، وتلهب حماسنا ونحن مازلنا في مراحل الطلب الأولى، فتهون علينا مكايد الاستعمار ومضايقاته، بل نستخف بها ونستهينها.

وأخيراً جاء الاستقلال وأسست الجامعات المغربية لتهيىء الأطر العليا التي يناط بها تصحيح الأوضاع العامة في البلاد وإصلاح ما أفسدته الحماية. فماذا فعلت شعب التاريخ وماذا عليها أن تفعل ؟ أظن من بين الإيجابيات للدراسات التاريخية الجامعية بالمغرب أنها اهتمت بتحقيق عدد لا يستهان به من النصوص التاريخية،

بل إن بعض الكليات أعطتها الأولوية. ولو أن بعض الزملاء ينتقدون ذلك، عن حسن نية، ويرون من الأفضل مسايرة تطور البحث التاريخي العالمي وربط الدراسات التاريخية بقضايا التنمية والتطور الاجتماعي والاقتصادي. ويقول آخرون كفى ما نشر وما حقق من نصوص، فلم يبق إلا نزر يسير يمكن الاستغناء عنه. والواقع عكس ذلك. ولنضرب مثلا بنصوص المعاصرين والقريبين منا. ماذا نشر من كتب أبي القاسم الزياني ؟ كتابان أو ثلاثة. في حين تناهز مجموعة كتبه العشرين، كلها بخط يده في الخزانة الحسنية. وماذا عن نصوص أحمد بن قاسم الزياني المنصوري صاحب تاريخ زيان. والمحاضرات العديدة عن مجتمع الأطلس المتوسط التي ألقاها هنا في معهد الدراسات المغربية العليا ؟ لم ينشر منها شيء.

وماذا عن مؤلفات علماء سوس التي تصفحها محمد المختار السوسي ووصفها في الأجزاء الأربعة من رحلته **خلال جزولة**، بل عميت أنباء الكثير منها بعده، وأصبحت تحتاج إلى استكشاف جديد.

ولاشك أن ما وقف عليه المختار السوسي في الرحلة، وما استغله في موسوعته الكبرى «**المعسول**» من نصوص، وما قدمه غيره من رواد البحث في مصادر تاريخ المغرب كعبد السلام بن سودة، ومحمد إبراهيم الكتاني، ومحمد المنوني، ما هو إلا غيض من فيض، وأن هناك نصوصا لم يطلع عليها بعد. وأسوق مثلا لذلك كتاب «**المستفاد في أخبار الصالحين والعباد**» للتميمي الذي وقع العثور على قسم منه في خزانة آل عبد الجبار العلماء بفكَيكَ أثناء ندوة علمية أقيمت أخيرا بكلية الآداب بوجدة، وهو بكامله مصدر لا غنى عنه لاكتمال النظرة عن تطور التصوف المغربي على عهد المرابطين والموحدين، **فالمستفاد** يعرف برجال التصوف في شمال المغرب مثلما فعل ابن الزيات في **التشوف** بمتصوفة الجنوب. ووقفتُ قبل نحو شهر في خزانة الجامع الكبير بمكناس على كتاب صغير الحجم هو عبارة عن وسيلة قدمها الوزير القايد يحيى بن زيان الوطاسي إلى عبد الحق آخر ملوك بني مرين يتوسل إليه بأسماء الله الحسنى وبالنبي عليه السلام وأصحابه ورجال المدارك والحلية ورجال المستفاد والتشوف.

لا تشرح مقدمة الوسيلة المختصرة ظروف كتابتها ولو أن ذلك ـــ على ما يظهر ـــ كان أثناء المحنة الكبرى التي طالت الوزراء الوطاسيين وانتهت

باستئصالهم. غير أنها تكشف عن الجانب العلمي لهذه الشخصية، وتكوّن مصدرا جديدا لتاريخ الوطاسيين الغامض سواء كوزراء أو كأمراء، لعدم العثور بعد على نصوص تُعرف بهم إلا إشارات عابرة تقول إن يحيى بن زيان الوطاسي هذا كان له الفضل في تجديد الجامع الكبير بمكناس وتوسيعه وإنشاء مجلس الأسبوع في جانبه الشرقي ليتلى فيه القرآن مسبعاً ويختم كل أسبوع.

صحيح أننا نقوم اليوم بأعمال قامت بها أوربا في عصر النهضة فيما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر حيث كان «الإنسانيّون» يجمعون المخطوطات اليونانية والرومانية المبعثرة في مكتبات الكنائس والأديرة يدرسونها ويحققونها، ثم أخذوا ينشرونها بعد اكتشاف الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر. ولكن ما حيلتنا ؟

حقيقة ليس أمامنا لإحياء تراثنا من القرون ما كان لأوربا عصر النهضة، وعلينا أن نضاعف الجهود لاختزال المسافات في استكشاف التراث المخطوط ودراسته وتحقيقه ثم نشره. وإننا لنعتز بما قامت به هذه الكلية العتيدة من مجهود رائد في ميدان نشر النصوص المحققة، حيث تأتي في طليعة المؤسسات الجامعية المغربية، ونشكر القائمين على ذلك في شخص زميلنا الأستاذ القيدوم العالم النشيط سعيد بنسعيد العلوي. ونتمنى لزملائنا الأساتذة وأبنائنا الطلبة في هذه الكلية وفي سائر المؤسسات الجامعية ببلادنا مزيداً من العطاء والتوفيق.

الترجمات القرآنية لا تؤدي إلا جزءا من مراد الله

التهامي الراجي الهاشمي
كلية الآداب ـــ الرباط

I

القرآن حامل لمراد الله، هذا لا يشك فيه أحد، إنه حين يتعرض لمسألة ما يستعرضها كاملة، سواء كانت :

1 ـــ مخبرة عن قضية.

2 ـــ أو آمرة بفعل.

3 ـــ أو حاضّة على ترك أمر.

يُحقق ذلك كله ـــ على كثرة تشعبه ـــ كما سنرى ـــ بواسطة رسم موحد نسميه «الرسم العثماني»، وهو رسم يستطيع أن يحمل هذه الأمور كلها، معبرا عنها بـ«كُتْبة»[1].

---

(1) «كتبة» على وزن «فعلة» الذي يعبر به عادة العرب على «الكمية الدنيا» la quantité minimale فهو عندهم وزن «الكم»، والوحدة من هذا الكم «كتبة» يسمونه وزن «المرة» فإن أرادوا الهيأة قالوا «كتبة» أما ترجمة «كتبة» بضم الكاف Graphème، وترجمة «كتبة» بالفتح Graphe وتكون معنى «كتبة» la manière d'écrire. رب قائل يقول لي : لم نسمع بهذا الوزن من قبل ! أقول ليس من الضروري أن تسمع به أو لا تسمع. المهم أن العرب وضعته من بين قواعدها الجامعة، فأطلقت وزن «فعلة» بالفتح على المرة وأطلقت وزن «فعلة» بالكسر على الهيأة وخصت «فُعلة» بضم الفاء للتعبير على القدر والكمية. بما أن أساس غناء العربية يكمن في حسن استغلالنا لأوزانها التي تتغير، حسب الحاجة، بالحركات، أخبرت عن المعاني التي أسرت إليها بالقاعدة الجامعة التي لا تقبل شذوذا. علينا نحن الآن أن نتصرف مع هذه بذكاء لتدبير أمر لغتنا، جاعلين منها، بحسن استغلالنا لأوزانها لغة الفهم والإفهام أيا كانت الأزمنة =

ولابد، أعتقد، لفهم هذه القضية، من توضيح أمر ذي بال قبل تقديم أمثلة لكل مسألة من المسائل الثلاثة المشار إليها أعلاه : هذا الأمر المهم هو «**الرسْمُ العُثْمانيّ**».

إن «**الرسم العثماني**» الذي نتحدث عنه والذي له تلك السمات التي أشرت إليها، له خصائص نرجو ألا تغيب عن كل باحث متدبر في القرآن الكريم فضلا عمن يطمح إلى ترجمة معانيه إلى لغة ما.

الرسم العثماني، وهو توقيفي على كل حال، لا يتكون إلا من الصوامت، أما الحركات، والنقط التي على الحروف أو تحتها فهي من الضبط ليس إلا، بل إن الهمزات على مختلف أشكال النطق بها ـــ وأشكال النطق بها كثيرة ومعقدة الأداء ـــ ليست من الرسم، هي كذلك، في شيء.

هذا الرسم بهذا الشكل الذي أوجزت الحديث عنه هو الذي اعتمد عليه القراء لتمييز القراءة المتواترة المتعبد بها عن تلك التي لا يجوز، بحال من الأحوال، قراءتها في الصلاة ولا حتى مجرد تلاوتها في المساجد.

قالوا لابد، لتكون القراءة متواترة، من أن تكون مطابقة للرسم العثماني[2]، معنى هذا أن الرسم العثماني لابد أن يتوفر بشكل موحّدٍ لا يتغير، وإن تغير الأداء من قراءة متواترة إلى أخرى مثلها.

لنضرب لهذا مثلا يبين لنا هذه المسألة ويوضح لنا في نفس الآن أمر «الإخبار عن قضية» التي واعدنا قبل بالتمثيل لها.

لنأخذ من السورة السابعة «الأعراف» الآية 57 (بالعد الكوفي).

= هم اخترعوا حديثا كلمة «Graphe» وقالوا إنها الوحدة الدنيا la quantité minimale التي هي Graphème. هذا في لغتهم جديد لا يعتمد لا على قاعدة قديمة ولا على قاعدة حديثة معروفة في تراثهم اللغوي، ومع ذلك اضطروا تحت الحاجة إلى قبول هذا التركيب الجديد لمتطلبات التطور، فقرروا أن الكمية يعبر عنها بالكلمة القديمة مختومة بـème، قبلوا ذلك واستعملوه ولم يسألوا أنفسهم هل سمع من قبل أو لم يسمع. فاستطاعوا بهذا أن يدخلوا مئات الألفاظ إلى لغتهم.

(2) انظر لمعرفة ضوابط القراءة المتواترة مقدمة كتاب **التعريف في اختلاف الرواة عن نافع**، تحقيق الدكتور التهامي الراجي الهاشمي، من ص 71 إلى ص 85، طبعة فضالة، المغرب 1403هـ (1982م).

يقول الحق سبحانه وتعالى فيها[3] : ﴿وهو الدى برسل الرح بسرا بس بدى رحمه حى ادا اقلب سحابا بقالا سقه للد مب فابرلنا به الماء فاحرحنا به مں كل الىمرب كدلك بحرح الموبى لعلكم بدكرون﴾.

فإن قرأناها بقراءة الإمام نافع كان عندنا :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَّكَّرُونَ﴾.

بهذه القراءة يكون معناها باللغة الفرنسية :

Et c'est lui qui libère par sa miséricorde **les vents soufflant de toute part;** et une fois chargés de lourdes nuées, Nous les dirigeons vers un pays **complètement mort,** Nous en faisons descendre l'eau et Nous en faisons sortir toutes sortes de fruits. Peut être rappelez-vous.

هذه ترجمة لما يقرأ به الإمام نافع المدني أو لروايتين، رواية قالون (روايته مطبوعة متداولة) ورواية ورش (وهي موجوذة بكثرة مطبوعة كذلك).

لماذا ترجمنا ذلك المقطع إلى هذا المعنى ؟

لأن نافعا يقرأ الرسم «**الرح**» في آيتنا هذه «الرياح» بالألف بعد الياء أي جمعا، لذا ترجمناها بـ : «les vents»، ويقرأ الرسم «**بسرا**» بضم النون والشين. ومعنى : «الرِّياح نُشُرا» : «**الرياح تهب من كل جانب وتجمع السحابة الممطرة**»، لذا ترجمناها بـ : «Soufflant de toutes parts». ويقرأ الرسم (**مىب**) : «ميت» بتشديد الياء، أي خرجت روحه وانتهى أمره[4]. ولذلك ترجمناها بـ : «Complètement mort».

(3) أرسمها بالرسم العثماني كما رسمت من طرف الصحابة في عهد رسول الله ﷺ.

(4) هذه مسألة أخرى بالغة الأهمية لكل متدبر للقرآن سواء كان مفسرا أو مترجما، لا نقول أبدا في مسألة النطق بالقرآن إن هذه اللفظة تنطق هكذا دائما أو إن القراء فلان وفلان وفلان يقرأونها بهذا الشكل في حين يقرأ غيرهم بشكل آخر. نطبق حكمنا هذا على كل لفظة في القرآن أينما وردت فيه. هذا لا يجوز في أغلب الأحيان لأن القراءات لا تتبع قياسا نحويا ولا تعبأ بفشوه ولا بندارة. رأينا أن «ميت» بالتخفيف هوالذي لم يمت بعد، وسنرى أن الذي مات وانتهى أمره هو «ميت» التضعيف. ولكننا لن نطبق هذا حيث كان في القرآن=

غيره يقرأ هذا الرسم «**ميت**» بسكون الياء ويعني به الحق سبحانه وتعالى حين يؤدى هكذا بالتخفيف : «إنه في طريقه إلى الموت» أو إذا أردنا : هو أقرب من الموت منه إلى الحياة، غير أنه لم يمت بعد، إنه «Agonisant».

ويقرأ مع القراء الآخرين الرسم (**بذكرون**) بتشديد الذال والكاف. ورغم أن التغيرات اللاحقة بهذا الرسم الأخير لا أثر لها كبيراً في الترجمة، فإنه يحسن أن يعيه المترجم ويتذكر أنه، أي الرسم، في قراءة نافع ومن معه بتشديد الذال والكاف، أدغمت تاء الوزن في الذال. أما في قراءة الآخرين فإن تاء الوزن سقطت تخفيفا للمعرفة بها.

فإن قرأناها بقراءة عاصم كان عندنا النص الآتي :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

يكون معناها باللغة الفرنسية بهذه القراءة :

C'est lui qui libère, par sa miséricorde, les vents qui annoncent la pluie et une fois chargés de lourdes nuées, Nous les dirigeons vers un pays complètement

---

= الكريم بهذا الشكل بمحظ إرادتنا، لأن القراءات سنة يجب اتباع ما قرأ به رسول الله ﷺ وكفى.

سنرى من هذا أن هذه اللفظة (ميت) تقرأ تارة من طرف الجميع بالتخفيف في أماكن من القرآن. ستقرأ بالتخفيف في البقرة آ. 173 والمائدة آ. 3 والأنعام آ. 139 و149 وفي النحل آ. 115 وفي الفرقان آ. 41 والزخرف آ. 11 وق آ. 11 وتقرأ بالتضعيف من طرف الجميع في إبراهيم آ.17 وفي المومنين آ.15 وفي الزمر آ.30.

وتقرأ في أماكن أخرى بالتضعيف من طرف قراء وبالتخفيف من طرف آخرين. يقرأ كل من نافع وحفص وحمزة والكسائي بالتضعيف (الحي من الميت) و(الميت من الحي) و(إلى بلد ميت) حيث ورد، ويقرأ الآخرون وهم ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة بالتخفيف.

وينفرد في أماكن أخرى قارىء واحد، فيقرأ هذه اللفظة بالتضعيف في حين يقرأها غيره بالتخفيف في أماكن معينة، يقرأ نافع وحده بتشديد الياء «أو من كان ميتا» في الأنعام الآية 122 والأرض الميتة في يسٓ الآية 33 ولحم أخيه ميتا في الحجرات الآية 12.

فهل سيكون تفسيرنا لهذه اللفظة هو هو في جميع الأماكن المذكورة ؟ وهل ستكون ترجمتها بنفس الشكل مع هذا التغيير الجوهري الذي يلحقها ؟

mort, Nous en faisons descendre l'eau et Nous en faisons sortir toutes sortes de fruits. C'est ainsi que nous ressusciterons les morts. Peut être vous rappellerez-vous.

يلاحظ أننا نقرأ في هذه الترجمة «les vents qui annoncent la pluie»

عوض ما قلناه في ترجمتنا لنص الإمام نافع السابق، كنا قلنا هناك :

les vents soufflant de toutes parts.

ترجمنا هكذا هنا لأنه جاء في قراءة عاصم : «الرياحَ بُشْراً».

يقصد الحق سبحانه وتعالى بـ : «الرِّيَاحَ بُشْراً» الرياح التي تبشر بالمطر.

ولم نغير شيئا فيما بقي من الآية لأن عاصماً يقرأ هذا الباقيّ مثل نافع عدا «تذكرون» التي يخفف ذالها كما يخففه معه الأخوان حمزة والكسائيّ.

فإن قرأنا هذه الآية بقراءة الأخوين حمزة والكسائيّ اللذين يؤديان الرسم (**الرىح**) «الرِّيحَ» بالإفراد ويؤديان الرسم العثماني (**ىسرا**) «نَشْراً» أصبح النص بقراءتهما كما يلي :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نَشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

يمكن ترجمة هذه الآية مؤداة بهذه القراءة كما يلي :

Et c'est lui qui libère par sa miséricorde la belle brise douce productrice de nuage et une fois cette brise chargée de nuées, Nous la dirigeons vers un pays **complètement mort.**

الباقي بدون تغيير.

يلاحظ أننا نقرأ في هذه الترجمة «la belle brise douce productrice de nuage»

لماذا هذا المعنى ؟ لأن الأخوين حمزة والكسائيّ يقرآن ـــ كما قلنا ـــ الرسم (**الرىح**) بدون مد الياء، أي مفردا. كما يقرآن الرسم (**ىسرا**) «نشرا» بفتح النون وسكون الشين. ومعنى «الريح نشرا» : «الريح الطيبة التي تنشىء السحاب»[5] لهذا كانت ترجمة هذه الآية كما قرأنا.

(5) **حجة القراءات**، للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979، ص 285.

لكنها ستعطينا معنى آخر حين نقرأها بقراءة الإمام ابن كثير الذي يؤدي الرسم (ىسرا) «نُشُرا» بضم النون والشين مثل ما يقرأ به نافع وأبو عمرو، ولكنه يقرأ الرسم (الرىح) بالإفراد مثل الأخوين كما أنه يقرأ الرسم (ىسٮ) بالتخفيف، لذا سيكون معنى الآية بقراءته كالتالي :

Et c'est lui qui libère par sa miséricorde **les vents soufflant de toutes parts,** et une fois chargés de lourdes nuées, Nous les dirigeons vers un pays **presque agonisant** (de sécheresse), Nous faisons descendre l'eau et Nous faisons sortir toutes sortes de fruits. C'est ainsi que nous ressusciterons les morts. Peut être vous rappelez-vous.

نرى إذن أننا حين نريد ترجمة معاني القرآن لا نترجم إلا انطلاقا من رواية واحدة، إما من رواية حفص، وهو الغالب في الترجمات التي نصادفها، وهو ما قام به مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، وإما من رواية ورش كما فعلت جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا، وإما انطلاقا من رواية قالون، وقليل جدا ما نعثر على ترجمة مستمدة من هذه الرواية. ونتمنى أن نرى يوما ترجمة للقرآن الكريم انطلاقا من رواية دوري البصري المتداولة مطبوعة الآن.

ذكرت هذه الروايات الأربع، لأنها مطبوعة يستطيع المترجم أن يصل إليها، إن أراد.

أما أن نرى ترجمة للقرآن انطلاقا من رواية البزي عن ابن كثير مثلا أو انطلاقا من رواية هشام عن ابن عامر أو من رواية خلف عن حمزة أو من رواية دوري علي فأمر مستحيل الآن، لأن هذه الروايات الأخيرة غير مطبوعة وإذن غير موجودة في السوق[6].

فكيف يترجم نص لا يستطيع العازم على ترجمته أن يصل إليه ؟

لهذا أقول إن الترجمات القرآنية المتوفرة عندنا لا تترجم إلا جزءا من مراد الله، أما المراد كاملا فيعبر عنه الرسم العثماني بالشكل الذي أوضحناه أعلاه.

(6) هذه الروايات موجودة عندنا ضبطناها ضبطا محكما بعون الله وقوته وننتظر الفرصة السانحة لنشرها على الناس، نطلب الله أن يحقق الرجاء وأن يجعل العمل لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك وقادر عليه.

فإن عدنا إلى الآية 57 من سورة الأعراف التي مثلنا بها، لاحظنا أن المراد الكامل إنما يكمن في الرسم العثماني وهو في الروايات المنبثقة عنه مجزأ كتجزئته إليها.

أقول إن عدنا إلى آيتنا وأردنا أن نستخرج منها معناها كاملا لنترجمه لكان عندنا ما مؤداه :

«هو الذي يرسل، بين يدي رحمته، الرياح (أو الريح) الطيبة اللينة التي تهب من كل جانب مبشرة بالمطر[7] حتى إذا أقلت سحابا ثِقالاً سقناه لبلد يكاد يموت أو مات تماما فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون».

فإن ترجمنا هذا النص بهذا المضمون المحمول بالرسم العثماني إلى اللغات الأجنبية لكان عندنا مراد الله كاملا من كلامه المثبت في هذه الآية بحق وحقيق.

أعتقد أنه من المفيد أن نمثل بمثال آخر أقل تعقيدا من هذا ليتضح أكثر ما نريده بقولنا : «الترجمات القرآنية لا تؤدي إلا جزءا من مراد الله».

لنأخذ الآية 3 من السورة المدنية رقم ستين في المصحف الكريم المعروفة بـ : «الممتحنة» ولننظر ما هو المعنى المترجم عند المهتمين بهذا الأمر.

يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : (نثبتها برواية حفص عن عاصم)

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الرسم الذي يحمل أكثر من معنى في هذه الآية هو : (ىڡصل).

الذي يؤدي بأربعة أوجه؛ ولابد لكل وجه من معنى؛ هذه الأوجه هي :

1 ــ يُفْصَلُ : يقرأ بها كل من نافع وابن كثير وأبي عمرو.

2 ــ يُفَصَّلُ : الذي يقرأ به ابن عامر الشامي وحده.

3 ــ يَفْصِلُ : الذي يقرأ به عاصم وحده.

4 ــ يُفَصِّلُ : الذي يقرأ به الأخوان حمزة والكسائي.

(7) نجد في القرآن الكريم آيتين شبيهتين بهذه، في **الفرقان** الآية 48 وفي **النمل** الآية 63.

فهل يعقل أن تؤدي هذه الصيغ الأربع بلفظة واحدة من اللغة الأجنبية المترجم بها ؟

إن ربنا يخبرنا بهذا الرسم (يفصل) أنه :

1 ـــ يُقيمُ حكماً يَفْصِلُ به بين العبد وأرحامه.

2 ـــ ثم (يُفَصِّلُ) بينهما الفصل القاطع ليفرق بينهما.

3 ـــ وحينئذ (يُفْصَلُ) بين الطرفين بالعدل، فيوضع حاجز بينهما.

4 ـــ ثم (يُفَصَّلُ) بين الجانبين.

5 ـــ نلاحظ حينما نعود إلى المترجمين أنهم مترددون بين هذه الصيغة وتلك؛ فالترجمة المنجزة في مجمع الملك فهد تترجم بـ Décidera entre vous. لقد اختارت هنا المراد الذي يؤديه بقراءته عاصم (يَفْصِلُ). والمترجم المغربي محمد الشياظمي ترجم قائلا «Vous départagera» ذهب إلى قراءة الأخوين (يُفَصِّلُ) وترجمت جماعة الدعوة بليبيا قائلة : «Vous serez départagés» ذهبت إلى قراءة القراء الثلاثة نافع وابن كثير وأبي عمرو (يُفْصَلُ) وترجم Savary هكذا «Mettre une barrière entre vous» ذهب إلى قراءة ابن عامِر الشامي.

لا نملك والحالة هذه إلا أن نقبل ترجمتهم، لكننا في نفس الوقت، نلاحظ أن كل واحد منهم ترجم جزءا من مراد الله لا المراد كله الذي يحمله الرسم والذي أشرنا إليه سابقا.

يحمل الرسم الموحد إذن معاني مختلفة، يبرزها كلها كاملة الضبط الذي يضاف إليه والنقط التي توضع على أو تحت حروفه.

نبين ذلك أكثر، مرة أخرى، بأمثلة سيتضح، إن شاء الله لنا من قراءتنا لها، أن الرسم العثماني، رغم أنه واحد موحد، يحمل بفضل تغيير ضبطه ونقطه وزيادة الهمز فيه أو حذفها منه معاني متباينة.

المثال الأول نأخذه من أواخر الآية 259 (بالعد الكوفي) في سورة البقرة. في هذا الجزء الأخير من هذه الآية حرفان اختلفا القراء في قراءتهما :

الحرف الأول (وأكتبه بالرسم العثماني لنتمكن من قراءته بالقراءتين المتواترتين) :

هو (**ننشرها**) يقرأه الثلاثة نافع وابن كثير وأبو عمرو «ننشرها»، ويقرأه الآخرون «ننشزها» بالزاي.

الحرف الثاني وأكتبه أيضا بالرسم العثماني (**اعلم**) الذي يقرأه الإخوان حمزة والكسائي «آعْلَمْ» ويقرأه الباقون «أعْلَمُ»، فيكون إذن في هذا الجزء من الآية ثلاث قراءات، كل قراءة بمعنى طبعا.

1 ــ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وهي : **﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

معنى قوله «ننشرها» بالراء «نحييها» والدليل على أن هذا هو معناها قوله في مطلع الآية، وهو يتكلم عن القرية : «أنّى يُحْيِي هَذِهِ الله بَعْدَ مَوْتِهَا»، معنى هذا بالفرنسية : **«Comment le seigneur ferait-il revivre cette cité anéantie»**

يمكن مع هذه المعطيات ترجمة قراءة الإمام نافع ومن معه إلى :

«Vois comment nous ressuscitons les os et ensuite les couvrons de chair !» Edifié, l'homme dit : «Je reconnais qu'Allah a pouvoir sur toute chose».

2 ــ قراءة حمزة والكسائي؛ وتؤدى كما يلي : **﴿وانظر إلى العظام كيف نُنشِزُها ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ، قَال آعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

معنى قوله «ننشزها» بالزاي : نرفعها، يقصد : نرفعها من الأرض إلى الجسد، من هنا يكون ترجمة معنى قراءة الأخوين كما يلي :

Vois comment nous faisons sortir les os (de leur tombe) et ensuite nous les couvrons de chair. Edifié l'homme (se) dit (à lui-même) saches (Ô humain) qu'Allah a pouvoir sur toute chose.

صيغة الأمر هذه التي يقرأ بها هذان القارئان في الحرف (اعلم) تجعل الكلام في الآية المذكورة منسجما كل الانسجام؛ وفعلا نقرأ فيها قبل : «**فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ**» ثم نقرأ فيها بعد ذلك «**وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ**».

3 ــ قراءة ابن عامر وعاصم اللذين يقرآن الحرف الأول (**نُنشِزها**) مثل الأخوين ويقرآن الحرف الثاني (**أَعْلَمُ**) مثل نافع ومن معه، وعليه فستكون ترجمة معنى قراءتهما بالنسبة لـ(**نُنْشِزُها**) مثل ما رأيناه عند حمزة والكسائي، وبالنسبة للحرف الثاني (**أَعْلَمُ**) مثل ما رأيناه عند نافع ومن معه.

سيسهل على المهتم بترجمة معاني القرآن أن يلاحظ أن معنى (**آعْلَمْ**) غير موجود في أية ترجمة معروفة؛ لأنه يستحيل على أي أحد من المترجمين ــ بالتكوين الذي هم عليه الآن ــ العثور على نص القرآن بإحدى روايات حمزة والكسائي لترجمته. وبما أن نصهما هو أيضا قرآن يتعبد به، لا فرق بينه وبين نص رواية قالون أو ورش أو دوري البصري أو حفص فإننا نقول مرة أخرى، إن الترجمات الموجودة لا تؤدي إلا جزءا من مراد الله.

لاشك أن الأمر اتضح بعد هذه الأمثلة ولكنني أحب أن أؤكد على هذه المسألة بمثال آخر لعله ينير سبيلنا أكثر، وأحرص على أخذه من سورة البقرة أيضا.

يقول الله تبارك وتعالى في مطلع الآية 148 من سورة البقرة :

1 ــ أقرأها أولا بقراءة الجماعة : ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا آلْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ آللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ آللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

فإن ترجمنا معناها كان عندنا :

— A chacun une orientation vers laquelle il se tourne.

هذا هو المعنى الذي أختاره للصيغة «مُوَلِّيها» بكسر اللام. أختار هذا المعنى لأني أعتقد أن «مولِّيها» تعني متبعها وراضيها. فإن أردنا شرحها أكثر قلنا : لكل صاحب ملة وجهة أي قبلة هو مستقبلها. ومن هنا يمكن أن نقبل الترجمة الآتية لمعنى هذا الجزء من الآية :

— A chacun une orientation vers laquelle il s'oriente pour accomplir sa prière.

وسيكون من الصعب علي قبول الترجمة التي قدمتها لنا جمعية الدعوة الإسلامية بليبيا وهي :

— Il est pour chacun un objectif vers lequel se portent ses regards.

ولقائل أن يقول لي : لماذا تستبعد هذا المعنى أنت الذي تقول دائما : «الآية متعددة المعاني على الدوام»، وهذا معنى رآه أصحاب هذه الترجمة لهذا الجزء من هذه الآية.

أقول : صحيح أن الآية القرآنية لها معاني متعددة، لكن المعاني المستنبطة من الآية القرآنية مضبوطة بضوابط دقيقة لا تخرج عنها بحال من الأحوال.

وأول ضابط معتبر في الموضوع إحصاء المعاني المستنبطة من الرسم الثابت، فكلما تغير ضبطه تغير معناه.

وأما الضابط الثاني فهو السياق الوارد فيه الآية المترجمة[8].

هذا الجزء وارد هنا في مسألة القبلة؛ لذا يجب أن تكون الإشارة للقبلة بينة بشكل من الأشكال، والترجمة التي أستبعدها لا تشير، لا من قريب ولا من بعيد، إلى القبلة، بل يفهم من الترجمة أية جهة عدا القبلة.

2 ــ أقرأها ثانيا بقراءة ابن عامر الشامي الذي يؤدي الرسم (**مولـها**) بفتح اللام، ويقرأ : **﴿ولكل وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلّٰهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخيراتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَميعاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

وتقدير هذا بكل اختصار : لكل ذي ملة قبلة هو موليها وجهه، وعليه يكون معنى الآية باللغة الفرنسية :

— Chaque personne embrassant une religion a une orientation vers laquelle elle s'oriente.

هذا معنى كما نلاحظ مستنبط من قراءة الإمام ابن عامر الشامي وهي قراءة متواترة وهو منفرد بها. وبما أن روايتيه لم تنشر بعد[9] ولم يطلع عليها المترجمون جاز لنا القول : إن المعنى المراد من الحق سبحانه وتعالى والذي وجب أن نؤمن به لا وجود له في أية ترجمة.

أعتقد أنه يجب أن نكون أكثر صراحة مع إخواننا المترجمين، كما أعتقد أنه يجب إسداء النصح للجهات التي تشرف بحسن نية ولوجه الله، ولاشك، على إصدار ترجمات للقرآن.

نقول إن القرآن ــ كما تعلمون ــ نص عربي معقد بأسراره وصعب بتركيبه، أساسه، كما قلنا رسم عثماني ذو ألطاف كثيرة لا يدرك كنهه إلا من تدبر ملياً

(8) سأتحدث عن ضابط ثالث مهم كذلك فيما بعد.

(9) لابن عامر الشامي روايتان مثل سائر القراء. الرواية الأولى رواية هشام، الرواية الثانية رواية ابن ذكوان.

الوحي المبين الذي أنزل على رسوله ﷺ وسهر الليالي الطوال يحل ألغازه ويجهد نفسه في حفظ رواياته المتواترة.

هذه الأمور كلها مجتمعة مضافة إلى أشياء أخرى، ذكرنا بعضها ونذكر بعضها الآخر فيما يلي، هي التي يمكن، إن أخذت بعين الاعتبار، أن تجعل عمل المترجم مفيدا محيطا بشكل مرض، بمراد الله تعالى من كلامه. سيظهر، إن شاء الله، هذا البعض الموعود به أعلاه من خلال تدبرنا لمقطع صغير في الآية 85 من سورة البقرة. هذا الجزء هو : أكتبه بالرسم العثماني.

﴿**وان ياتوكم أسرى تفدوهم**﴾.

يؤدى هذا الرسم بثلاثة أداءات :

الأول : أداء نافع وعاصم والكسائي.

يقرأ هؤلاء الرسم (**اسرى**) هكذا : «أُسَارى» على وزن «فُعَالى» بضم الفاء. يدل هذا الوزن على «التخفيف في الحبس» إذا صح التعبير، بمعنى أن الأسارى هم في الأسر، ولكنهم مع ذلك، يتمتعون بأشياء لا يتمتع بها الأسرى الذين نصوغهم على وزن «فعلى» بفتح فسكون. إن الأسارى يتحركون في مسافات قد تتسع فتصبح بلدا بأكمله وقد تضيق فتصير قفصا؛ المهم أنهم غير مربوطين ولا مكبلين، بخلاف الذي يقرأ هذا الرسم «أسرى» على وزن «فعلى» بالفتح؛ هؤلاء لا يملكون حركة إنهم مربوطون مكبلون.

من هنا تكون ترجمة أُسَارى (بضم ففتح) : «Prisonniers»

وتكون ترجمة أَسْرى (بفتح فسكون) : «Prisonniers Enchaînés»

ومعلوم أن جمع «فعلى» بفتح فسكون هو جمع لذوي العاهات، مثل مَرْضَى، وَصَرْعَى وَقَتْلى وَجَرْحَى.

يقرأ هؤلاء الثلاثة الرسم (**تفدوهم**) تفادوهم بضم ففتح؛ فالفعل هنا من فريقين؛ أي يفدي هؤلاء أسارهم من هؤلاء وهؤلاء أسارهم من هؤلاء؛ هناك تبادل، تعطوهم ويعطوكم.

يكون المقطع مقروءا عند هؤلاء هكذا؛ نُثْبِتها برواية دوري على :

﴿**وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَرَى تُفَـٰدُوهُمْ**﴾.

معنى هذا المقطع باللغة الفرنسية :

Si vos coreligionnaires vous viennent captifs vous les échangez contre des prisonniers (de vos ennemis) alors qu'il, vous était interdit.

لاحظتم أننا قابلنا الفعل «تفادوهم» بـ Echanger des captifs؛ لأن هذا الفعل كما قلنا من فريقين. وقابلنا «أسارى» بـCaptifs ليس إلا؛ لأن الفرنسية ليس فيها دقة اللغة العربية ولا جمالها. وسيظهر ذلك حين نعرض لقراءة حمزة الذي يؤدي هذا الحرف «أَسْرى» بفتح فسكون وسنرى كيف سيترجم.

الثاني : الأداء الذي ينجزه كل من ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر الذين يقرأون الرسم (اسرى) كما يقرأه الأولون ولكنهم يقرأون الرسم (**تفدوهم**) «تَفْدُوهُمْ» بفتح فسكون ومعناه : «تشترونهم» من العدو، هو فعل منجز من فريق وَاحِدٍ بخلاف الأداء الأول كما رأينا.

«تفدوهم» هو في دين اليهود كذلك : «عندهم لا يكون أسير من أهل ملتهم في أسارى غيرهم»(10).

نترجم أداء هؤلاء القراء إلى اللغة الفرنسية هكذا :

Si vos coreligionnaires vous viennent captifs vous les rançonnez alors qu'il vous était interdit.

الثالث : الأداء الذي يؤديه حمزة. سبق أن قلنا إن حمزة يقرأ أُسْرَى (بفتح فسكون).

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾.

ويترجم كما يلي :

Lorsque se présente à vous des captifs enchaînés vous les rachetez(تفدوهم) et il vous était défendu de les traiter hostilement.

II

أصر أن في بعض الأحيان تكون الترجمة التي يقدمها المترجم للنص القرآني

(10) ابن زنجية، ص 105.

مناسبة لما أراده الله وعبر عنه بكل الروايات المروية عن رسول الله. إلا أن هذا لا يقع دائما؛ الله تبارك وتعالى يدقق برواية ويتمم المراد برواية أخرى؛ لكن الترجمة ــ نظرا لأن اللغات الأجنبية ليست بالدقة التي نعتقد ــ فإن الصيغة المقترحة، بسبب عموم النص الأجنبي المترجم إليه وعدم دقته، تكون دالة أيضا على الأوجه المذكورة في القرآن؛ غير أن هذا لا يقع إلا بصدفة ولا يأتي إلا نادرا بحيث لا يمكن أن نستنبط من هذا الأمر، والحالة هذه، قاعدة نسير على ضوئها.

نعزز ذلك بمثال يوضح هذا؛ لنقرأ الآية 210 في سورة البقرة. يقول الله تبارك وتعالى فيها. (أثبتها بقراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم) :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾.

ويمكن أن نؤدي باللغة الفرنسية المقطع الأخير منها كما يلي : (هذا المقطع كتب بخط مضغوط).

«... Mais c'est à Dieu que tout sera ramené»

هذه صيغة صالحة لـ«ترجع» التي نجدها في قراءات القراء الثلاثة ابن عامر الشامي وحمزة والكسائي، وصالحة كذلك لما يقرأ به الآخرون؛ وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم.

ويمكن أن نترجمها كما يلي أيضا :

— Et c'est à Dieu que toute chose est ramenée».

ليس هذا الذي نقوله، في هذه النقطة بالذات، بالحل النهائي الصحيح لهذه الآية ولمثيلاتها، وهي كثيرة في القرآن الكريم وإنما هو حل المضطر الذي يسعى إلى مساعدة قارىء ترجمات القرآن على أن يعرف بشكل مقبول مقصود رب العالمين من كلامه؛ وإلا فالمسألة أشد تعقيدا مما ذكرنا. ذلك أن الترجمة التي اقترحناها لآخر مقطع في الآية 210 من سورة البقرة وهو قوله : **﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ﴾**، مقبولة كما قلت، لكن بشرط أن يكون قارىء هذه الترجمات عموما والمترجم للنص على وجه الخصوص على بينة من قضية أساسية.

لابد أن ينتبه إلى أن هذا المقطع الذي ختمت به آيتنا مكرر بكل مكوناته،

بلا زيادة ولا نقصان، وفي نفس السياق ولنفس الغرض في ستة مواضيع من القرآن الكريم.

لقد ذكر **أولا** في البقرة كما أثبتناه أعلاه، وذكر **ثانيا** في سورة آل عمران في الآية 109 يقول ربنا فيها : ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**﴾.

وذكر **ثالثا** في الآية 44 من سورة الأنفال. يقول الله هناك : ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**﴾.

وذكر **رابعا** في الآية 76 من سورة الحج التي جاء فيها : ﴿**يعلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**﴾.

وذكر **خامساً** في الآية 4 من سورة فاطر جاء فيها : ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**﴾.

وذكر **سادسا** في سورة الحديد في الآية 5 قال فيها : ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾.

فهذا إذن كما نرى مقطع واحد له معنى موحد، يجب أن يؤدى، والحالة هذه في اللغات الأجنبية بجملة واحدة تتكرر ست مرات بنفس وحداتها. لكننا نرى غير ذلك في الترجمات التي بين أيدينا فزيادة على الزمن الذي يتغير في هذه المقاطع من الحاضر إلى المستقبل كما سنرى في النماذج التي سنقدمها نلاحظ أن المعنى هو أيضا يتغير من مكان إلى مكان آخر.

نرى مثلا في ترجمة جمعية الدعوة أن مقطع البقرة ترجم إلى : tout fera retour à Dieu. إنها تحتفظ بنفس الصيغة لترجمة المقطع الموجود في آل عمران؛ تغير فيه فقط Dieu بـ lui، ولكنها في الأنفال تؤديه كما يلي :

— Et c'est vers lui que tout doit faire retour.

ثم تترجم المقطع نفسه في الحج بـ :

— C'est à lui que tout doit aboutir.

وما قلناه عن هذه الترجمة نقوله عن ترجمة الملك فهد الذي تردَّد بين :
— Et c'est vers Allah que tout retournera.

التي يترجم بها مقطع الأنفال وبين :
— Et c'est à Allah que toute chose est ramenée.

التي ترجم بها مقطع سورة البقرة.

ومن الواجب علي، أعتقد، أن أورد مثالا آخر يوضح هذه النقطة أكثر، لنأخذ الآية 214 من سورة البقرة التي يقول سبحانه فيها (أثبتها برواية حفص).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يقُولَ ٱلرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، مَتَى نَصْرُ ٱللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

أمثال هذه الآية وهي كثيرة في القرآن، لا يستطيع المترجم أن يترجمها سالمة لأنه أتقن اللغة العربية وأتقن اللغة التي يترجم معاني القرآن إليها؛ هذا غير كاف، لابد مع هذا وذاك أن يعرف أمورا كثيرة تتعلق :

أولا بعادة العرب في كلامها لاسيما وأن القرآن نزل على ما درجت عليه في كلامها.

ثانيا بمكانة المذكورين في الآية وكيف يتحدث عنهم الحق سبحانه فيها.

إنه يغير، في آيات كثيرة، ترتيب المتحاورين. نلاحظ أنه في آيات عديدة يقدم الشريف الرفيع، وإن كان كلامه متأخرا، ثم يقدم الحوار كما جرى في الواقع. نرى أن في آيتنا المثبتة أعلاه المذكور أولا هو الرسول؛ ذكر في صدر الكلام لمقامه الرفيع لكن كلامه بقي في رتبته أي بعد كلام (الذين آمنوا). فالآية هي في مراد الله بهذا الترتيب :.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّستهم البَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولُ (الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ ٱللَّهِ).

(ويقول) الرَّسُولُ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ.

نقرأ في الترجمات أن الرسول ﷺ يشك في مجيء نصر الله، وهذا لا يجوز في حقه لأن الرسول لا يمكن أن يشك في نصر الله.

وعلى هذا وجب أن تكون آخر هذه الآية في الترجمة على هذا الشكل :

Ils ont été secoués par l'adversité au point qu'ils vinrent à se demander : «à quand donc le secours du Seigneur» et le prophète de répondre : «certes le secours de Dieu est toujours proche».

أنا مقدر أن هذا الأمر سيكون صعبا؛ لأن القرآن أعظم من كل شيء؛ ومن العسير جدا أن يؤدى بنص غير نصه ثم يأتي بالمراد كما أراده ربنا. لذلك درج الناس على القول بأنهم إنما يترجمون معانيه؛ ولكنهم في الحقيقة لا يترجمون إلا جزءا من معناه. وبما أننا اتفقنا على أننا إنما نترجم المعنى، فما المانع من توسيع النص المترجم إلى أن يشمل كل مراد الله المنصوص عليه بالألفاظ المنزلة؛ وللوصول إلى هذا المعنى وهي تأدية النص القرآني كاملا لابد أن نستعين بمتخصصين يعرفون هذا النص وخفاياه، ويا ما أكثرها !

وسنصدر الحكم نفسه الذي أصدرناه ونحن نبحث في الآية 214 على الآية 236 من نفس السورة التي يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : **﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَعاً بِٱلْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.**

إن عدنا إلى الترجمات المتوفرة للاحظنا أن المترجمين لم يترجموا في هذه الآية إلا صيغة واحدة من الصيغ التي يقرأ بها الرسم (**تمسوهن**). وهذه الصيغة المترجمة موجودة في روايتي ورش وحفص المتوفرتين عند السادة المترجمين الذين يجهلون — بشكل تام — وجود روايات متواترة أخرى لهذا الكتاب المقدس الذي نتعبد به.

وفعلا كلهم ترجموا انطلاقا من قوله : «مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ» وهذا حين يكون الرجل منفرد بالمسيس. يقرأ بهذه الصيغة كل من نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم. وهذا يمكن أن يترجم كما فعل مجمع فهد بالمدينة المنورة : «Sans les avoir touchées».

والذين يقرأون بهذا الوجه يحتجون بما في قصة مريم، الآية 47 من سورة آل عمران التي جاء فيها :

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

Elle dit : «Seigneur ! comment aurai-je un enfant, alors qu'aucun homme ne m'a touchée ?».

لكن لم يخطر على بال أحد من إخواننا المترجمين أن الحق سبحانه قال أيضا (رواية الليث عن الكسائي) ﴿لاَ جُنَاحَ عَليكُمْ إن طلَّقتم النِّسَاءَ مَا لم تُمَاسُّوهُنَّ أو تَفرِضُوا لهنَّ فريضةً ومتعوهُنَّ على المُوسِع قدرُهُ، وعَلَى المُقْتر قدْرهُ، متْعاً بالمَعْرُوفِ حقّاً عَلَى المحسنين﴾.

وإن كانوا ترجموها بما يؤدى ما توحي إليه هذه الصيغة. وهذه الصيغة «تماسوهن» توحي أن المسيس وإن كان من الرجل فالمرأة مشاركة فيه، هؤلاء الذين يقرأون بهذا وهما حمزة والكسائي يحتجون بما ورد في سورة المجادلة الآية 3 التي نقرأ فيها : ﴿والَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِّن نِّسَائِهِم ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

Ils doivent affranchir un esclave avant d'avoir aucun contact (conjugal) avec leur femme.

سيقول لي بعض الناس : إن الترجمة مثلا لقوله تعالى في سورة البقرة الآية 219 : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ الآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. صحيحة وسليمة وإن كان المترجم يجهل أن الله أنزل كذلك اللفظ «كَثِير» لأن الترجمة تعبر عن كل ذلك. قال مترجم هذه الآية :

Ils t'interrogeront sur le vin et le jeu de hasard. Réponds-leurs. Dans l'un comme dans l'autre, il y a un grave péché et quelques avantages pour les hommes, mais le péché l'emporte largement sur les avantages qu'on peut en tirer.

سيقولون لي إن «grave» تؤدي معنى «كثير» التي يقرأ بها الأخوان حمزة والكسائي وتؤدي كذلك معنى : «كبير» الذي يقرأ به الآخرون.

أقول الحقيقة غير ذلك فهي حين تؤدى بالباء تكون وصفاً للإثم بالكبير باعتبار الآثمين : كل واحد من متعاطيها آثم ارتكب إثما كبيرا.

وباعتبار من «يلعنون بسببها» وهم «كثير» :

بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها ومعتصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها والمحمولة له وآكل ثمنها.

وكلمة «grave» لا تحمل هذا، لذا وجب البحث عن ما يقوم مقام الأمرين، كأن أن يقول مثلا :

Le péché dans l'un comme dans l'autre est grave et entache tout celui qui s'y adonne.

أنا لا أقول إنه لا يوجد إلا هذه الصيغة، أنا أثير بهذا الانتباه إلى المعنى الرئيسي للآية الذي يجب أن يبرز في الترجمة كاملا غير منقوص.

منهج الدارقطني في الجرح والتعديل
دراسة تطبيقية في سننه

عبد الرزاق الشايجي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الكويت

مدخل : منزلة الدارقطني بين علماء الجرح والتعديل :

للإمام الدارقطني ـــ رحمه الله ـــ مؤلفات في الجرح والتعديل تدل على سعة باعه في هذا العلم وإمامته فيه، وهو من جملة العلماء الذين يعتمد عليهم في الجرح والتعديل، وفي رسالة الذهبي ـــ رحمه الله ـــ في «**ذكر من يعتمد عليه في الجرح والتعديل**» ذكره بينهم وخصه بمزيد مدح فقال : «أبو الحسن الدارقطني وحيد عصره وبه ختم معرفة العلل»[1].

وهو مصنف في الطبقة الأولى من النقاد الذين تناولوا عامة الرواة بالجرح والتعديل فهو مكثر في هذا الباب له فيه الإمامة والريادة ولعل السبب في ذلك حفظه وإحاطته بالرواة والتي لا يساويها شيء، فقد كان يسأل في الجرح والتعديل وفي التعريف بالرواة، فيجيب بما تمليه عليه الذاكرة بداهة بما يحير العقول، ويدهش الألباب.

وعندما يقارن الذهبي بين أقواله وأقوال مخالفيه، نجد أن الذهبي لا يعدل به أحداً. قال في ترجمة محمد بن الفضل السدوسي : بعد أن ذكر فيه قول الدارقطني : «فهذا قول حافظ العصر الذي لم يأت بعد النسائي مثله فأين هذا القول من قول ابن حبان...»[2].

---

(1) **ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل**، ص. 195.

(2) **ميزان الاعتدال**، (8/4).

ومما يميز الدارقطني أنه مصنف في الطبقة المعتدلة في الجرح والتعديل يظهر هذا جلياً في اعتماد أئمة النقد المتأخرين عنه لأقواله ومتابعتهم عليها.

ويزداد هذا الأمر -وضوحاً إذا قارنا أقواله بأقوال الأئمة المشهود لهم بالاعتدال.

وقد قسم العلماء النقاد إلى ثلاثة أقسام :

قسم متعنت في الجرم متثبت في التعديل يغمز الراوي بالغلطتين والثلاث.

وقسم منهم متسامح.

وقسم معتدل كأحمد والدارقطني[3].

وقال الذهبي في معرض رده على ابن الجوزي عندما قال في حديث أعله الدارقطني : «أنه لا يقبل حتى يبين سببه»[4]، فقال الذهبي معلقاً على ذلك : «هذا يدل على هوى ابن الجوزي وقلة علمه بالدارقطني فإنه لا يُضعِّف إلا من لا طِبَّ فيه»[5].

وقد نص على اعتداله كل من التهانوي في «قواعد في علوم الحديث»[6]، واللكنوي في «الرفع والتكميل في الجرح والتعديل»[7].

وقد تكلم في اعتدال الدارقطني جماعة من أهل المذاهب إما لأنه ضعف بعض المنتسبين إلى مذهبهم أو لأنه ضعف أحاديث يستدلون بها.

ومن ذلك قول الشيخ بدر الدين محمود العيني ــ رحمه الله تعالى ــ في البناية شرح الهداية في بحث القراءة في حقه : «هو مستحق للتضعيف». فتعقبه الشيخ العظيم آبادي بقوله : فلا يلتفت إليه، بل هو إساءة أدب وقلة حياء منه فإن مثل الإمام أبي محمد عبد الغني المصري وأبي عبد الله الحاكم والقاضي أبي الطيب الطبري

---

(3) **المتكلمون في الرجال** للسخاوي، ص. 137، وأصله في ذكر من يعتمد قوله في **الجرح والتعديل** للذهبي، ص. 158–159، ضمن **«ثلاث رسائل في الحديث»** للشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

(4) **فيض القدير**، (28/1).

(5) **المصدر نفسه**.

(6) **قواعد في علوم الحديث**، ص. 189.

(7) **الرفع والتكميل في الجرح والتعديل**، ص. 186.

والخطيب والأزهري وأضرابهم، ومن المتأخرين السمعاني، وابن الأثير والذهبي والنووي وغيرهم وثقوه وأثنوا عليه، فما مقدار الشيخ العيني رحمه الله عند هؤلاء الأئمة الأعلام[8].

أولا : منهج الدارقطني في تعديل الرواة وألفاظه فيهم :

ما اشتهر بين الناس من أن سنن الدارقطني قصد فيها مؤلفها جمع الأحاديث المعللة والضعيفة لا يعني أنه لم يكن له فيها تعامل مع الحديث الصحيح وثقات الرواة وقد أجريت دراسات على سنن الدارقطني فتبين أن مقاصد الكتاب ثلاثة :

1 ـــ بيان العلل.
2 ـــ الاستدلال لأهل المذاهب الفقهية.
3 ـــ تحرير أمر الرواة الراوين لهذه السنن ثقة وضعفا، وقبولا وردا.

وفي المقصدين الأول والأخير ظهر للإمام الدارقطني منهج متكامل في الجرح والتعديل وهو الذي سنبين معالمه في هذا البحث.

أما من حيث التعديل فقد بلغت الأحاديث التي حكم بقبولها «الصحيح والحسن» مائة وثلاثة وسبعين حديثا[9].

---

(8) **التعليق المغني**، (9/1).
ومن هذا القبيل تكلم الأستاذ محمد زاهد الكوثري في الإمام الدارقطني، لأنه ضعف من حيث الرواية إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة وتكلم فيه بنحو كلام العيني. **تأنيب الخطيب** للكوثري، ص. 167، ويكتفي بالرد عليه بكلام العلامة العظيم آبادي الذي نقلناه آنفا، مع أن العظيم آبادي معدود في الأحناف؛ وكذلك نحيل على ما كتب العلامة المعلمي في **التنكيل**، ص. 359. وفي الدفاع عن الدارقطني، انظر : **الدارقطني وآثاره العلمية**، ص. 107.

(9) هذه الإحصائية مستقاة من رسالة **الإمام الدارقطني وآثاره العلمية**، ص. 302–311، للدكتور عبد الله الرحيلي. إلا أن هذا التصحيح يشمل جملة من المراسيل والموقوفات، وفي هذا التصحيح من الدارقطني توثيق ضمني للرواة الذين لم ينص على ثقتهم وهم موجودون في أسانيد هذه الأخبار.
ومن ألفاظ الدارقطني في تصحيح الأحاديث : صحيح، إسناد صحيح، حسن صحيح، إسناد حسن، إسناد حسن صحيح، إسناد حسن كلهم ثقات، صحيح إسناده حسن وكلهم ثقات، صحيح وكلهم ثقات، كلهم ثقات، إسناد ثابت صحيح، ليس فيهم مجروح، لابأس به.

الجزء	عدد الأحاديث الصحيحة
1	106
2	48
3	8
4	13

وإذا أضفنا إلى هذا العدد الأحاديث التي حكم بعلتها باعتبار أن العلة لا تدخل إلا على الحديث الصحيح، فإن مجموع ما أثبت له علة في السنن (197) حديثا[10].

وفي ما يلي دراسة لمنهجه في التعديل من خلال هذه الأحاديث :

ألفاظ التعديل عند الدارقطني :

• **من عدَّد الألفاظ في توثيقه** : وهو نادر جدا كقوله في مسلم بن حرب : ثقة ثبت[11]، وفي الهيثم بن جميل : ثقة حافظ[12]، وفي عبد الله بن إدريس : من الثقات الحفاظ[13]، وفي عبد الله بن أبي بكر[14] : «من الثقات الرفعاء، وفي مالك بن أنس : «إمام حافظ»[15].

• **من وثقه بلفظ واحد** : وهو الغالب على استعمالات الدارقطني. يقول فلان ثقة ويكتفي بذلك. وقد نص في سننه على ثقة أكثر من خمسة رواة ومئة

(10) العلل الواردة في سنن الدارقطني، ص. 258.

(11) السنن، ج 1، ص. 103.

(12) السنن، ج 4، ص. 174.

(13) السنن، ج 4، ص. 224.

(14) السنن، ج 2، ص. 172.

(15) السنن، ج 3، ص. 49.

راو، منهم أئمة كبار : كمعمر[16]، وابن سيرين[17]، والشافعي[18]، ومجاهد[19]، ومالك[20]، ولم يزد على أن قال في كل واحد من هؤلاء : ثقة.

وأحياناً يضيف إلى الثقة الوصف بالشهرة كقوله في أبي النجاشي : «ثقة مشهور»[21].

- **من قال فيه ثبت** : وهو واحد فقط : أبو أسامة حماد بن أسامة[22].
- **من قال فيه إمام** : وهما يحيى بن يحيى النيسابوري[23]، وابن جريج[24].
- **من قال فيه صالح الحديث** : قاله في عيسى بن المسيب[25] فقط.
- **المفاضلة بصيغة أفضل : وهي إما أن تكون بين راويين** : كقوله : «ويحيى بن آدم أحفظ من أبي أحمد الزبيري وأثبت منه»[26]، وهشام — بن عروة — وإن كان ثقة، فإن الزهري أحفظ منه[27]، وإبراهيم بن أبي يحيى أحفظ من الدراوردي[28]، والأعمش أثبت من الأشعث وأثبت منه[29]؛ **أو تكون مطلقة** : كقوله في ابن المبارك : «من أثبت الناس»[30].

---

(16) السنن، ج 2، ص. 121.
(17) السنن، ج 2، ص. 184.
(18) السنن، ج 2، ص. 311.
(19) السنن، ج 2، ص. 58.
(20) السنن، ج 2، ص. 312.
(21) السنن، ج 1، ص. 152.
(22) السنن، ج 1، ص. 211.
(23) السنن، ج 4، ص. 259.
(24) السنن، ج 3، ص. 164.
(25) السنن، ج 1، ص. 63.
(26) السنن، ج 4، ص. 26.
(27) السنن، ج 4، ص. 240.
(28) السنن، ج 2، ص. 291.
(29) السنن، ج 4، ص. 27.
(30) السنن، ج 4، ص. 106.

• **من وثقه بقيد** : كقوله في مسلم بن خالد الزنجي : «سيّء الحفظ، ضعيف، ثقة. إلا أنه سيّء الحفظ»[31]، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى : «ثقة في حفظ شيء»[32].

• **ترتيب ألفاظ التعديل عند الدارقطني** :أعلاها ثقة ثبت، وثقة إمام، وثقة وثبت، ثم : صالح الحديث، ثم : ثقة سيّء الحفظ.

.أما أهل الدرجة الأولى، فيحتج بهم؛ وأما أهل الدرجة الأخيرة فلا يحتج بهم؛ وأما من قال فيه : «صالح الحديث» ففيه خلاف قدمنا ذكره. وصنيع الدارقطني يشعر بقوله، والله أعلم.

ثانيا : دراسة نقدية لمنهج الدارقطني في التعديل :

بالرغم من أن الدارقطني قد شهر اسم الحسن وأكثر من تداوله في سننه في الحكم على الأحاديث إلا أنه لم يخص رجاله بوصف يتميزون به عن أهل الحديث الصحيح.

مثلا : علي بن عبد الله بن مبشر وثقه في موضع[33]، ثم حسن حديثه في موضع آخر[34]، ثم عاد وصحح حديثه في موضع آخر[35].

ولعل السبب في ذلك أن معالم الحديث الحسن لم تكن واضحة ولم يكن حد بحد بين، على الأقل في تلك الحقبة من عصر التدوين، ولذلك نجد الدارقطني يجمع الوصف بالصحة والحسن على حديث واحد فيقول : حسن صحيح، أو : حسن كلهم ثقات ونحو ذلك من العبارات التي تفيد أنه لا يريد بالحسن الحسن الاصطلاحي الذي اصطلح عليه فيما بعد، ولعدم وضوح معالم الحديث الحسن ومعالم رواته نجد أن المؤلفين في علوم الحديث من أهل تلك الحقبة قد أهملوا ذكره، كالحاكم في معرفة علوم الحديث، وهو تلميذ الدارقطني.

(31) السنن، ج 3، ص. 46.
(32) السنن، ج 1، ص. 124.
(33) السنن، ج 1، ص. 123.
(34) السنن، ج 1، ص. 351–352.
(35) السنن، ج 2، ص. 171.

عبارات الدارقطني في التعديل موجزة مختصرة فإذا حصل المراد بكلمة واحدة فإنه يقتصر عليها ولذلك كان الغالب على استعمالاته في التوثيق : اللفظ الواحد.

ومن وثقهم بأكثر من لفظ في موضع عاد فوثقهم بلفظ واحد في موضع آخر.

مثل : سليمان بن حرب، قال في موضع : «ثقة ثبت»[36]، وفي موضع : «ثقة»[37].

مالك بن أنس، قال في موضع : «إمام حافظ»[38]، وفي موضع : «ثقة»[39].

ولذلك فإن من قال فيهم ثقة، أو ثقة ثبت، أو ثبت، أو إمام، أو إمام حافظ، أو ثقة مشهور، كلهم بدرجة واحدة وحديثهم صحيح.

لكنهم يتفاوتون في درجة الثقة فبعضهم في أعلاها وبعضهم في أدناها، ولذلك يحكم على إسناد رجاله ثقات بالحسن باعتبار أن فيه أصحاب الدرجة الدنيا في الثقة وآخر يحكم عليه بالصحة باعتبار رواته ثقات في أعلى درجات الثقة.

مثال ذلك : محمد بن إسحاق قال فيه : «ثقة»[40]، إلا أنه حسن حديثه[41].

فمن هؤلاء الذين قال عنهم ثقة ووصفهم غيره بصدوق :

الـــراوي	توثيق الدارقطني في السنن	قول ابن حجر في التقريب
الحسن بن أبي الربيع	121/2	صدوق، التقريب (ص/243).
عثمان بن محمد الأنماطي	181/2	مقبول، التقريب (ص/668).
عبد المجيد بن عبد العزيز	311/2	صدوق يخطىء وكان مرجئا، أفرط ابن حبان فقال: متروك، التقريب (ص/620) .

(36) السنن، ج 1، ص. 103.
(37) السنن، ج 2، ص. 221.
(38) السنن، ج 3، ص. 49.
(39) السنن، ج 2، ص. 312.
(40) السنن، ج 2، ص. 312.
(41) السنن، ج 2، ص. 312.

الــراوي	توثيق الدارقطني في السنن	قول ابن حجر في التقريب
محمد بن عجلان	312/2	صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة، التقريب (ص/877).
محمد بن إسحاق	58/2	صدوق يدلس، التقريب (ص/825).

يبقى إشكال في من وصفه بثقة مع وصفه بسوء الحفظ، مثل ما ذكر في مسلم ابن خالد الزنجي ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، فيجب أن نحمل هنا الثقة على معنى العدالة، أي هو ثقة في دينه، ضعيف في روايته. وهذا ينطبق على المذكورين فإنهما من أئمة الدين في الفقه والورع، ولكنهما ضعيفان في الحديث. وبهذا يزول الإشكال[42].

أما لفظ «صالح الحديث»، فهو من الألفاظ النادرة. فبعد استقصاء لسننه، نجد أنه لم يقله إلا مرة واحدة. قال عن حديث «السنور سبع» : «تفرد به عيسى بن المسيب عن أبي زرعة، وهو صالح الحديث»[43].

وعيسى هذا تكلم فيه فقد أخرج حديثه هذا الحاكم ثم قال : «عيسى هذا ليس بالقوي تفرد عن أبي زرعة إلا أنه صدوق، ولم يجرح»، وتعقبه الذهبي في «**مختصره**» وقال : «ضعّفه أبو داود وأبو حاتم».

وقال أبو حاتم في علله، قال أبو زرعة : «عيسى ليس بالقوي»[44].

وقد أورد الحافظ بن حجر اختلافهم فيه وقال : قال يحيى بن معين : ليس بشيء وضعفه أبو داود ثم نقل عن ابن عدي قوله فيه : صالح الحديث وهذا مثل الدارقطني.

وعن أبي حاتم قال : محله الصدق[45].

بقي من منهج الدارقطني في التعديل المفاضلات التي عملها بين الحفاظ، فقد

(42) بنحو هذا أجاب الدكتور الرحيلي في رسالته «**الإمام الدارقطني وآثاره العلمية**»، ص. 38–339، عن هذا الإشكال.

(43) **السنن**، ج 1، ص. 63.

(44) **التعليق المغني**، ج 1، ص. 63.

(45) **لسان الميزان**، ج 4، ص. 405.

قدم يحيى بن آدم على أبي أحمد الزبيري، والزهري على هشام بن عروة، والأعمش على الأشعث، وهذا لاشك فيه ولا يخالفه فيه أحد.

وأما تقديمه ابن أبي يحيى على الدراوردي فهو نقل نقله من الشافعي رحمه الله[46]. والشافعي معروف أنه كان يحسن الظن بإبراهيم بن أبي يحيى[47].

لكن الدارقطني لا يرتضي مثل هذه المفاضلة لأنه قال في ابن أبي يحيى ضعيف متروك الحديث[48]، بينما يصحح حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردي[49].

ثالثاً : منهج الدارقطني في تجريح الرواة وألفاظه فيهم :

تتنوع عبارات الدارقطني في الجرح أكثر من تلك التي استخدمها في التعديل، وهذه العبارات لا نجد فيها ما يخرج عن المألوف لدى العلماء إذ أن من منهجه رحمه الله في الجرح والتعديل استخدام عبارات مألوفة يفهمها السامع ويدرك منها المراد بسهولة.

ألفاظ الجرح عند الدارقطني :

• **من قال فيه ضعيف أو ضعيف الحديث** : وهو أكثر استعمالاته في الجرح، وقد حكم بالضعف في سننه على ما يزيد على (200) راو. من هؤلاء : الليث بن حماد الاصطخري[50]، قيس بن الربيع[51]، عبد الله بن المؤمل[52].

• **من قال فيه متروك** : وقد حكم في سننه على قرابة سبعين راويا أنهم متروكون. منهم : محمد بن سعيد[53]، محمد بن السائب الكلبي[54]، محمد بن

(46) **السنن**، ج 2، ص. 291.
(47) **تهذيب التهذيب**، ج 1، ص. 159.
(48) **السنن**، ج 1، ص. 162.
(49) **السنن**، ج 1، ص. 144.
(50) **السنن**، ج 2، ص. 162.
(51) **السنن**، ج 1، ص. 330.
(52) **السنن**، ج 4، ص. 57.
(53) **السنن**، ج 1، ص. 223.
(54) **السنن**، ج 4، ص. 130.

زياد[55]، عيسى بن عبد الله العلوي[56]، عقبة بن يقظان[57].

• **من وصفه بالكذب والوضع** : وهؤلاء مثل : عمرو بن خالد الواسطي[58]، إسماعيل بن أبي أمية[59]، الحسين العجلي[60]، بركة بن محمد[61].

• **لا يحتج بحديثه أو لا تثبت به حجة** : وهذا والضعيف عنده في مضمار واحد. فمن هؤلاء : قيس بن طلق[62]، عمره الغاضرية[63]، قال : لا تثبت بها حجة. ابن لهيعة[64]، قال : لا يحتج بحديثه، وكذا قال في عبد الحكم[65]، وحجاج بن أرطأة[66].

• **من أكد ضعفه بأن قال : ضعيف جدا** : وهو استعمال قليل وصف به أربع رواة، هم : محمد بن القاسم الأسدي[67]، أبو عمارة محمد بن أحمد[68]، ابن الخضرم[69]، ثابت بن حماد[70].

• **من وصفه بكثرة الخطأ** : كقوله في عبد الله بن محمد بن يحيى : كثير الخطأ[71].

---

(55) السنن، ج 1، ص. 102.
(56) السنن، ج 2، ص. 263.
(57) السنن، ج 4، ص. 281.
(58) السنن، ج 1، ص. 156.
(59) السنن، ج 3، ص. 32.
(60) السنن، ج 1، ص. 78.
(61) السنن، ج 1، ص. 115.
(62) السنن، ج 1، ص. 150.
(63) السنن، ج 1، ص. 125.
(64) السنن، ج 1، ص. 76.
(65) السنن، ج 1، ص. 104.
(66) السنن، ج 1، ص. 79.
(67) السنن، ج 1، ص. 245.
(68) السنن، ج 1، ص. 205.
(69) السنن، ج 2، ص. 126.
(70) السنن، ج 1، ص. 127.
(71) السنن، ج 3، ص. 202.

• **من استنكر حديثه** : كأن يقول : منكر الحديث وقد قالها في : عتبة بن السكن[72]، وعمرو بن محمد الأعشم[73].

• **من وصفه بالاضطراب** : وهو **إما مطلق** كقوله في يحيى بن أيوب : في بعض أحاديثه اضطراب[74]. **وإما مقيد**، كقوله في إسماعيل بن عياش : مضطرب الحديث عن غير الشاميين[75].

• **من قال فيه ليس بشيء** : وهو استعمال قليل في السنن لم أجده قاله إلا في إسماعيل بن عياش[76].

• **من سلبه القوة** : وهو **إما أن يكون سلبا مطلقا** كقوله : ليس بالقوي، أو ليس بقوي أو ليس بقوي في الحديث، وقد قالها في جماعة أكثر من ثلاثين راويا، وإما أن يكون سلب القوة مقيدا بصفة ما. كقوله في شريك : ليس بالقوي فيما يتفرد به[77].

• **من حكم بجهالته** : وهم ثلاثون راويا مثل : عبد الله بن عبد الرحمن[78]، عبد الرحمن بن رزين[79]، عبيد والد البختري[80]، المعلى المالكي[81]، قراد[82].

ومن هؤلاء من قال فيهم : ليس بالمعروف، منهم : عبد الله عن مجاهد، قال : ليس بالمعروف[83]، أبو زيد الضبي، قال : ليس بالمعروف[84].

---

(72) السنن، ج 1، ص. 159.
(73) السنن، ج 1، ص. 38.
(74) السنن، ج 1، ص. 68.
(75) السنن، ج 4، ص. 118.
(76) السنن، ج 1، ص. 155.
(77) السنن، ج 1، ص. 345.
(78) السنن، ج 1، ص. 56.
(79) السنن، ج 1، ص. 198.
(80) السنن، ج 2، ص. 102.
(81) السنن، ج 1، ص. 132.
(82) السنن، ج 1، ص. 420.
(83) السنن، ج 2، ص. 177.
(84) السنن، ج 2، ص. 184.

ومنهم من لا يعرف إلا بجده، فقد نقل الدارقطني عن موسى بن هارون قوله في صالح بن يحيى بن المقدام : لا يعرف صالح بن يحيى ولا أبوه إلا بجده[85].

• **ترتيب ألفاظ الجرح عند الدارقطني** : بعد هذه الدراسة النقدية المختصرة يمكن تنزيل ألفاظ الدارقطني في الجرح على المراتب التالية :

1 ــ	أشدها	من اتهمه بالوضع.
2 ــ	ثم	من قال فيه متروك.
3 ــ	ثم	من أكد ضعفه.
4 ــ	ثم	من استنكر حديثه.
5 ــ	ثم	من قال فيهم لا يحتج بهم.
6 ــ	ثم	من قال فيه ضعيف ويشمل المجاهيل.
7 ــ	ثم	من وصفه بالاضطراب.
8 ــ	ثم	من سلب منه القوة.

فأصحاب المراتب الثلاث الأولى متقاربون لا يحتج بحديثهم ولا يعتبر به وأخف منهم الأربعة الذين يلونهم، أما أهل المرتبة الأخيرة فمنهم من يعتبر به وينتفع بالمتابعة والشواهد.

رابعاً : دراسة نقدية لمنهج الدارقطني في الجرح :

في استعمال الدارقطني للفظة ضعيف في وصف بعض الرواة نجد أحيانا تفسيرا لمعنى الضعف عنده وذلك بجمع أقواله في الراوي الواحد.

فالضعف عنده قد يكون بسبب سوء الحفظ كما قال في ليث بن أبي سليم «ليس بحافظ»[86]، وقال «سيىء الحفظ»[87]، ثم عاد في موضع آخر فتخلص إلى

(85) **السنن**، ج 4، ص. 286.

(86) **السنن**، ج 1، ص. 67.

(87) **السنن**، ج 1، ص. 69.

القول أنه «ضعيف»[88].

وإذ قال في الرجل ضعيف فمعناه أنه لا يحتج به لذلك قد يجمع مع الوصف بالضعف بيان هذه الحقيقة.

كقوله في عبد الرحمن الأفريقي : «ضعيف لا يحتج به»[89]، وكذا في صالح بن موسى[90] ، ويزيد بن أبي زياد[91]، وعمر بن شبيب[92].

ومن لوازم الضعف عنده عدم القوة كما قال في شهر : «ليس بالقوي»[93]، وقال مرة : «ضعيف»[94].

وهذا يعني أن الضعيف سيىء الحال في الحديث وبذلك وصف الدارقطني سفيان بن محمد الفزاري[95].

وهو معنى قوله في عمر بن قيس الكلسي : «ضعيف ذاهب الحديث»[96].

وأحيانا يكون الراوي شديد الضعف فيجمع له وصفين فيقول : «ضعيف متروك» وقد قالها في جماعة في غاية الضعف مثل :

نوح بن أبي مريم[97].

أيوب بن خوط[98].

الحسن بن دينار[99].

---

(88) السنن، ج 1، ص. 331.

(89) السنن، ج 1، ص. 379.

(90) السنن، ج 4، ص. 208.

(91) السنن، ج 4، ص. 244.

(92) السنن، ج 4، ص. 380.

(93) السنن، ج 1، ص. 103.

(94) السنن، ج 1، ص. 104.

(95) السنن، ج 1، ص. 165.

(96) السنن، ج 1، ص. 164.

(97) السنن، ج 2، ص. 12.

(98) السنن، ج 1، ص. 163، 164.

(99) السنن، ج 1، ص. 162.

الحسن بن عمارة[100].

إبراهيم بن أبي يحيى[101].

إسحاق بن أبي يحيى[102].

أبو بكر الهذلي[103].

سليمان بن أرقم[104].

يزيد بن عياض[105].

وعليه، فيمكن أن نرتب الموصوفين بالضعف على درجتين :

أولاً : من أكد ضعفه بوصف أحد كقوله «ضعيف متروك»، «ضعيف ذاهب الحديث»، «ضعيف لا يحتج به»، «ضعيف جدا»، وقد لاحظنا أن الموصوفين بذلك أشد جرحا عند العلماء من أهل الدرجة الثانية وهي :

من اقتصر على وصفه بالضعف بكلمة ضعيف.

في وصفه كثير من الرواة بأنهم متروكون فإنها عبارة يقولها في شديدي الضعف بحيث يكون فيهم من اتهم، ولذلك قد يصرح أحيانا باتهامه :

كقوله في مبشر بن عبيد : «متروك الحديث يضع الحديث»[106].

وكذلك في عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، قال : «متروك يضع الحديث»[107].

ومثله في داود بن المحبر[108].

---

(100) السنن، ج 1، ص. 323، ج 2، ص 258.

(101) السنن، ج 1، ص. 62، ج 3، ص 135.

(102) السنن، ج 1، ص. 320، ج 4، 96.

(103) السنن، ج 1، ص. 47، ج 1، 48.

(104) السنن، ج 1، ص. 153، ج 1، 181.

(105) السنن، ج 3، ص. 90.

(106) السنن، ج 4، ص. 237.

(107) السنن، ج 1، ص. 163.

(108) السنن، ج 1، ص. 163.

فالكذابون متروكون عند الدارقطني ولذلك قال في أحمد بن الحسن المصري : «كذاب متروك»[109].

وهؤلاء المتروكون يستنكر الدارقطني حديثهم وقد يصرح بذلك في بعضهم كقوله في زكريا بن يحيى الوقار : «منكر الحديث متروك»[110].

أما الذين قال فيهم لا يحتج بهم، فالسبب هو ضعفهم وقد يصرح أحيانا بذلك.

كقوله في خلاس بن عمرو : «لا يحتج به لضعفه»[111].

أما الوصف بكثرة الخطإ، فهذا يعني الضعف عند الدارقطني. ولذلك ربما صرح بضعف كثير الخطإ.

كقوله في القاسم بن عبد الله العمري : «كان ضعيفا كثير الخطإ»[112].

وكقوله في عبد الله بن محمد بن يحيى : هو كثير الخطأ على هشام وهو «ضعيف»[113].

أما قوله «ليس بشيء»، فهي عبارة يطلقها على شديد الضعف، أي أن صاحبها لا يحتج به، بل ولا يعتبر به. فقد صرح بذلك لما سأله البرقاني عن راو فقال فيه : «ليس بشيء» قال : قلت يعتبر به، قال : «لا»[114].

أما من وصفهم بعدم القوة، فإنه يريد بذلك ضعفهم، لكنهم ليسوا شديدي الضعف وقد صرح بذلك في مواضع :

كقوله في إبراهيم بن إسماعيل بن أبي خيثمة «ليس بالقوي»[115]، مع قوله «ضعيف»[116].

---

(109) السنن، ج 1، ص. 57.
(110) السنن، ج 1، ص. 333.
(111) السنن، ج 3، ص. 200.
(112) السنن، ج 1، ص. 26.
(113) السنن، ج 3، ص. 202.
(114) الإمام الدارقطني وآثاره العلمية، ص 340.
(115) السنن، ج 1، ص. 62.
(116) السنن، ج 1، ص. 62.

وجمعهما في مكان واحد في محمد بن جابر وقال : «ليس بالقوي ضعيف»[117].

وعدم القوة يفيد عدم الحفظ والموصوفون بعدم القوة غالبا يكونون سيئي الحفظ، وقال مصعب بن شيبة : «ليس بالقوي ولا بالحافظ»[118].

وأما المجهولون الذين لا يعرفون فيشملون عند الدارقطني من تفرد عنهم راو واحد، ولذلك قال في زياد النخعي : «مجهول لم يرو عنه غير العباس من ذريح»[119]، وهؤلاء المجهولون لا يحتج بهم عند الدارقطني وحديثهم ضعيف.

ونراه أحيانا يجمع بين الوصفين في الراوي الواحد يقول : مجهول ضعيف» أي أن حاله مجهولة وحديثه ضعيف.

ونراه أحيانا يجمع بين الوصفين في الراوي الواحد يقول : «مجهول ضعيف» أي أن حاله مجهولة وحديثه ضعيف.

كقوله في عبد الملك بن نافع : «رجل مجهول ضعيف»[120].

وقد يصرح أحيانا أنهم لا يحتج بهم.

كقوله في زينب بنت محمد : «مجهولة ولا تقيم بها حجة»[121].

وقال في العالية بنت أنفع : «مجهولة لا يحتج بها»[122].

ومثله في أم محبة[123].

خامساً : من تكلم فيه بالانقطاع :

الدارقطني إمام مقدم في العلل انتهت إليه فيها الإمامة في عصره وقد تميز بمعرفة

---

(117) السنن، ج 2، ص. 163.
(118) السنن، ج 1، ص. 113.
(119) السنن، ج 1، ص. 251.
(120) السنن، ج 1، ص. 218، 262.
(121) السنن، ج 1، ص. 142.
(122) السنن، ج 3، ص. 52.
(123) السنن، ج 3، ص. 52.

العلل حفظا وفهما ويكفي للتدليل على ذلك كتابه «العلل» الذي يعد من أجود وأنفع كتب العلل والذي أملاه حفظه، وقد أثنى على كتابه ابن الصلاح[124]، والبلقيني[125]، وأبي عبد الله الحميدي الأندلسي[126]، وابن كثير، قال ابن كثير عن كتاب العلل : «وهو من أجل ما رأينا وضع في هذا الفن، لم يسبق إلى مثله، وقد عجز من يريد أن يأتي بعده، فرحمه الله، وأكرم مثواه»[127].

قال القاضي أبو الطيب عن الطبري : «سألت البرقاني : قلت له : كان أبو الحسن الدارقطني يملي عليك العلل من حفظه ؟ فقال : نعم»[128].

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» معلقا : «قلت : وهذا شيء مدهش، كونه يملي العلل من حفظه، فمن أراد أن يعرف قدر ذلك فليطالع كتاب «العلل» للدارقطني ليعرف كيف كان الحافظ»[129].

وقال الذهبي في : «إن كان كتاب العلل الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه.

كما دل عليه هذه الحكاية فهذا أمر عظيم يقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا، وإن كان أملى بعضه من حفظه فهذا ممكن»[130].

ومن خلال هذه النصوص ـــ المتقدمة القليلة ـــ عن الإمام الدارقطني في تعليل الأحاديث من حفظه، يظهر للناظر مدى تمكن هذا الإمام من معرفة العلل، وتبصره بالأحاديث، وأن الأئمة النقاد لم يبالغوا حين قال عنه :

1 ـــ قال الخطيب البغدادي : «انتهى الحفظ إلى أبي الحسن الدارقطني..»[131].

(124) علوم الحديث مع محاسن الاصطلاح، ص. 337.

(125) محاسن الاصطلاح، ص. 203.

(126) علوم الحديث، ص. 572.

(127) اختصار علوم الحديث، ص. 64، 65.

(128) تاريخ بغداد.

(129) سير أعلام النبلاء.

(130) تاريخ الإسلام.

(131) تاريخ دمشق.

2 ـــ وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء : «انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله..»[132].

3 ـــ وقال في «ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل» وحيد عصره، وبه خُتم معرفة العلل..»[133].

ومن أنواع العلل عدم سماع الرواة بعضهم من بعض وقد نفى الدارقطني سماع بعض الرواة من بعض شيوخهم وهؤلاء الذين في سننه هم :

الـــراوي	الشـيــخ	قــول الدارقـطـنــي
أبو مالك	عـمـــار	(183/1) في **سماعه** من عمار نظر
نفيع أبو رافع	ابن مسعود	(77/1) لم يثبت **سماعه** من ابن مسعود
نافع والد عبد الله	أم سلمة	(38/2) لا يصح لنافع **سماع** من أم سلمة
مكحول الشامي	أبو هريرة	(57/2) لم **يسمع** من أبي هريرة
مقاتل بن حيان	عـــروة	(348/1) لا يصح مقاتل عن عروة
المسور بن إبراهيم	عبد الرحمن بن عوف	(183/3) لم يدرك عبد الرحمن بن عوف
قتادة بن دعامة	سليمان بن يسار	(212/2) لم **يسمع** من سليمان بن يسار
قبيصة بن ذؤيب	عـمـــرو	(309/3) لم **يسمع** من عمرو
عمر بن عبد العزيز	تميم الداري	(157/1) لم **يسمع** من تميم ولا رآه
علي بن أبي طلحة	كـعــــب	(148/3) لم يدرك كعباً
علي بن رباح	ابن مسعود	(56/1) علي لا يثبت **سماعه** من ابن مسعود ولا يصح
عبد الله بن بريدة	عائشـــة	(233/3) لم **يسمع** من عائشة شيئاً
الأوزاعي	محمد بن سيرين	(64/1) دخل على ابن سيرين في مرضه ولم **يسمع** منه
عبادة بن نسي	مـعــــاذ	(94/2) لم **يسمع** من عاذ

(132) سير أعلام النبلاء.

(133) ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل.

الــراوي	الشيـــخ	قــول الدارقـطـنـــي
طاوس	معـــاذ	(100/2) طاوس لم يدرك معاذاً
إبراهيم التيمي	عائشة وحفصة	(141/1) لم **يسمع** من عائشة ولا حفصة ولا أدرك زمانهما
الحسن البصري	أبو موسى	(102/1) لم **يسمع** من أبي موسى
الحسن البصري	سـمـرة	(336/1) مختلف في **سماعه** عن سمرة، وقد سمع منه حديثاً واحداً وهو حديث العقيقة فيما زعم قريش ابن أنس عن حبيب بن الشهيد
حبيب بن أبي ثابت	عـــروة	(139/1) لم **يسمع** من عروة شيئاً
بشير بن محمد	عبد الله بن زيد	(200/4) لم يدرك جده عبد الله بن زيد
إسحاق بن أبي يحيى	عبادة بن الصامت	(176/3) لم **يسمع** من عبادة بن الصامت

سادساً : مصادر الدارقطني في الجرح والتعديل :

بإمكاننا أن نصف النقاد إلى طبقتين :

ـــ من يبادر بالجرح والتعديل من تلقاء نفسه.

ـــ ومن ينقل الجرح والتعديل ويهذب الأقوال.

والطبقة الأولى هم المتقدمون من النقاد مثل شعبة والقطان ونحوهم، والثانية هم المتأخرون الجامعون لشتات من سبقهم مثل المزي والذهبي وابن حجر.

والإمام الدارقطني يعتبر من أهل الطبقة الأولى من الذين اتصفوا بالاستقلال في الجرح والتعديل، فإن أكثر الجرح والتعديل الذي يُروى عنه بقوله باجتهاده ويعتمد فيه على ما ظهر له في الرواة.

وفي أحيان قليلة قد يذكر في الراوي قول من تقدمه من النقاد ثم يقره.

مثال ذلك : قوله في صالح بن يحيى بن المقدام : «قال موسى بن هارون : لا يعرف صالح بن يحيى ولا أبوه إلا بجده»[134].

(134) السنن، ج 4، ص. 286.

سابعاً : أثره فيمن جاء بعده :

اعتمد أئمة النقد حكم الدارقطني في الرواة من لدن عصره إلى يومنا هذا وعولوا على أقواله في الجرح والتعديل ولم يستنكروا عليه بإنكار شديد أو تعقب أو نحو ذلك، ولا يكاد يخلو مصنّف في الجرح والتعديل من نقولات عن الإمام الدارقطني لاسيما في أهل زمانه، يقول الدكتور الرحيلي : «وأن المتأمل في الأقوال المنقولة في الرواة المعاصرين للدارقطني يجد العلماء أكثر ما ينقلون من الأقوال لهم جرحاً وتعديلاً قول الدارقطني.

«وقد تأملت كتاب العبر للحافظ الذهبي فوجدته لا ينقل الجرح والتعديل غالباً في الرواة المعاصرين للدارقطني إلا عنه أو عن الحاكم أو عن البرقاني (وهما من تلاميذه) ومثله الخطيب في تاريخ بغداد[135].

وأما المصنفات المتأخرة الجامعة لأقوال النقاد فإن الأمر فيها أشهر من أن يذكر فلا يكاد يخلو مصنّف منها من استيعاب أقوال الإمام الدارقطني في الرواة[136].

النتائج :

1 ــ الإمام الدارقطني إمام في الجرح والتعديل ومعرفة العلل، وهو رائد في هذا المجال وله منهج متين في تحقيق هذه المعرفة.

2 ــ تمتع الدارقطني بذاكرة عجيبة ساعدته في تحقيق هذا المنهج.

3 ــ يعتبر الدارقطني من الطبقة الأولى الذين تكلموا في عامة الرواة.

4 ــ الدارقطني من الأئمة المعتدلين الذين يقبل جرحهم وتعديلهم فهو منصف في الكلام على الرواة.

5 ــ للدارقطني استقلاليته في الكلام على الرواة وله مصطلحات خاصة يسيرة.

6 ــ الغالب في عباراته في الجرح والتعديل الاقتصار على ما يفهم السامع ويبلغ الحاجة ويحقق المراد.

7 ــ كل من جاء بعد الدارقطني فإنه استفاد منه ونقل من أقواله وعلله.

8 ــ الدارقطني من الذين شهروا اسم الحسن وعالجه في سننه.

(135) **الإمام الدارقطني**، ص. 137.

(136) ولك أن تطالع **ميزان الاعتدال**، أو **تهذيب الكمال** كشاهد على ما نقول.

التنظيم الإداري والعسكري لإفريقيا الشمالية خلال الفترة الرومانية المتأخرة 284-429م

محمد اللبـار
كلية الآداب فاس / سايس

أولا : التنظيم الإداري :

أ ـ مفهوم إفريقيا الشمالية :

إن طبيعة الموضوع الذي نحن بصدد دراسته تقتضي أن نبادر إلى التعريف بعبارة «إفريقيا الشمالية»، لأن تحديد مفهومها في حد ذاته سيساعد ولاريب على فهم الكثير من الأحداث والوقائع من جهة، وعلى التعرف على مسرح هذه الأحداث والوقائع من جهة ثانية، خاصة وأن عبارة «إفريقيا الشمالية» مصطلح جغرافي يشمل كل البلاد الواقعة غرب مصر، والتي أطلق عليها العرب «جزيرة المغرب»، والتي تكون وحدة جغرافية متمحورة حول مجموعة جبال الأطلس، ومحصورة بين البحر المتوسط شمالا ورمال الصحراء جنوبا. علما أن عبارة «إفريقيا الشمالية» لم تستعمل إلا منذ القرن التاسع عشر، وأن مرادفها التاريخي هو بلاد المغرب.

وإذا كان البعض يخلط بين المصطلحات الجغرافية ومثيلاتها التاريخية فيرى أن «إفريقيا الشمالية» هي «إفريقيا الرومانية»[1]، فإن العديد من المؤرخين المحدثين تنبهوا إلى تباين مفهومي العبارتين، وإلى ضرورة التمييز بينهما، على أساس أن العبارة الأولى «إفريقيا الشمالية» مصطلح جغرافي ثابت في حدوده ومعناه، وأن العبارة الثانية «إفريقيا الرومانية» مصطلح تاريخي ذو أساس إداري وسياسي، اختلفت

(1) Albertini, L'Afrique Romaine, Alger, 1937, p. 8

حدوده ــ وبالتالي معناه ومفهومه ــ من حقبة رومانية إلى أخرى حسب ما كان منه بيد الدولة الرومانية تبعا لقوتها أو ضعفها على الأقل[2]. ويأخذ هؤلاء المؤرخون المحدثون بعين الاعتبار أن مساحة افريقيا الرومانية ــ ولو في أقصى مراحل اتساعها على عهد الأسرة السيفيرية ــ لم تغط إلا جزءا من إفريقيا الشمالية، وهو الجزء الذي كان يحده الليمس الروماني هناك[3].

وبناء على ذلك لم يجد بعض هؤلاء المؤرخين المحدثين أي حرج في تقسيم إفريقيا الشمالية على عهد السيفيريين إلى إقليمين سياسيين حضاريين. أولهما إفريقيا الرومانية، وثانيهما الإقليم الخارج عن طاعة الرومان وحضارتهم، والذي سماه البعض منهم بـ«افريقيا المجهولة»[4]، بينما اختار له البعض عبارة «إفريقيا الأهلية»[5]، وهو الذي نصطلح على تسميته في صفحات هذا البحث بعبارة «إفريقيا الحرة». وقد رأى البعض فيها عالما فوضويا قاسيا لم يخضع أبدا لسلطات روما[6].

ويظهر جليا أن تحديد «إفريقيا الحرة» لا يمكن بتاتا إلا بعد ضبط حدود «إفريقيا الرومانية»، التي كانت تضم على عهد الأسرة السيفيرية أربع ولايات هي : إفريقيا البروقنصلية، ونوميديا، وموريطانيا القيصرية، وموريطانيا الطنجية[7]. (انظر الخريطة رقم 1). علما أن «إفريقيا الحرة» هذه كانت تضم في مفهومها زيادة عن ما وراء الليمس الروماني في إفريقيا الشمالية، بعض المناطق التي تصنف مبدئيا بحكم موقعها الجغرافي ضمن إفريقيا الرومانية نفسها، وهي الجبال المرتفعة : جبال الونشريس وجبال الأوراس في الجزائر، وجبال الريف في المغرب[8]. ذلك أن جبال الونشريس في موريطانيا القيصرية ظلت دائما خارج نفوذ روما، كما تميزت

---

(2) J.P. Brisson, **Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévére à l'invasion vandale**, Paris, 1958.

(3) Ch. Courtois, **Les Vandales et l'Afrique**, Paris, 1955, pp. 65-68

(4) **Ibid**, p. 67

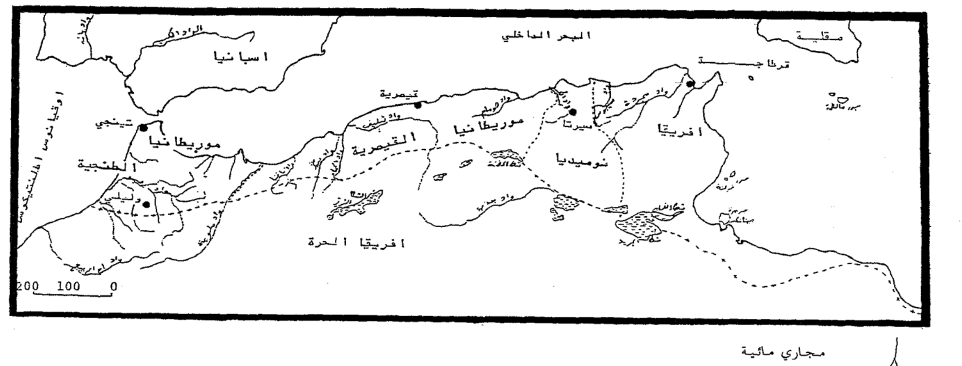
(5) Jean Maurice, «Etude sur l'organisation de l'Afrique indigène sous la domination romaine», in **M.S.N.A.F.**, 6ème série, T.V, 1895, pp. 1-54.

(6) V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 91

(7) J. Carcopino, **Le Maroc Antique**, Gallimard, 10ème éd, 1948, p. 235
V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 66.

(8) Victor Chapot, **Le Monde Romain**, Paris, 1951, p. 442 et pp. 450-451

الخريطة رقم 1 : إفريقيا الشمالية في عهد الأسرة السيفيرية



جبال الأوراس في نوميديا على طول امتداد العهد الروماني باستمرارية اشتعال نار الثورة ضد السلطة الرومانية. أما جبال الريف بموريطانيا الطنجية فزيادة عن كونها ظلت دوما مستقلة عن الحكم الروماني، فإنها كانت منطلقا لعمليات قرصنة هددت سلامة المساحلة وأمنها في المنطقة[9].

إلا أن ما تجب ملاحظته في هذا الصدد، هو أن الإصلاحات التنظيمية التي أحدثها الامبراطور دقليانوس (284-305م)، فيما بعد حوالي سنة 296م، جعلت العديد من هؤلاء الباحثين يعتقدون أن مساحة إفريقيا الرومانية كما حددت في العهد السيفيري قد تقلصت بفعل هذه الإصلاحات[10]، فاسحة المجال لظهور إقليم ثالث اصطلح كورتوا على تسميته بـ«إفريقيا المهجورة»، والتي تميزت في نظره باستمرارية تبعيتها الحضارية للرومان وباستقلاليتها السياسية عنهم[11]، على الرغم من أن زعماء القبائل هناك كانوا يقبلون في حاشيتهم ممثلا عن روما يعرف باسم Praefectus gentis أو Procurator Augusti ad curam gentium[12]، من مهامه — التي كلفته بها روما — ملازمة الزعيم والمراقبة العامة والعمل على تجنيد بعض الفرق المساعدة كلما دعت الضرورة إلى ذلك[13].

أما الجوهر الإداري للإصلاحات الدقليانوسية حسب هؤلاء الباحثين فأساسه الزيادة في عدد الولايات، إذ أصبح عدد ولايات إفريقيا الرومانية على عهد هذا الامبراطور ثمانية طبقا لأوامره التي قضت حسب ما ورد في الفهرس الفيروني[14] Laterculus veronensis بما يلي، أن :

(9) Albertini, et Autres, **L'Afrique du Nord française dans l'Histoire**, Lyon, Paris, (1937), p. 107
M.A. Chapot, **op. cit.**, p. 457.

(10) Albertini, «La route frontière de la Mauritanie Césarienne entre Boghar et lala Maghnia», in **B.S.G.O**, 1928, p. 48.
M.A, **op. cit.**, p. 233.
V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 79-92.

(11) **Ibid**, p. 91 et p. 95

(12) Boissier, **L'Afrique Romaine**, Paris, 5ème éd., 1912, p. 351

(13) M.R. Chapot, **op. cit.**, p. 451

(14) René Cagnat, «La réorganisation de l'Afrique sous Dioclétien», **Mélanges Louis Havet**, Paris, 1909, pp. 65-75.

* تقسم ولاية افريقيا البروقنصلية إلى ثلاث ولايات وهي افريقيا البروقنصلية أو زوجيطانا Proconsularis Zeugitana، وبيزاكينا Bizacina، والطرابلسية Tripolitana. وذلك على أساس أن تقلص مساحة الولاية الطربلسية لتشمل فقط المدن الساحلية التي لم تعد تتصل فيما بينها سوى عبر البحر، زيادة على شريط ساحلي طوله حوالي 150 كيلومتر وعرضه 80، يمتد غرب صبراتة[15].

* تقسم نوميديا سابقا إلى ولايتين، هما : نوميديا السرتية في الشمال Numidia Cirtensis ونوميديا العسكرية في الجنوب Numidia Militiana.

* تقلص مساحة موريطانيا القيصرية سابقا لتقف حدودها الغربية عند مصب نهر الشليف وتقسم إلى ولايتين : موريطانيا الصطيفية شرقا Mauretania Sitifensis وموريطانيا القيصرية غربا Mauretania Caesariensis. أما بقية الولاية، وهو ما سيعرف، عند هؤلاء الباحثين أصحاب نظرية تراجع الليمس في إفريقيا الشمالية، بالإقليم الوهراني الممتد ما بين مصب نهر الشليف شرقا ونهر ملوية غربا[16]، فقد أصبح يشكل النواة الأولى لإفريقيا المهجورة المشار إليها من قبل.

* تقلص مساحة موريطانيا الطنجية السيفيرية لتقف حدودها الجنوبية مبدئيا عند وادي نهر اللوكوس[17] ، وتربط إداريا وعسكريا بدوقية إسبانيا Dioecesis Hispaniarum، التي كانت تشمل آنذاك بقية الولايات الإيبيرية كما ذكرها الفهرس الفيروني سنة 297[18].

وجمع دقليانوس الولايات السبع ــ واستثنى موريطانيا الطنجية Mauritania Tingitania ــ في دوقية واحدة ــ ضمن الثلاثة عشر دوقية التي أحدثها ــ وهي دوقية إفريقيا Dioecesis Africae[19].

---

(15) V.A. Courtois, **op. cit**, p. 76 et p. 78

(16) M.A. Chapot, **op. cit.**, p. 461
M.A. Carcopino, **op. cit.,**, pp. 233-234.

(17) **Ibid**, p. 244

(18) André Le Cocq, «La Mauritanie Tingitane et le partage de l'empire romain en 293», in **B.S.G.O.**, 1909, 3ème trim., p. 483

(19) Albertini, **L'empire Romain**, Coll. Peuples et Civilisations, T. IV, Paris, P.U.F., 4ème éd., 1970, p. 330.

إلا أن الإمبراطور قسطنطين الأكبر (305-337م) أدخل بعض التعديلات سنة 314م على هذه التقسيمات الإدارية. فأمر بجمع ولايتي نوميديا السرتية والعسكرية من جديد في ولاية واحدة، حسب ما ورد في سجل روفيموس فستوس سنة 372م Le Breviarium de Rufius Festus[20]، (انظر الخريطة رقم 2).

هذا وإذا تساءلنا عن أسباب ومرامي إصلاحات دقليانوس (284-305م) وقسطنطين الأكبر (305-337م) بصفة عامة، خاصة وأنها كانت شاملة وتنظر في سلطة الامبراطور وتنظيم الجيش والإدارة وجباية الضرائب، وسار على نهجها الأباطرة اللاحقون، فإن الهدف من هذه الإصلاحات كان هو محاولة تمتين السلطة المركزية في الأقاليم، والزيادة في موارد الدولة عن طريق جباية الضرائب، والقضاء على الفوضى الناتجة عن الثورات واغتصابات الحكم والأخطار الخارجية[21].

ويعتقد كثير من الباحثين أن الأوضاع الإدارية في إفريقيا الرومانية ظلت على نفس الحالة التي ترتبت عن إصلاحات دقليانوس وقسطنطين حتى مطلع القرن الخامس للميلاد، دون أن يطرأ عليها أي تغيير[22]، وحجتهم على ذلك ما ورد في لائحة الولايات التي نقلها بوليميوس سلفيوس في نهاية ق. 4م، والتي جاء فيها أن الولايات الإفريقية آنذاك هي : البروقنصلية ونوميديا وبيزاكينا والطرابلسية وموريطانيا الصطيفية وموريطانيا القيصرية، في حين ذكر نفس المؤرخ موريطانيا الطنجية ضمن لائحة الولايات الإسبانية Polemius Silvius : **In Africa VI (provinciae)** : Proconsularis, in qua est Carthago, Numidia, Bizacium, Tripolis, Mauretania Sitifensis; Mauretania Caesariensis.
In Hispania VII (provinciae) : Tarraconensis, Carthaginensis, Baetica, Lusitania, in qua est Emerita, Gallaecia, Insulae Baleares, Tingitana,...[23].

---

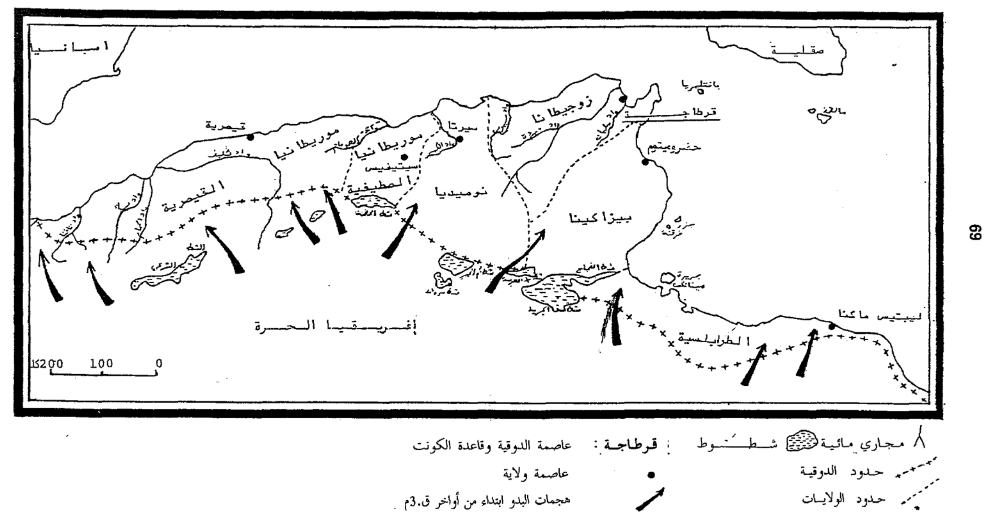
(20) Le Breviarium de Rufius Festus, éd. W. Foerster, Vienne, 1873, p. 7, cap. IV : Per omnem Africam sex provinciae factae sunt : ipsa ubi Carthago estproconsularis, Numidia consularis, Byzacium consularis, Tripolis et duae Mauritanize : hoc est Sitifensis et Caesariensis, sunt praesidales.

(21) محمد المبكر، **الدوارون في شمال إفريقيا في القرنين الرابع والخامس**، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1981، ص 46.

(22) V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 68, n° 1

(23) Polemius Silvius, Laterculus, 3 et 4, in M.G.H.A.A., T. IX, p. 538

الخريطة رقم 2 : دوقية إفريقيا خلال القرن الرابع الميلادي



قرطاجة : عاصمة الدوقية وقاعدة الكونت

عاصمة ولاية

هجمات البدو ابتداء من أواخر ق.3م

مجاري مائية

شطوط

حدود الدوقية

حدود الولايات

وقبل التطرق إلى الأوضاع الإدارية لإفريقيا الرومانية في بداية القرن الخامس للميلاد تجدر الإشارة إلى بعض التحفظات والانتقادات التي سجلت إزاء نظرية إفريقيا المهجورة في السنين الأخيرة. تلك الانتقادات والتحفظات التي وإن لم تهدم جذريا فكرة إفريقيا المهجورة، فإنها على الأقل اختزلت مساحتها طيلة القرن الرابع للميلاد لتشمل فقط ما وراء اللكوس في موريطانيا الطنجية[24]، كما بينت أن الانسحاب الروماني من غرب موريطانيا القيصرية — إن تم — لم يكن بسرعة، وبمجرد اتخاذ قرار التراجع ضمن إصلاحات دقليانوس، بل تم الانسحاب تدريجيا على غرار ما حدث في موريطانيا الطنجية[25].

أما بخصوص فرضية كورتوا (Courtois) حول تقلص مساحة الولاية الطرابلسية، فقد انتقدها بشدة كلود لوبيلي Claude lepelley موضحا أن الأبحاث الاركيولوجية القديمة والحديثة، أثبتت أن الحدود الصحراوية لإفريقيا الرومانية — ما بين عهد دقليانوس ومجيء الوندال — لم تكن تختلف عن الحدود التي رسمها الأباطرة انطونيون والسيفيريون في جنوب الولايات الطرابلسية وبيزاكينا ونوميديا؛ مشيرا إلى ثبوت الانسحاب الروماني من بعض المراكز الصحراوية المتقدمة فقط مثل كاستيلوم ديميدي Castellum Dimmidi (اليوم : مسعاد Messaad)[26]. فجاء رأيه هذا مساندا لما ذهب إليه كانيا (Cagnat) حول الليمس السيفيري الذي ظل في نظره طيلة القرن الرابع للميلاد هو الحد الجنوبي للولاية الطرابلسية[27]. كما أيد وجهة نظر جوليان (Ch. A. Julien) التي توضح أن الحدود الصحراوية في إفريقيا الرومانية لم يطرأ عليها أي تغيير يستحق الذكر خلال ق. 4م بل وإلى حدود سنتي 430م—440م، أي بداية العهد الوندالي في إفريقيا الشمالية[28].

---

(24) Marcel Ben Abou, **La résistance africaine à la romanisation**, Paris, 1976, p. 239

(25) Marguerite Rachet, **Rome et les bérbères, un problème militaire d'Auguste à Diocletien,** Latomus V. 110, Bruxelles, 1970, p. 257, n° 5.

(26) Claude Lepelley, **Les Cités de l'Afrique Romaine au Bas-Empire,** T. I, Paris, 1979, p. 37, n° 31.

(27) René Cagnat, **L'Armée Romaine de l'Afrique et l'occupation militaire sous les empereurs,** Paris, 2ème éd., 1912, pp. 747-748.

(28) Julien Guey, «Note sur le limes romain de Numidie et le Sahara au IVe siécle», in **M.E.F.R.,** Fasc. I à IV, 1939, p. 209.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن إصلاحات دقليانوس، وعلى الرغم من أنها كانت تهم كل الامبراطورية الرومانية، فإن لها بالنسبة لإفريقيا الشمالية مبررات خاصة، يمكن إجمالها في صعوبة الموالات بين الموريطانيتين الطنجية والقيصرية، وفي فشل الامبراطورية طيلة ثلاثة قرون في تهدئة القبائل المورية المقيمة ما بين المحيط الأطلسي غربا ونهر شليف شرقا، زيادة عن فشل الرومان في مواجهة تسرب القبائل الرحل الصحراويين نحو الشمال، عبر وادي ملوية في الغرب، ولمهاجمة مرافىء خليجي سرت في الشرق. ذلك الفشل الذي استوجب تدخل الامبراطور مكسيميانوس Maximianus نفسه ما بين سنتي 294–298م مباشرة في افريقيا، حيث حقق عدة انتصارات قبل دخوله قرطاجة يوم 10 مارس 298م محتفلا بانتصاراته[29].

هذا وإذا كانت الأوضاع السياسية في مطلع القرن الخامس للميلاد في إفريقيا الحرة تقوم على تنظيم إداري أساسه الأعراف المحلية، ولا نكاد نعرف عنه شيئا يستحق الذكر،[30] بسبب إهمال الأهالي هناك تدوين أخبارهم وعدم انتباههم لضرورة تسجيل تاريخهم بأنفسهم. وإذا تميزت إفريقيا المهجورة باستقلالية مراكزها الحضارية التي احتفظت ببعض التنظيمات الرومانية وكيفتها مع ظروفها كما لوحظ ذلك في وليلي[31]، بقي أن نحدد أوضاع إفريقيا الرومانية إداريا.

ب ــ دوقية إفريقيا : (انظر الخريطة رقم 2).

كانت دوقية افريقيا في سنة 396م، بعد اقتسام الامبراطورية الرومانية بين أركاديوس وهونوريوس ابني الإمبراطور ثيودسيوس الأول (379–395م)، واحدة من ضمن الخمسة عشر دوقية التي كانت تشكل مجموع تراب الامبراطورية الرومانية آنذاك. علما أن هذه الدوقيات كانت منتظمة في أربع مقاطعات كبرى لا نرى مانعا من ذكرها في هذا المقام آملين أن يساعدنا استيعاب حالتها على فهم الوضعية الإدارية لدوقية إفريقيا ومختلف ولاياتها داخل هذه

(29) Marguerite Rachet, **Rome et les berbères**, **op. cit.**, pp. 258-264

(30) M.R. Chapot, **op. cit.**, p. 67

(31) **Ibid**, pp. 91-92

الإمبراطورية الرومانية المنقسمة(32) :

* مقاطعة ايطاليا Praefectura Praetorio Italiae وتضم أربع دوقيات وهي : إفريقيا وإيطاليا الجنوبية وإيطاليا الشمالية وبانونيا.
* مقاطعة غاليا Praefectura Praetorio Galliae : وتضم أربع دوقيات وهي : اسبانيا والولايات السبع (فيينواز Viennoise) وغاليا وبريطانيا.
* مقاطعة الشرق Praefectura Praetorio Urientis : وتضم خمس دوقيات وهي : تراقيا وآسيا والبونت والشرق ومصر.
* مقاطعة ايليريا Praefectura Praetorio Illyriae : وتضم دوقيتين : دافيا ومقدونيا. (انظر الخريطة رقم 3).

هذا وكان على رأس كل مقاطعة من هذه المقاطعات موظف سامي إداري يعينه الإمبراطور وهو مسؤول أمامه يدعى : عمدة المقاطعة Praefectus Praetorio، وينوب عن العمدة في كل دوقية مبدئيا وكيل عنه يدعى وكيل عمدة المقاطعة Vicarius praefecti praetorio وهو مسؤول مباشرة أمام عمدة مقاطعته، وإن كان الإمبراطور نفسه هو الذي يتولى تعيينه(33). ونصطلح على تسميته في هذا البحث باسم : الدوق.

كانت المقاطعتان الإيطالية والغالية تشكل رسميا الإمبراطورية الرومانية الغربية التي كانت من نصيب هونريوس. كما كانت المقاطعتان الشرقية والإيليرية تشكل رسميا الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت من نصيب أركاديوس.

ومما سبق يتضح جليا أن دوقية إفريقيا كانت ومنذ نهاية ق. 4م ضمن نفوذ الإمبراطورية الغربية الرومانية، تتبع إداريا مقاطعة إيطاليا ويدير شؤونها دوق كان يقيم في مدينة قرطاجة بصفتها عاصمة الدوقية(34).

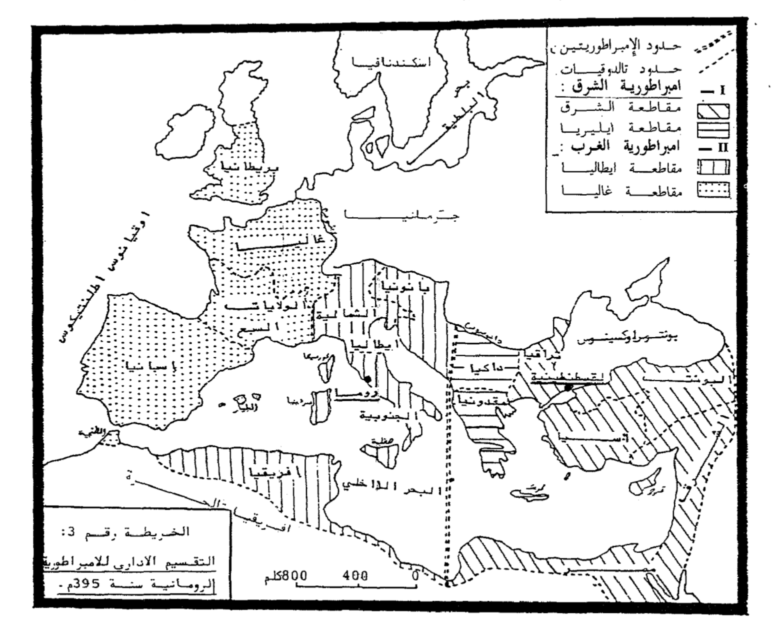
---

(32) Remondon, **La crise de l'empire Romain**, Paris, P.U.F., 1980, pp. 124-125 et la carte n° 4
Robert Folz et Autres, **De l'Antiquité au monde médiéval**, Coll. Peuples et Civilisations, T.V, Paris, P.U.F., 1972, p. 23 et la carte pp. 44-45.

(33) E.R. Albertini, **op. cit.**, p. 330
Ludwig Schmidt, **Histoire des Vandales**, Tr. fr., Paris, Payot, 1953, p. 55.

(34) Pallu de Lessert, **Vicaires et Comtes d'Afrique**, R.S.A.D., T. XXVI, 1891, pp. 3-6

الخريطة رقم 3 : التقسيم الإداري للإمبراطورية الرومانية سنة 395م



ويكفي لكي نعرف مكانة دوقية إفريقيا عند الرومان أن نعلم أن أول دوق روماني مذكور في مدونة ثيودوسيوس هو دوميتيوس كلسوس Domitius Celsus دوق إفريقيا (315-316م)[35]. في حين يرجح أن أول من شغل فعلا هذا المنصب في دوقية افريقيا هو لوكيوس دوميتيوس اسكندر (304-311م) Lucius Domitius Alexander[36].

أما عن آخر دوق معروف تاريخيا لدوقية إفريقيا فهو الدوق مقدونيوس (414-415م) Macedonius. وهذا بطبيعة الحال لا يعني أننا نعتقد أنه آخر دوق لإفريقيا، وأن هذا المنصب الإداري ظل شاغرا ما بين سنتي 415 و429م تاريخ عبور الوندال إلى افريقيا الشمالية، كما ظن البعض ذلك[37]. خاصة وأننا نعلم ـ كما سنبين ذلك بعد قليل ـ أن صاحب هذا المنصب في إفريقيا كان قد دخل في الظل منذ نهاية ق. 4م، ليفسح المجال لظهور شخصية كونت افريقيا Comes Africae صاحب القيادة العسكرية في الدوقية.

كانت مهام الدوق أول الأمر وعلى عهد دقليانوس تشمل الشؤون الإدارية والعسكرية على حد سواء، حتى إذا كان عهد الإمبراطور قسطنطين وبالضبط حوالي سنة 320م، وزيادة في الحيطة والحذر عمد هذا الإمبراطور إلى تجريد الدوقات قاطبة من مهماتهم العسكرية[38]، باستثناء كونت دوقية الشرق الذي كان ينظر في شؤون دوقيته الإدارية والعسكرية، وباستثناء عمدة مصر الامبراطوري انطلاقا من سنة 381م الذي سيكلف بالسهر على شؤون دوقيته إداريا وعسكريا وماليا، بصفتها من أملاك الإمبراطور الخاصة منذ عهد أغسطس (27ق.م- 14م) تقديرا لدور مصر في تزويد روما بالقمح[39]. علما أن إعفاء الدوقات من مهامهم العسكرية ـ باستثناء صاحبي الشرق ومصر ـ كان بهدف إفساح مجال أوسع لهؤلاء الدوقات للانكباب على الشؤون الإدارية الصرفة

(35) Ibid., p. 3 et p. 50

(36) Ibid., p. 36

(37) Ibid., p. 19 et p. 142-143

(38) Ibid., p. 7

(39) E.R. Albertini, op. cit., p. 30 et p. 389

لدوقياتهم، بصفة إدارة الدوقيات في حد ذاتها هي صلة الوصل الرسمية بين الإدارة المركزية وبين الإدارات المحلية للولايات التابعة لهذه الدوقيات[40]، وذلك زيادة عن الهدف الذي رسمه كل من دقليانوس وقسطنطين من وراء ذلك والمتمثل في خلق إدارة قادرة على التغلغل في كافة الأنحاء، حيث يمكنها مراقبة كل شيء واحتواء كافة الأنشطة[41].

وهكذا كان دوق إفريقيا ينوب عن عمدة مقاطعة إيطاليا في قرطاجة بصفتها عاصمة الدوقية[42]، ويخضع له ولاة ولايات دوقيته وهم:

* من رتبة محافظ Praeses في ولايات الطرابلسية وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الصطيفية.

* ومن رتبة قنصل Consularis في ولايتي بيزاكينا ونوميديا[43].

* أما والي زوجيتانا فقد كان من رتبة بروقنصل Proconsularis منذ عهد الإمبراطور أغسطس بصفة إفريقيا البروقنصلية ولاية سيناتورية[44]، وكان يخضع مباشرة لعمدة مقاطعة إيطاليا منذ عهد الإصلاحات الإدارية القسطنطينية[45] بعد ما كان من قبل تحت نظر الإمبراطور نفسه[46].

وإذا ما أخضعنا مراتب هؤلاء الولاة للمقارنة يتبين أن أعلاها درجة هي رتبة البروقنصل تليها رتبة القنصل فرتبة المحافظ[47]، على أن البروقناصلة والقناصل يختارون من الفئة السيناتورية ويختار المحافظون من فئة الفرسان.

أما الدوق حسب شهادة لائحة المناصب العليا فقد كان من فئة الأشراف

---

(40) **Ibid.**, p. 330

(41) Victor Duruy, **Histoire des romains, T. VII, Nouvelle édition, Paris, 1855, p. 538**

(42) **H.V. Schmidt, op. cit.**, p. 55

(43) Rufius Festus, Sextus, Breviarium..., **op. cit.**, p. 7, Cap. IV
La Notitia Dignitatum, occidentalis, éd. Seeck, Berlin, 1876, pp. 165-166.

(44) E.R. Albertini, **op. cit.**, p. 29

(45) Mercier, **H.A.S.**, T. I, **op. cit.**, p. 128

(46) Pallu De Lessert, **V.C.A., op. cit.**, p. 2 et p. 8
Remondon, **La crise de l'empire romain, op. cit.**, p. 125.

(47) E.R. Albertini, **op. cit.**, p. 329-330

.[48]Vir Spectabilis Vicarius Africae

وإذا ما حاولنا إجمال السلط التي خولها الأباطرة الرومان لدوقات إفريقيا بالخصوص، كما جاء ذلك بالتفصيل في مختلف فصول مدونة ثيودوسيوس، وجدنا أن الدوق يعتبر هو الجابي للضرائب، والمسؤول عن ديوان البريد، والمكلف بتبليغ أوامر الحكومة المركزية إلى ولاة دوقيته والتنسيق بين هؤلاء[49]، وذلك زيادة عن مراقبة جهاز الشؤون المالية هناك[50].

هذا وكان الدوق يجلس للقضاء، والنظر في القضايا التي يطالب أحد أطرافها بحق الاستئناف[51]، كما ينظر أحيانا في بعض الحالات القضائية الابتدائية، مع ملاحظة أن أحكام الدوق غير قابلة للطعن، إلا أمام الامبراطور نفسه الذي كانت له وحده صلاحية مراجعتها لاقرارها أو لإعادة صياغتها أو لتغييرها دون وساطة عمدة المقاطعة[52].

وسعيا وراء نشر العدل والأمن والطمأنينة وحفاظا على هيبة الإمبراطورية وعظمتها كان الأباطرة الرومان يذكرون الدوقات بالسهر على إنصاف الرعية من ظلم الولاة والعمل على مطاردة المتمردين وعدم التهاون في حراسة القصور الامبراطورية وحسن العناية بصيانة الطرق[53].

أما الولاة على اختلاف رتبهم في دوقية إفريقيا ــ بروقناصلة وقناصلة ومحافظون ــ فقد كانوا يكلفون بالسهر على الأمن، وجباية الضرائب، والقضاء بين الناس في الدعاوي المدنية والجنائية، ولذلك كان الوالي يعرف كذلك بلقب القاضي العادي[54] Ordinarius Judex. وما كان تكليف هؤلاء الولاة بمهام عسكرية أحيانا إلا من باب الاستثناء الذي تقتضيه الظروف الأمنية لبعض

(48) **La Notitia Dignitatum**, occidentalis, éd. Seeck, p. 165

(49) Pallu De Lessert, **V.C.A., op. cit.**, p. 8-9

(50) Paul Petit, **Precis d'Histoire Ancienne**, Paris, P.U.F., 5ème éd., 1978, p. 329

(51) E.R. Albertini, **op. cit.**, p. 330

(52) Pallu De Lessert, **V.C.A., op. cit.**, p. 9-11

(53) **Ibid**

(54) André Chastagnol, Les gouverneurs de Byzacène et de Tripolitaine, **Ant. Afr., T. I**, 1967, p. 133..

الولايات[55]. ومعلوم أن دوق افريقيا، بصفته صلة الوصل الرسمية بين أجهزة الحكومة المركزية وإدارات الولايات، كان يعمل على تبليغ كل الأوامر والقوانين التنظيمية الصادرة إليه بسرعة إلى هؤلاء الولاة، بهدف تنفيذها باعتبار أنهم الممثلون الحقيقيون للسلطة المركزية في ولاياتهم[56].

ج ـ ولاية موريطانيا الطنجية :

لسنا في حاجة إلى التذكير مرة أخرى أن ولاية موريطانيا الطنجية لم تكن تدخل ضمن نطاق النفوذ الإداري لدوق افريقيا باعتبار تبعيتها الإدارية لدوقية إسبانيا منذ الإصلاحات الدقليانوسية.

والراجح أنها استمرت في وضعيتها الجديدة هذه حتى مطلع القرن الخامس للميلاد، والأدلة على ذلك قائمة. ذكرت لائحة فيرون[57] التي دونت سنة 297م، هذه الولاية ضمن دوقية إسبانيا وولاياتها الست آنذاك، وهي بيتيكا ولوزيتانيا والقرطاجنية وجيليقيا والطراكونية وموريطانيا الطنجية. Dioecesis Hispaniarum habet provinciae... Beticam, Lusitaniam, Kartaginiensis, Gallecia, Tharraconensie, (et), Mauritania Tingitania, كما ذكرتها اللائحة التي نقلها بوليميوس سلفيوس ضمن الولايات السبع التي كانت تكون في نهاية ق. 4م دوقية إسبانيا In Hispania VII (provinciae) : Tarraconensis, Carthaginensis, Baetica, Lusitania, in qua est Emerita, Gallaecia, Insulae Baleares, Tingitana...[58].

وهذه الولايات هي نفسها التي ذكرتها لائحة فيرون حوالي قرون قبل هذا التاريخ مع زيادة ولاية جزر البليار التي أنشئت بعد سنة 369م إثر إصلاح إداري استثنائي عرفته الولاية القرطاجنية[59]. (انظر الخريطة رقم 4).

أما عن ظروف إلحاق هذه الولاية الإفريقية جغرافيا بدوقية إسبانيا إداريا وأسباب ذلك، فالراجح أن التحكم في موريطانيا الطنجية كان عسيرا على الرومان

(55) **Ibid.**, p. 127-129

(56) Petit, **P.H.A., op. cit.**, p. 329

(57) D'après Albertini, **Les divisions administratives de l'Espagne romaine**, Paris, 1923, p. 118

(58) Polemius Silvius, Laterculus, 4, M.G.H.A.A., T. IX, p. 538

(59) Albertini, **Les divisions administratives de l'Espagne romaine, op. cit.**, p. 123

الخريطة رقم 4 : دوقية إسبانيا في نهاية ق. 4م

مجاري مائية
حدود الدوقية
اشبيلية : عاصمة الدوقية
حدود. الولايات
عاصمة ولاية

الذين اضطروا عدة مرات — عبر حوالي قرنين ونصف من تاريخها — إلى ضمها إلى موريطانيا القيصرية، وذلك لأسباب أمنية واستراتيجية[60]، على غرار ما كان قد فعل بها عرضا الإمبراطور ماركوس أوبيليوس (161—180م) Marcus Aurelius حين ألحقها بإسبانيا[61].

هذا ويعلل معظم الدارسين إلحاق دقليانوس لولاية موريطانيا الطنجية بدوقية إسبانيا بصعوبة التواصل بين هذه الولاية وجارتها من الشرق موريطانيا القيصرية وخاصة في أوقات الاضطرابات[62].

بل أكثر من ذلك ذهب بعض الباحثين إلى استحالة الاتصال بين الولايتين المذكورتين خلال نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للميلاد[63]. يضاف إلى كل ذلك خوف الرومان من اجتياح الموريين لإسبانيا على غرار ما فعلوا أيام الإمبراطور ماركوس أوريليوس خلال العقد السابع من القرن الثاني للميلاد[64]. فكان ضرورة أن يعمد الرومان إلى ولاية موريطانيا الطنجية ويلحقوها بدوقية إسبانيا حتى يتحمل الدوق الإسباني مسؤوليته كاملة في حماية شبه الجزيرة الإيبيرية من جهة، وتكون الطنجية بذلك ولاية حاجزة بين هؤلاء الموريين وإسبانيا من جهة ثانية. هذا ولا يستبعد أن تكون صعوبة المساحلة في الشواطىء الريفية هي بدورها من أسباب اتخاذ هذا القرار[65].

إلا أن ما تجب ملاحظته في هذا الصدد هو اقتناع العديد من الباحثين بأن قرار ربط موريطانيا الطنجية بدوقية إسبانيا إداريا وعسكريا صاحبه قرار يقضي بتقليص مساحة هذه الولاية لتشمل فقط المنطقة المتوسطية التي تمتد شمال نهر اللكوس، في حين نظم دقليانوس الجلاء عن داخل الولاية[66]. ومعلوم أن

(60) La Mauritanie Tingitane a été liée à la Cesarienne 11 fois selon Carcopino, **M.A.**, **op. cit.**, p. 238-239, et rien que 8 fois selon Frezouls, (E), les Baquates et la province romaine de Tingitane **B.A.M.**, T. II, 1957, pp. 65-116.

(61) Albertini, **Les divisions administratives de l'Espagne romaine, op. cit.**, p. 116, n° 2 et p. 119.

(62) **Ibid.**, p. 119

(63) R. Thouvenot, Les relations entre le Maroc et l'Espagne pendant l'antiquité, **I Congreso arqueologico del Marruecos Espanol**, Tetuan, 22-26, Junio 1953, p. 386.

(64) Idem, Les incursions des Maures en Bétique sous le Règne de Mare Auréle, **R.E.A.**, T. XLI, 1939, pp. 20-28.

(65) Albertini, **A.R.**, **op. cit.**, p. 107

(66) Carcopino, **M.A.**, **op. cit.**, pp. 231-233 et pp. 244-257

توفونو Thouvenot هو أول باحث تنبه إلى أن الحدود الجنوبية للولاية الطنجية الجديدة لم تكن لتقف عند نهر اللكوس واستدل على ذلك باستمرارية الوجود الروماني في كل من فريجيداي Frigidae (عين الرمل/ عزيب الحراق) وشالة Sala Colonia، وكلاهما إلى الجنوب من هذا النهر[67] كما تدل على ذلك العديد من النقائش.

هذا وإذا كنا نميل إلى ترجيح هذا الرأي، فإننا في المقابل لا نرى في الحجج التي قدمتها الأركيولوجيا إلى اليوم عن موقع الصويرة دليلا على استمرارية الوجود الروماني هناك[68] (انظر الخريطة رقم 5).

ولا يفوتنا في هذا المضمار أن لائحة المناصب العليا ذكرت بصريح العبارة هذين المركزين فريجيداي وشالة ضمن المراكز العسكرية التي كان قُوادها خاضعين لكونت موريطانيا الطنجية[69].

وحول الوضعية الإدارية لولاية موريطانيا الطنجية البحرية[70]، بعد هذه الإصلاحات مباشرة، فيذكر أن واليها كان من رتبة محافظ[71]، ويعمل تحت نظر دوق إسبانيا، الذي كان يقيم في مدينة طنجة أول الأمر، قبل نقل مقره على عهد الإمبراطور قسطنطين إلى إشبيلية Hispalis[72] (انظر الخريطة رقم 6).

ثانيا : التنظيم العسكري

أ ـ إصلاحات القرن الرابع :

في إطار الإصلاحات التي ارتآها الإمبراطور دقليانوس بهدف التحكم في الإمبراطورية بطريقة فعالة، أمر هذا الإمبراطور بالفصل بين كافة السلطة العسكرية والمدنية في الإدارات الجهوية للدوقيات والولايات. وهكذا جرد الدوقات وحكام الولايات من مهامهم العسكرية، وأسندها إلى قادة عسكريين يعملون تحت ظل

(67) Thouvenot, Compte-rendu du Maroc antique de Carcopino, **Hesperis**, T. XXXVIII, 3ème - 4ème trim., 1951, pp. 468-476.

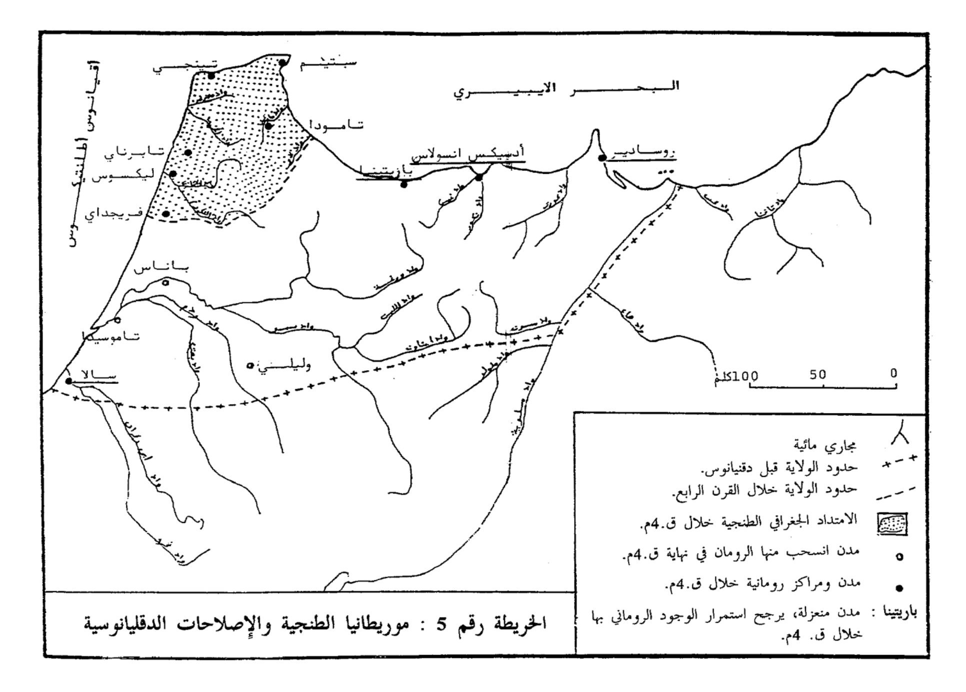
(68) Jodin, Iles purpuraires, d'après Rebuffat, l'implantation militaire romaine en Mauritanie Tingitane, in l'**Africa Romana**, IV, 1, Sassari, 1986, p. 32, n° 7.

(69) M.A. Carcopino, **op. cit**, p. 250

(70) Quelques érudits ont préferé appeler cette Tingitane réduite, la Tingitane maritime (voir : M.A. Carcopino, **op. cit.**, p. 246 et ss).

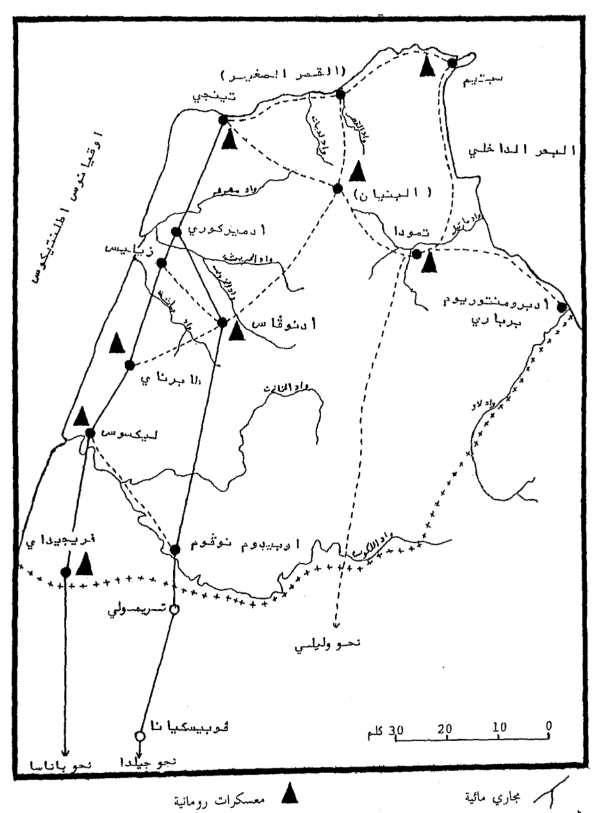
(71) Albertini, **Les divisions administratives de l'Espagne romaine, op. cit.**, p. 124

(72) M.A. Carcopino, **op. cit.**, p. 279



الخريطة رقم 5 : موريطانيا الطنجية والإصلاحات الدقليانوسية

الخريطة رقم 6 : الطرق والمراكز الرومانية في موريطانيا الطنجية خلال ق. 4م



معسكرات رومانية

طرق رومانية مذكورة في المصادر

طرق رومانية محتملة

مجاري مائية

حدود الولاية

مدن ومراكز رومانية

مدن انسحب منها الرومان.

الإمبراطور وعمداء المقاطعات[73]. حتى إذا جاء الإمبراطور قسطنطين الأكبر عمد إلى تطوير فكرة الفصل بين المهام العسكرية والإدارية على صعيد الحكومة المركزية نفسها، ليصبح التمييز سائر المفعول على كل المستويات، في العاصمة الإمبراطورية وفي كافة الدوقيات والولايات على حد سواء؛ إذ أحدث هذا الإمبراطور قيادتين علويتين للجيش تعملان تحت نظره مباشرة وتتكفلان بالشؤون العسكرية لعموم الإمبراطورية ــ بعد ما كانت هذه الشؤون من اختصاص عمداء المقاطعات ــ وأسند رئاستهما إلى :

ــ قائد أعلى لجيش المشاة Magister Militum Péditum.

ــ قائد أعلى لجيش الخيالة Magister Militum Equitum[74].

إلا أن ظروف تقسيم الإمبراطورية بين أبناء قسطنطين أول الأمر، ثم بين فالنتنيان وفالنس Valentinianus et Valens بعد ذلك، وإقرار هذا التقسيم بين هونوريوس وأركاديوس في نهاية ق 4م، جعلت هذا التنظيم العسكري الجديد للإمبراطورية يترسخ في شرقها وغربها على حد سواء؛ مع فارق مهم يتجلى في احتفاظ الإمبراطورية الشرقية بالقيادتين العسكريتين للمشاة والخيالة، في حين جمعت سلطتهما في الإمبراطورية الغربية في قيادة واحدة، وأسندت إلى قائد أعلى للجيش Magister Militum[75] منذ خريف سنة 398م[76].

أما انعكاسات هذه التنظيمات على الولايات الرومانية في إفريقيا الشمالية، وفي عموم الإمبراطورية الغربية، فستكمن في إحداث مناصب عسكرية أسندت إلى ضباط من رتب عالية متفاوتة يعمل بعضهم تحت إمرة البعض الآخر، ووصل عددهم في عهد الإمبراطور هونوريوس (395-423م) إلى ست كونتات وعشر دوكسات[77]، من بينهم كونت إفريقيا وكونت موريطانيا الطنجية، ودوكس موريطانيا القيصرية ودوكس الطرابلسية[78] (انظر الجدول رقم 1).

(73) E.R. Albertini, **op. cit.**, p. 332

(74) **Ibid.**, p. 362

(75) Petit, **P.H.A.**, **op. cit.**, p. 328

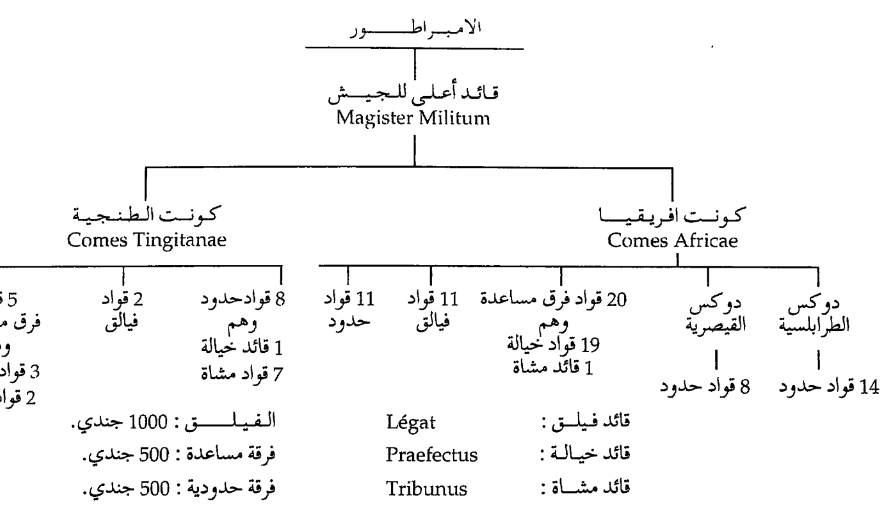
(76) والراجح أن ستيليكون هو أول من شغل هذا المنصب الجديد في الإمبراطورية الرومانية الغربية انطلاقا من يوم 13 شتنبر 398م (Cod. Theod., I, 7, 3).

Demougeot, **La Notitia dignitatum**, Latumus, XXXIV, 1975, p. 1096.

(77) **Ibid**, **op. cit.**, p. 1095-96

(78) Mercier, Ernest, **Histoire de l'Afrique Septentrionale**, T. I, 1888, p. 128

التنظيم العسكري في الولايات الرومانية في إفريقيا الشمالية في نهاية القرن الرابع للميلاد



الجدول رقم : 1

ب ــ كونت´ إفريقيا :

ترجح الدراسات أن يكون الإمبراطور قسطنطين الأول هو أول من عين قائدا عسكريا مستقلا عن الدوق في إفريقيا الرومانية ما بين 315–321م[79] (أنظر الجدول رقم 2).

واختلف الباحثون في تحديد أسماء القادة العسكريين الأوائل هناك، فرأى بعضهم أن أولهم هو أورساكيوس Ursacius الذي عين ما بين 316م و321م[80]. في حين رأى بعض آخر أن أولهم هو ليونيتيوس Leonitius ما بين 317 و321م وبعده مناندر Menander 321–326م[81].

وأول قائد عسكري معروف في إفريقيا بلقب الكونت Comes هو انيوس تيبريانوس Annius Tiberianus الذي ذكرته مدونة ثيودوز بهذا اللقب في مراسلتين : واحدة مؤرخة يوم 30 يوليوز 326م[82]، وثانية مؤرخة يوم 21 أبريل 327م[83].

أما آخر كونت معروف في إفريقيا الرومانية فهو الكونت بونيفاس في ولايته الثانية ما بين 429 و430م إبان اجتياح الوندال لإفريقيا الشمالية[84].

وعلى الرغم من اختلاف صيغ الألقاب التي حملها الكونت في إفريقيا، فالصيغة الأكثر استعمالا في النصوص وفي مدونة ثيودوز، لمخاطبة صاحب هذا المنصب، هي كونت إفريقيا Comes Africae[85].

أما عن مهامه فقد كان هو المسؤول عن تبعية الدوقية للإمبراطورية، وهو الحامي لها من الاعتداءات البربرية الخارجية، وهو المطهر لها من دنس الدوناتيين

(79) Pallu De Lessert, **V.C.A.**, **op. cit.**, p. 20

(80) **Ibid**, p. 57

(81) Chastagnol, Les consulaires de la Numidie, **Mélanges Carcopino**, Paris, 1966, p. 223, n° I.
Idem., Ant, Afr., I, 1967, p. 127.

(82) Cod. Théod., XII, 5, 1, éd. Mommsen, p. 712

(83) Cod. Théod., XII, I, d'après Pallu De Lessert, **V.C.A.**, **op. cit.**, p. 60

(84) V.A. Courtois, **op. cit.**,, p. 79, n° 7

(85) Not. Dign., occid., Afrique XXV, éd. Seeck, **op. cit.**, pp. 174-176
Pallu De Lessert, **V.C.A.**, **op. cit.**, p. 21.

الجدول رقم 2 : كونتات افريقيا خلال القرن الرابع ومطلع القرن الخامس للميلاد

Ursacius	(316 ؟-321 ؟)	أورساكيوس
Annius Tiberianus	327-326	أنيوس تيبريانوس
Flavius Gratianus	حوالي 339-340	فلافيوس كَراتيانوس
Taurianus	حوالي 344	طورينوس
Sylviester	؟	سيلفستر
Cretio	361-349	كريتيو
Romanus	372-363	رومانوس
Théodose	375-372	ثيودوز
Flavius Victorianus	378-375	فلافيوس فكتوريانوس
Gildo	398-385	جيلدو
Mascezel	399-398	ماسكزيل
Gaudentius	401-399	جودانتيوس
Bathanarius	408-401	باثاناريوس
Johannes	409-408	جوهانيس
Héraclianus	413-409	هيراكليانوس
Marinus	414-413	مارينوس
Boniface (1er Gouvernement)	428-423	بونيفاس (الولاية الأولى)
Sigisvult	429-428	سجيسفولت
Boniface (2ème Gouvernement)	432-429	بونيفاس (الولاية الثانية)

ويؤكد شاستانيول(*) أن لائحة كونتات افريقيا على عهد الامبراطور قسطنطن تضم :

ليونتيوس (321-317).

مناندر (326-321).

انيوس تيبريانوس (327-326).

(*) Chastagnol, (André), Les consulaires de Numidie, Mélanges Jérôme Carcopino. Paris, 1966, p. 223, n° 1.

والدوارين، حسب التعبير الروماني الرسمي، زيادة عن قدرته العسكرية التي تسمح له بالتحكم في المؤونة الحولية L'Annone الموجهة إلى روما. ونرجح أن تكون هذه المهام قد أسندت تدريجيا خلال ق. 4م إلى الكونت بعد ما كانت أصلا من مهام الدوق في مطلع نفس القرن، مما رجح الكفة لصالح منصب كونت افريقيا على حساب الدوق. وهكذا بعدما شهد مطلع القرن الرابع للميلاد تمرد وكيل الدوقية نوكيوس دوميتيوس اسكندر ما بين خريف سنة 308 وربيع سنة 311[86]، لم نسجل بعد ذلك أي تمرد يذكر لصاحب هذا المنصب بينما سجلت نهاية هذا القرن ومطلع القرن الموالي له، عدة ثورات تزعمها كونتات افريقيا جيلدو 395–398م وهير اكليانوس 413م وبونيفاس 425م، على امتداد زمني لا يتعدى ثلث القرن قبل دخول الوندال إلى إفريقيا الشمالية، مما ساهم في إضعاف القوة العسكرية للرومان هناك[87]. بل أكثر من ذلك واعتمادا على شهادتي القديس أوغسطينوس والمؤرخ أولمبيودور ويرجح أن يكون بونيفاس قد جمع المنصبين معا، فكان في ذات الوقت كونتا لإفريقيا ووكيلا لدوقيتها[88]. ولن يكون من باب المبالغة أن يلاحظ المرء أن شغور منصب وكيل الدوقية في إفريقيا ما بين 415 و429م ربما كان من باب الاستغناء عن صاحب هذا المنصب بعدما أصبح الكونت يتمتع بسلطات واسعة.

أما عن علاقة الكونت خلال ق. 4م مع العاصمة الإمبراطورية، فقد كان أول الأمر خاضعا للقيادة العليا لجيش المشاة[89] حتى توحدت القيادتان في الغرب على عهد هونوريوس في قيادة عليا واحدة.

وتحت إمرة الكونت كانت تعمل فرق من المشاة والخيالة على حد سواء، مرتبة في تشكيلتين : تشكيلة لحراسة الحدود وأخرى للميدان[90]، منظمة في فيالق وفرق مساعدة، يساعده في قيادتها والتنسيق بينها قواد للمشاة وآخرون

---

(86) Duruy, **Histoire des romains**, T. VII, **op. cit.**, p. 17-19

(87) **Brisson, Autonomisme, op. cit.**, p. 12

(88) Schmidt, **H.V., op. cit.**, p. 58

(89) **Ibid**, p. 57

(90) Mercier, **H.A.S., op. cit.**, p. 128-129

للخيالة[91].

أما تشكيلة الميدان فكانت تضم تسعة عشر فرقة مساعدة راكبة[92] وواحدة راجلة زيادة عن إحدى عشر فيلقا للمشاة[93]، في حين كان قواد جيش حراسة الحدود ستة عشر فرقة من المشاة أصلا، كُلٌّ منهما متمركزة في نقطة حدودية معينة على الليمس[94].

أما مركز إقامة الكونت في إفريقيا فكل القرائن تشير إلى مدينة قرطاجة[95] التي لم تكن أكبر مدينة في شمال إفريقيا فحسب، بقدر ما كانت لها عدة وظائف إدارية وعسكرية وروحية كذلك[96].

أما المناطق التي كان يتحكم فيها الكونت عسكريا، فعلى الرغم من أن المراجع تتكلم عن زوجيتانا وبيزاكينا ونوميديا وموريطانيا الصطيفية وشرق موريطانيا القيصرية، وتستثني كل عرب موريطانيا القيضرية ــ إن لم تكن كلها ــ وكل الولاية الطرابلسية باعتبار أن كلا منهما تخضع عسكريا لقائد يعرف باسم دوكس Dux وان القائدين يعملان بتنسيق مع كونت إفريقيا، لأنهما لا يتوفران في جيوشهما إلا على فرق لحراسة الحدود[97]، فالأقرب إلى الصواب أن الكونت كان يتحكم في كل الدوقية عسكريا والدليل على ذلك قائم. ذلك أن مدينة لبتيس ماجنا وحدها ــ وهي مدينة ساحلية في الطرابلسية بل أكثر من ذلك هي عاصمة الولاية ــ اشتكت ثلاث مرات إلى الإمبراطور ڤالنتنيان الأول (364-375م) ظلم الكونت رومانوس (363-372م) على امتداد سنوات 364-366م بسبب رفضه التدخل لحمايتها ــ من هجمات القبائل المورية التي كانت تغير عليها من

(91) H.V. Schmidt, **op. cit.**, p. 57

(92) Not Dign. occid., (Afrique), VI, 64 à 82, éd. Seeck; **op.cit.**, p. 131-132

(93) Idem, V, 151-155-156-235-249-255, **Ibid.**, p. 122-126

(94) Idem, XXV, 21 à 36, **Ibid**, p. 174-175

(95) V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 23

(96) Albertini, **l'Afrique du Nord**, **op. cit.**, p. 63

(97) H.V. Schmidt, **op. cit.**, p. 57
Mercier, **H.A.S.**, **op. cit.**, p. 128-129.

حين لآخر ـــ إلا بمقابل[98]. وبديهي أن أهل لبتيس ماجنا ما كانوا ليشتكوا هذا الكونت إلى الإمبراطور في هذه النازلة ـــ وهم يعلمون أن حمايتهم من اختصاص الدوق ـــ ولولا يقينهم أن حماية ولايتهم من مهام الكونت نفسه ـــ وإلا لكانوا اشتكوا من تقصير الدوق.

وعلى كل حال فقد كان قواد جيش حراسة الحدود ثمان فرق راجلة. في القيصرية[99] وأربع عشرة فرقة راجلة في الطرابلسية[100] موزعة على نقط حدودية معينة على الليمس، مع ملاحظة مهمة، مفادها أن بعض هذه الفرق كانت في ذات الوقت تحت القيادة الفعلية للكونت نفسه[101].

هذا وإذا كانت البحرية العسكرية المكلفة بحراسة الشواطىء الإفريقية في مطلع العهد الامبراطوري تتكون من عدة سفن بحرية تابعة أصلا لأسطول مصر وسوريا، ومتخذة من ميناء القيصرية مرفأ عسكريا لها[102]، فإن ما أصاب الإمبراطورية من ضعف عام شمل كذلك بحريتها في نهاية ق 4م ومطلع القرن 5 لدرجة أن لائحة المناصب العليا خالية ولو من إشارة واحدة إلى الأسطول الإفريقي[103]. ولعل غياب الأسطول العسكري هو الذي يفسر الاضطرار إلى إحاطة قرطاجة بأسوار متينة وخنادق واسعة بهدف تحصينها برا وبحرا سنة 425م اتقاء لأي خطر خارجي يهددها، سواء تعلق الأمر بخطر يوحنا الموثق Primicerius notariaum Johannes الذي كان قد اغتصب الشرعية الإمبراطورية بعد وفاة هونوريوس

---

(98) E. Stein, **Histoire du Bas-Empire,** De l'Etat Romain à l'Etat Byzantin (284-476), éd. Fr. par G.R. Palanque, T. I, 1959, p. 178-179.
R.H. Warmington, **The North African provinces from Diocletian to the Vandal conquest,** Cambridge 1954, p. 6 et p. 9.

(99) Not. Diggn. occid., (Cesarienne), XXX, 12 à 19 éd. Seeck, p. 184-185

(100) Idem, (Tripolitaine), XXXI, 18 à 31, **Ibid**, p. 186-187

(101) Idem, (Cesarienne), XXX, 12-13 et 17, **Ibid**, 184-185 : C'est trois praepositi cités en Césarienne sous le commandemant du Dux sont en même temps cités parmis les praepositi de l'Afrique sous le commandement du Comte; Not Dign. occid., (Afrique), XXV, 30, 35 et 32, **Ibid**, p. 175.
Pour la tripolitaine deux Milites Portenses sont sous le commandement du Comte : Not. Dign. occid., (Tripolitaine), XXXI, 29-30, **Ibid**, p. 186-187.

(102) M.R. Chapot, **op. cit.**, p. 457

(103) H.V. Schmidt, **op. cit.**, p. 59

سنة 423م[104]، أو تعلق هذا الأمر بخطر الوندال الذين كانوا قد دخلوا بتيكا في جنوب ايبيريا وأخذوا يتطلعون إلى ما وراء البوغاز في العدوة الإفريقية[105].

أما عن مهام الجيش الروماني المرابط في إفريقيا الرومانية فقد كانت لا تختلف في شيء عن مهام الجيوش الرومانية المرابطة في بقية الدوقيات، ذلك أن مهمته بصفة عامة هي قمع الثورات وصيانة الحدود على الأقل.

إلا أن أهمية إفريقيا بصفتها مخزنا للغلال في العالم الروماني، كانت تدفع الأباطرة، وخاصة على امتداد ق. 4م، إلى التشبث بالمحافظة على هذا الإقليم وضمان تبعيته للإمبراطورية مهما كلف ذلك من ثمن، ولذلك كان الجيش الإفريقي يحتل المرتبة الثانية من بين الجيوش الإقليمية في إمبراطورية الغرب بعد جيش غاليا[106]. ورغم ذلك لم يستطع أبدا ــ وعلى طول أربعة قرون من الاحتلال ــ ضمان الطمأنينة الشاملة في مجموع الإقليم[107]، وإن كان لا يدخر أي جهد لقمع الثورات والتمردات التي من شأنها أن تمس بمصالح الإمبراطورية هناك[108].

ومما زاد في أهمية الجيش الإفريقي أن روما كانت قد أدركت من تاريخ احتلالها لهذا الإقليم أن سلطتها هناك مرهونة بقوتها العسكرية وأن كل تهاون أو ضعف يصيب هذه القوة يكون إيذانا بثورات القبائل[109].

ولعل أهم الصعوبات التي واجهتها الإمبراطورية الرومانية في إفريقيا على امتداد نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، تكمن في حدة الصراع الديني بين الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية في المنطقة. ذلك الصراع الذي اتخذ صبغة سياسية اجتماعية، وأرغم الدولة على التدخل بالقوة ــ إلى جانب الكاثوليكيين ــ لصيانة أمن البلاد وتأمين مصلحة روما في تلك الناحية الغنية، بصفتها الخزان

---

(104) Marcus, **Histoire des Wandales**, Paris, 1836, p. 125

(105) سالم عبد العزيز، **المغرب الكبير**، ج 2، بيروت، 1981، ص 2

A. Pellegrin, **Histoire de la Tunisie**, Tunis, 1948, p. 62

(106) Demougeot, **La Notitia Dignitatum**, Latomus, **op. cit.**, p. 1114

(107) M.R. Chapot, **op. cit.**, p. 442

(108) Audollent, **Carthage Romaine**, Paris, 1901, p. 83

(109) Courtois, «De Rome à l'Islam», in **Revue Africaine, T. LXXXVI, 1942, p. 30**

الرئيسي لإيطاليا من المواد الغذائية خاصة بعد أن أصبح قمح مصر يوجه إلى العاصمة الشرقية الجديدة : القسطنطينية[110]. وذلك زيادة عن قمع ثورات فرموس وجيلدو وهيراكليانوس وبونيفاس ومتابعة الدوارين. وهذه كلها أحداث عملت ولا محالة على إضعاف القوة العسكرية الرومانية في إفريقيا الشمالية.

ج ــ كونت موريطانيا الطنجية :

إذا كانت المعلومات متوفرة إلى حد ما عن منصب كونت إفريقيا، فإنها تعوز منصب كونت موريطانيا الطنجية، خاصة وأن المصادر لم تزود الباحثين بلائحة مؤرخة لأسماء الذين شغلوا هذا المنصب. ورغم ذلك فالراجح أن أول كونت لهذه الولاية قد عين في منتصف ق. 4م[111]، ولعله فلافيوس ميموريوس Flavius Memorius Comes Mauritaniae Tingitanae الذي شغل هذا المنصب في فترة ما، غير محددة تاريخيا بدقة، بين سنتي 324 و378م[112].

والجدير بالملاحظة على كل حال في هذا المقام كون ولاية الطنجية هي الولاية الرومانية الوحيدة في الغرب التي كان يرأس جيشها قائد من رتبة كونت، إذ العادة أن يكون الكونت على رأس جيش دوقية. بل أكثر من ذلك كان جيش كونت الطنجية يشمل مشاة وخيالة على غرار ما كان جيش كونت إفريقيا[113]. في حين لم يكن جيش كونت إسبانيا يتكون إلا من المشاة[114].

ومقارنة بين المنصبين ــ كونت الطنجية وكونت إسبانيا ــ يتبين أن المنصب العسكري للثاني لم يظهر إلا مع ق. 5م[115]، حوالي نصف قرن بعد إحداث المنصب الأول.

هذا وكان كل من كونت الطنجية وكونت إسبانيا خاضعا للسلطة العسكرية

---

(110) المبكر، الدوارون، **مرجع سابق**، ص 24.

(111) **Demougoet, La Notitia Dignitatum**, Latomus, **op. cit.**, p. 1101

(112) V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 79, n° 8

(113) Demougeot, **La Notitia Dignitatum**, Latomus, **op. cit.**, p. 1096

(114) **Ibid**, p. 1100

(115) **Albertini, Les Divisions Administratives de l'Espagne Romaine, op. cit.**, p. 125, n° 2

المركزية دون أي تمييز بينهما[116]، وذلك على الرغم مما يقال من كون جيش موريطانيا الطنجية وقيادته يعتبران من صفوف الجيش الإسباني في نهاية ق. 4م[117].

وإن دل كل هذا على شيء فهو يؤكد مكانة موريطانيا الطنجية في السياسة العامة الرومانية خلال القرن الرابع للميلاد كولاية ذات أهمية استراتيجية لحماية دوقية إسبانيا من كل خطر يهددها من الجنوب، وضمان تحكم الرومان في البوغاز بعدوتيه[118].

كان مقر إقامة الكونت في مدينة طنجة بصفتها العاصمة الإدارية والعسكرية أنذاك للولاية الطنجية[119]، وكان تحت إمرته ــ على غرار كونت إفريقيا ــ تشكيلتان اثنتان : واحدة للميدان وثانية لحراسة الحدود : أما تشكيلة الميدان فقد كانت تضم فيلقين للمشاة[120] وخمس فرق مساعدة، ثلاثة منها راكبة[121]. في حين كانت تشكيلة جيش حراسة الحدود تتكون من ثمانية فرق، سبعٌ منها راجلة، وثامنتها جناح راكب، وقد ذكرت لائحة المناصب العليا قواعد عمل الجيش الحدودي[122]. (انظر الجدول رقم 3). كما خصصت حيزا مهما للحديث عن مهام واختصاصات مكتب كونت الطنجية طبقا لبنود قانون سنة 398م[123].

إلا أن ما أثار انتباهنا أكثر هو غياب الكلام عن كونت الطنجية في مختلف المراجع التي تتحدث عن تاريخ إفريقيا الشمالية قبيل دخول الوندال، لدرجة أن تصور بعض الباحثين أن هذا المنصب كان قد ألغي نهائيا أنذاك[124]، وزعم أن

---

(116) Demougeot, **La Notitia Dignitatum**, Latomus, **op. cit.**, pp. 1096-1100

(117) Albertini, **L'Afrique du Nord**, **op. cit.**, p. 108

(118) **Ibid**, p. 106-107

(119) V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 68, n° 1

(120) Not. Dign. occid., (Tingitane), V, 253 et 271, éd. Seeck, **op. cit.**, p. 127

(121) **Idem**, V I, 63, 83, 84, **Ibid.**, p. 131-132 : les cavaliers
Idem, V, 221, 222, **Ibid.**, p. 125 : pour l'infanterie.

(122) **Idem**, XXVI, 13 à 20, **Ibid**, p. 177-178

(123) Not. Dign., occid. XXV, 38-42 et XXVI, 22-24 d'après Demougeot, **La Notitia Dignitatum**, Latomus, **op. cit.**, p. 1112

(124) **Ibid**, p. 1115

بونيفاس تقلد قيادة الجيش الروماني في المغرب ــ بمفهومه الكبير ــ وأخذ سبتة مقرا له[125]. ومن هؤلاء الباحثين شميت (Schmiat) نفسه الذي فهم أن جيش موريطانيا الطنجية كان آنذاك تحت الإمرة المباشرة لكونت إفريقيا الذي أصبحت صلاحياته واسعة، تنظر في الشؤون العسكرية والمدنية لعموم إفريقيا من الطرابلسية إلى البوغاز[126].

وفي نظرنا ربما هناك ما يدفع إلى ترجيح هذا الرأي : ذلك أن دخول الوندال إلى إسبانيا ومنذ سنة 409م صحبة الآلان والسواف واقتسام هؤلاء لها فيما بينهم سنة 411م، كل ذلك كان ولاريب إيذانا بالنهاية الفعلية لدوقية إسبانيا[127]، وبداية لمراجعة تنظيمها الإداري والعسكري، على حد سواء بما في ذلك ولايتها فيما وراء البوغاز موريطانيا الطنجية : وعليه فليس من المستبعد أن يكون الرومان ــ بعد تلك الأحداث ــ قد أعادوا ربط موريطانيا الطنجية بشقيقاتها ولايات إفريقيا الشمالية الرومانية إداريا وعسكريا على غرار إلحاق جزر البليار أنذاك ــ حسب شهادة إيزيدور ــ بولاية الطراكونية[128]، الولاية الوحيدة التي احتفظ بها الرومان أنذاك في إسبانيا بعد الغزو البارباري.

بل أكثر من ذلك هناك من القرائن ما يعزز هذه النظرية، ذلك أن قيام القائد الأعلى للجيش الروماني كاستينوس Magister Militum Castinus بنفسه سنة 421م، لتطهير إيبيريا من الوندال، إشارة على الأقل إلى انهيار التنظيم العسكري الروماني في شبه الجزيرة[129]. كما أن حضور بونيفاس ــ كونت إفريقيا ــ لمساعدة كاستينوس في حروبه هناك[130]، يثير عدة تساؤلات حول دور كونت إسبانيا ودور كونت الطنجية في مثل هذه الظروف؛ إلا أن يكون هذان المنصبان شاغرين آنذاك، وأن مسؤولية كونت الطنجية انتقلت إلى بونيفاس الذي أصبح

(125) سالم، المغرب الكبير، **مرجع سابق**، ج 2، ص 2.

(126) H.V. Schmidt, **op. cit.**, p. 57-58

(127) **Albertini, Les divisions administratives de l'Espagne Romaine, op. cit.**, p. 126, n° 1

(128) **Isidore, His. Wand., 73, M.G.H.A.A., T. XI**, p. 296

(129) **Albertini, Les divisions administratives de l'Espagne Romaine, op. cit., p. 126, n° 1**

(130) **Prospertiro, Chronica, 1278, M.G.H.A.A., T. IX, p. 469. H.W. Marcus, op.cit.**, p. 123

من يومها كونتا على إفريقيا بمفهومها الواسع، كونتا على إفريقيا بولاياتها السبع، من الطنجية إلى الطرابلسية[131].

الجدول رقم 3 : قواعد تشكيلة جيش حراسة الحدود في الطنجية

1 ــ جناح راكب	في تمودا	قرب تطوان
2 ــ فرقة راجلة	في دوكَا	مكان مجهول أركيولوجيا
3 ــ فرقة راجلة	في أولوكس	ليكسوس
4 ــ فرقة راجلة	في كاسترابريانسي	مكان مجهول أركيولوجيا
5 ــ فرقة راجلة	في سلا	شالة
6 ــ فرقة راجلة	في باكاتينا	البنيان
7 ــ فرقة راجلة	في تابرناي	للا الجيلالية
8 ــ فرقة راجلة	في فريجداي	عين الرمل

قائد جناح راكب : Praefectus
قائد فرقة راجلة : Tribunus

المراجع :

— Not. Dign. occid. XXVI, 13-20, éd. Seeck, op. cit., pp. 177-178.
— Tissot, La Mauritanie Tingitane, op. cit., p. 307.
— Carcopino, M.A., op. cit:, p. 250.
— Rebuffat, et Autre, B.A.M., T. XVI, op. cit., pp. 235-255.

ومما يعزز هذا الرأي إلى حد كبير ما ذكره بروكوب من أن الإمبراطورة كَلابلاسيديا قد عينت بونيفاس كونتا على عموم ليبيا[132]، علما أن لفظة ليبيا ــ في استعمالات المؤرخين الإغريق، والذين نهجوا شاكلتهم كبروكوب مثلا ــ كانت تدل على مجموع إفريقيا الشمالية إلى حدود مضيق جبل طارق. يضاف

(131) جيبون، ادوارد، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ترجمة لويس اسكندر، القاهرة 1969، ج 2، ص 256.

(132) B.V. Procope, I, III, 16, 22 et 26, éd. Dewing, **op. cit.**, pp. 27-29 et 31

إلى كل ذلك ما ساقه بروكوب أيضا من أن الكونت بونيفاس وهو يستنجد بالوندال اقترح عليهم مقابل نجدته، التنازل لهم عن ثلثي أراضي افريقيا الرومانية[133]. وهو الاقتراح الذي دأب العديد من الباحثين على تفسيره بالتنازل للوندال على الموريطانيات الثلاث بما في ذلك طبعا موريطانيا الطنجية[134]، التي كانت قد ألحقت من جديد بدوقية افريقيا[135].

يضاف إلى كل ذلك أن العديد من الباحثين المحدثين يرون صراحة موريطانيا الطنجية ضمن الولايات السبع الكنسية التي كانت تتبع روحيا جثليق قرطاجة في حدود سنة 429م، والوندال منهمكون في استعداداتهم لغزو المنطقة[136]. خاصة وقد جرت العادة منذ عهد دقليانوس أن تنظم الكنيسة ولاياتها طبقا للتنظيم الإداري الجاري به العمل[137]. على أن لا أحد من هؤلاء الباحثين يجادل في تبعية موريطانيا الطنجية، الولاية الإفريقية جغرافيا، لدوقية إسبانيا إداريا وعسكريا وروحيا انطلاقا من سنة 297م وعلى طول امتداد ق. 4م[138] وإلى غاية سنة 411م[139].

ثالثا : فساد الإدارة الرومانية

كان التنظيم الإداري والعسكري الجديد للولايات الرومانية في افريقيا الشمالية فرصة سانحة للرومان لكي يزيدوا من ضغطهم على الرعية ويتحكموا في الاقتصاد، خاصة وأن الدولة خففت من الأعباء الإدارية لموظفيها هناك بالفصل بين الشؤون المدنية والعسكرية. وكل ذلك فسح لهؤلاء الموظفين المجال لتغلغل أكبر واستغلال

(133) B.V. Procope, I, III, 25, éd. Dewing, **op. cit.**, p. 31

(134) F. Martroye, **Genséric, la conquête vandale en Afrique et la destructon de l'Empire d'occident**, Paris, 1907, p. 108, n° 1.
Mercier, **H.A.S.**, T. I, **op. cit., p. 143.**

(135) **H.W. Marcus, op. cit.**, p. 143

(136) S.A. Morcelli, **Africa Christiana**, Brescia, 1810, T. I, p. 34 et ss
Jean Yanoski, **L'Afrique Chrétienne**, Paris, 1844, p. 45-50.

(137) Albertini, **Les divisions administratives de l'Espagne Romaine, op. cit.**, p. 119

(138) **Ibid**, p. 510

(139) V.A. Courtois, **op. cit.**, p. 110-111

أكثر، وهيأ الظروف المناسبة لكبارهم بالخصوص ــ وكيل إفريقيا والولاة والكونت والدوكات ــ لممارسة تصرفاتهم المنحرفة.

ولما كان المغاربة الأهالي بعيدين كل البعد آنذاك عن التفكير في تدوين تاريخهم وتاريخ مأساتهم تحت نير الأجهزة الإدارية والعسكرية للاستعمار الروماني، لم يكن منتظرا بطبيعة الحال أن يفضح هذا الفساد أولئك الكتاب اللاتانيون والإغريق الذين دونوا تاريخ المنطقة خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد، أو تطرقوا لبعض فصوله عرضا وهم القديس أوغسطينوس وبوسيديوس وفكتور دي فيتا وبروكوب. إلا أن المؤرخ اميانوس ماركلينوس ترك لنا عدة إشارات في تاريخه[140]، حول مدى فساد الإدارة الرومانية في ولايات افريقيا الشمالية، استنتج منها بعض المؤرخين المحدثين أن أساس هذه التصرفات المنحرفة للموظفين الرومان يكمن في التماطل والمحسوبية والرشوة وسوء التدبير والتصرف[141]. ومما يزيد الطين بلة أن أعداد هؤلاء الموظفين كانت مرتفعة في قرطاجة وبقية عواصم الولايات وكبريات المدن. ويكفي مثلا أن نعرف أن عدد هؤلاء وصل إلى أربع مائة مستخدم تحت نظر البروقنصل، وإلى ثلاث مائة في مكاتب الدوق[142].

ولكي نتصور درجة ما وصلت إليه نتانة الفساد الإداري هناك، يكفي أن نعيد إلى الأذهان قصة الكونت رومانوس مع أهل لبتيس ماكنا وهو يطالبهم بأربعة آلاف من الإبل، رشوة مقابل تدخله عسكريا لحماية مدينتهم من خطر القبائل المورية[143].

أما المصادر الرومانية الرسمية ــ مدونة ثيودوز مثلا ــ فإنها وإن أخفت هذا الفساد، نستشف منها بعض مظاهره التي تتجلى في ظلم الولاة وعدم قيامهم بواجباتهم ومسؤولياتهم على أحسن وجه.

فهذا قانون أصدره الإمبراطور قسطنطين سنة 331م يستنكر فيه جشع

(140) Ammianus Marcellinus, Livre XXIX, 5, 2-55
Idem, Livre, XXVII, 9.

(141) Warmington, op. cit., p. 5

(142) Cod. Théod., I, 12, 6 (année 398) d'après Ibid
Cod. Théod., I, 15, 5 (année 265) d'après Ibid.

(143) Ammianus Marcellinus, L. XXVI, 5, 14 et L. XXVIII, 5, 12 et L. XXVIII, 6, 4-13

الموظفين في الإدارة الرومانية وطمعهم في الرشاوي مقابل إنجاز خدمات سريعة أو للانحياز في قضاء الدعاوي[144]. وهذا نص قانون يؤكد فيه الإمبراطور على ضرورة حماية الرعايا من ظلم الولاة وتسلطهم[145].

وهذه رسالة بعث بها الإمبراطور كونسطانتيوس (Constantius = Constance) إلى عمدة المقاطعة مامرثان Mamertin يوصيه فيها بالعمل على اجتناب التماطل في المعاملات الإدارية[146]، وتلك رسالة مماثلة حول الموضوع نفسه يرسلها الإمبراطور إلى والي نوميديا[147].

ومعلوم أن هذه التصرفات المنحرفة ليست جديدة على موظفي الإدارات الرومانية في إفريقيا الشمالية، إذ كان الولاة هناك دوما يتحلون بهذه الخصال ذاتها وصفاتها، ويكفينا مثلا أن نذكر الوالي سالوستيوس الذي قضى سنة ونصف (46-45ق.م) على رأس ولاية افريقيا الجديدة آنذاك، قضاها في ابتزاز الرعية واختلاس الأموال العامة لدرجة أن ساءت سمعته وقدم للعدالة التي لم ينج منها إلا بفضل صديقه قيصر[148].

وغير خاف كذلك أن فساد البلاط الإمبراطوري كان له دور كبير في تشجيع ظلم الحكام للرعايا الأهالي، وإهمال مصالحهم وابتزاز أموالهم. وقد خلد المؤرخ اميانوس ماركلينوس صورة من فساد البلاط وتواطئه مع الحكام عندما أشار صراحة إلى دور ريمجيوس Remigius مدير ديوان الإمبراطور فالنتنيان الأول، في تطويق شكاوي الأهالي الأفارقة لكي لا يصل صداها إلى الامبراطور منعا للعدالة واستغلالا للنفوذ والمنصب[149].

وهكذا كانت الأطر الرومانية الإدارية والعسكرية، المحلية والجهوية والمركزية،

(144) Cod. Théod. I, 16, 7, d'après Warmington, **op. cit.**, p. 5

(145) Pallu Delessert, **V.C.A.**, **op. cit.**, p. 9

(146) Cod. Théod. I, 15, 3 d'après Idem, **Ibid**, p. 8-9

(147) Cod. Théod. I, 15, 4 d'après Idem, **Ibid**

(148) Paul Delacroix, **Catilina de Salluste**, Collection Classiques Roma, éd. Hachette, Paris, 1938, p. 3.

(149) Ammianus Marcellinus, L. XXIX, 5, 2-4

تساهم في خلق فساد إداري خانق على كل المستويات وفي مختلف الواجهات لن يزيد من حدته في إفريقيا سوى استيلاء الرومان على أجود الأراضي وأخصبها هناك، وممارستهم لظلم جبائي، سنبين مداه في مقالة موالية بحول الله. كما كان هذا الفساد الإداري يهيء السكان الأهالي لمساندة كل القائمين ضد النفوذ الروماني، وخاصة من الدوناتيين والدوارين، والمتمردين من الحكام أنفسهم.

ولما كان تشبث الإمبراطورية الرومانية بممتلكاتها في إفريقيا الشمالية، لا يمكن أن يفهم إلا في إطار ارتباط ذلك التشبث مباشرة بالأهمية الاقتصادية لولايات افريقيا، وجب البحث في هذا الاتجاه الاقتصادي بهدف الوقوف على حقيقة الأحوال الفلاحية والصناعية والتجارية والمالية هناك، وإظهار كافة الفئات الاجتماعية المستفيدة والمتضررة من هذه الأحوال، ومحاولة التعرف على موقف المتضررين واستبار مدى قابليتهم للتعاون فيما بينهم أو مع غيرهم للتصدي للرومان في المنطقة.

شخصية عبد المؤمن بن علي
من خلال نقوده

صالح يوسف بن قربة
معهد الآثار ــ جامعة الجزائر

تمهيد :

تعتبر شخصية عبد المؤمن بن علي الكَومي شخصية فريدة في تاريخها ومتميزة في أعمالها بما تركته من آثار عميقة في المجتمع، غيرت مسيرته وظهرت واضحة جلية في كثير من المنجزات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وسنحاول تحديد بعض معالم ومآثر هذا الخليفة التي كثر الحديث عنها، انطلاقا من الإفادة من الآثار عامة والمسكوكات أو النقود على الخصوص. وعليه، فإن النقود الموحدية بنوعيها الفضي والذهبي، ستكون المصدر الأساسي الذي سنحتكم إليه في هذه الدراسة التي تسعى إلى تحديد الخصائص العامة لشخصية الخليفة عبد المؤمن بن علي. ومن هنا تبدو أهمية النقود كوثائق رسمية معاصرة للحكام أو الفترة المراد دراستها، فهي بمثابة شارة من شارات الخليفة أو السلطان أو من ينوب عنه، ومظهرا من مظاهر السلطة والنظام، ومرآة تعكس نشاط الدولة في مختلف الميادين.

وإذا كان ظهور الموحدين في المغرب الإسلامي في أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي قد أحدث انقلابا في الأفكار والمفاهيم الدينية والسياسية والاقتصادية، فإن ذلك جاء نتيجة طبيعية لحركة محمد بن تومرت الإصلاحية التي شملت جوانب مختلفة من حياة المجتمع المغربي، وتجلت آثارها واضحة في كثير من نواحي الحياة، وخصوصا النقود. وإذا كانت السكة عموما، ترتبط بالاتجاهات السياسية والمذهبية التي تواكب عادة ظهور دولة ما في مكان ما وزمان ما فإن هذه الحقائق جميعها تنطبق تماما على دولة الموحدين التي يمثل

ظهورها حدثا تاريخيا لم يسبق له نظير في تاريخ المغرب. وقبل أن نسهب في الحديث عن شخصية عبد المؤمن بن علي[1] كما تتراءى من خلال النقود، يحسن بنا أن نمهد بلمحة تاريخية نوضح فيها ظهورها وأسماءها ومصطلحاتها التي عرفت بها وأهم الأنواع المستعملة آنذاك.

أولا : ظهور النقود الموحدية :

ليس من السهل تحديد تاريخ ظهور النقود الموحدية من وجهة النظر التاريخية لانعدام الوثائق، أما ما تضمنته بعض المصادر من إشارات أو تلميحات، فإنها تحتاج إلى غربلة ودراسة دقيقة للتأكد من صحتها. فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر ما ورد بخصوص هذه النقود في كتاب «**أخبار المهدي بن تومرت**» للبيدق[2] الذي أودعه معلومات غزيرة وقيمة عن فترة نشأة حركة الموحدين وبداية تكوّنها، وبالمقابل فإنه لم يعر أي اهتمام لمسألة النقود، واكتفى بالإشارة إلى فئة (السكاكين) أو المشرفين على ضرب النقود، والتي كانت تلي فئة «المحتسبين» مباشرة في طبقات الموحدين.

والملاحظ من خلال تتبع الروايات التاريخية عند مؤرخي المغرب الإسلامي أنها لا تحتوي على تفاصيل حول الموضوع، ولكنها تجمع على نسبة اختراع الدراهم المربعة إلى محمد بن تومرت، وتطلق عليه بعض النّعوت التي تؤكد فكرة إنشائه لهذا النوع من النقود، فتصفه «بصاحب الدرهم المربع»[3] تارة، وصاحب

---

(1) هو عبد المؤمن بن علي بن علويّ الكومي نسبة إلى كوميه، وهي قبيلة صغيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بضواحي هنين من أعمال تلمسان. ولد بقرية تاجرة سنة 487هـ/ 1094م. في عهد يوسف بن تاشفين، من أب كان يشتغل بالطين. وحسب عبد الواحد المراكشي فإن عبد المؤمن كان يقول إذا ذكر كومية : «لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان ابن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال»، عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1949، ص 197. وقاد الموحدين بسياسة ودهاء إلى أن توفي سنة 558هـ/ 1163م.

(2) أبو بكر البيدق، **كتاب أخبار المهدي بن تومرت**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 36.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، لجنة البيان العربي، 1966، ج 2، ص 810.

«الدرهم المركن»[4] تارة أخرى. وإذا أخذنا بوجهة النظر التاريخية، فإن الإمام المهدي بن تومرت قد يكون أول من أصدر النقود الموحدية. ولكن الأمر يختلف تماما إذا أخذنا هذه المسألة من وجهة النظر الأثرية ممثلة في النقود. فالمعروف أثريا أن النقود تمثل وثائق مادية معاصرة يصعب الطعن في معلوماتها. ولكن الإشكال يزداد حدة بسبب خلو النقود الموحدية من تاريخ الضّرب، وأيضا من إسم الأمير في بعض أنواعها مثل القراريط الفضية التي ظلت مجهولة النسبة.

وهنا تبدو صعوبة تحديد تاريخ الضّرب بدقّة. وإذا سلمنا بأن الزعيم الروحي لحركة الموحدين المهدي بن تومرت لم يضرب النقود باسمه[5]، فإن عبد المؤمن هو أول من قام بضربها، ويعزّز هذا الرأي تسميته «بأمير المؤمنين» سنة 528هـ/ 1134م[6].

وفي ضوء المعطيات السابقة يمكن القول بأن تاريخ ضرب النقود الموحدية الفضية (الدراهم) والذهبية (الدنانير) قد بدأ مع عبد المؤمن بن علي[7]، ومن المحتمل جدا أن ذلك كان بعد سنة 524هـ/ 1130م، أي بعد وفاة المهدي بن تومرت غير أننا لا نستطيع في غياب الشواهد أن نحدّد السنة التي انطلقت فيها عملية سك النقود الموحدية لاسيما في هذه الفترة المبكرة من صراعهم ضد المرابطين، إذ لم تكن بحوزتهم دور للضرب تقوم بإنتاج كميات تغطي احتياجاتهم الشديدة، كأعطيات الجند مثلا، يضاف إلى ذلك أن الموحدين أنفسهم لم يستعملوا الدراهم المربعة إلاّ بعد وفاة زعيمهم ابن تومرت، واستقرار أحوالهم بقيام الدولة في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، ونعتقد أن دار السكة بمراكش هي التي بدأت بإنتاج النقود الجديدة، ذات الطراز المتميز. وباتساع نفوذ الموحدين انتشرت النقود وزادت ظاهرة تأسيس دور السكة في جميع أنحاء المغرب

---

(4) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، «الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة»، تحقيق حسين مؤنس، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية**، مدريد، العدد 1-2، 1958، ص 111.

(5) د. صالح بن قربة، **المسكوكات المغربية على عهد الموحدين والحفصيين والمرينيين خلال القرون السادس والسابع والثامن للهجرة/ 12، 13، 14 للميلاد**، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة الجزائر، 1996، ص 13 وما بعدها.

(6) عبد الواحد المراكشي، **المعجب...**، ص 192.

(7) د. صالح بن قربة، **المسكوكات المغربية على عهد الموحدين...**، ج 1، ص 298-299.

والأندلس. وتأسيسا على ما تقدم، يكون عبد المؤمن أول من سكَّ النقود الفضية المربعة والذهبية المستديرة الشكل التي تضم بداخلها مربعا. إذن فما هو الدرهم الموحدي الذي اعتبر سابقة في تاريخ المسكوكات ؟

1 ــ الدرهم المربع :

يعتبر الدرهم الموحدي المربع، بالنظر إلى شكله ومضمون نصوصه سابقة في تاريخ المسكوكات الفضية الإسلامية منذ ضرب الأمويون الدراهم العربية الخالصة بدمشق ابتداء من سنة 78هـ، وقد كان لهذا الدرهم أهميته كظاهرة حضارية تستحق الدراسة والاستقصاء من قبل الباحثين المختصين والمشتغلين بتاريخ المغرب الإسلامي.

وعلى اعتبار أن النقود الفضية الموحدية تعد حدثا تاريخيا هاما، آثرنا إعطاء وصف مختصر لأهم أنواع النقود التي ساد التعامل بها خلال فترة حكم الخليفة عبد المؤمن بن علي لارتباطها بالموضوع. فالدرهم عبارة عن قطعة معدنية من الفضة، مربعة غير منتظمة الشكل طول ضلعها (16×14ملم) يتوسطها مربعان متداخلان، الأول خال من الزخرفة والثاني مكون من حبيبات متراصة ومتلاصقة. أما وزنه فكان يعادل نصف الدرهم الإسلامي وهو درهم الكيل، فإذا كان وزن الدرهم الإسلامي هو 2.975 غرام، فإن وزن الدرهم الموحدي : 2.975 : 2 = 1.49[8]. تبين هذه النسبة انخفاض الدرهم الموحدي عن الوزن الشرعي بالنصف تقريبا، فالدرهم الموحدي يزن 28 حبة، بينما يقدر نصف الدرهم الإسلامي بـ25.2 حبة، على اعتبار أن وزن الدرهم الشرعي هو 50.4 حبة. وكانت الدراهم المربعة وأنصافها تحمل كتابتين مركزيتين على الوجهين نفذت نصوصهما بطريقة الحفر البارز بالخط النسخي.

ونقرأ على وجه الدراهم المربعة، كتابة من ثلاثة سطور أفقية تشير إلى هذه الصيغ الثلاثة التالية حسب ترتيبها على القطعة وهي :

---

(8) لمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة راجع :

Brunschvig; «Esquisse d'histoire monétaire almohade-hafside» in : **Mélanges William Marçais, Paris, 1950; Lane Poole, S., The Coins of the moors of africa and Spain and the Kings and Emam's of the Yemen.**

1 ــ لا إله إلا الله
2 ــ الأمر كله لله
3 ــ لا قوة إلا بالله.

بينما خصصت كتابة الظهر لتسجيل الشهادتين في صيغة جديدة مقرونة بلقب إمام الموحدين محمد بن تومرت هكذا :

1 ــ الله ربنا
2 ــ محمد رسولنا
3 ــ المهدي إمامنا.

ونلاحظ استحداث عبارات جديدة متميزة فيها انسجام وتناسب في اللفظ مع اختلاف في المعنى والهدف. وهذا الأسلوب المتميز لم يسبق أن استعمل على المسكوكات الإسلامية، فالعبارات الثلاث في الوجه تختم باسم الجلالة (الله)، ونفس الظاهرة يمكن ملاحظتها على عبارات الظهر التي تختم هي الأخرى بلفظة (نا)[9] الجماعية. وهي بهذا المفهوم وسيلة إعلامية تترجم فلسفة الدعوة الموحدية في ميدان العقيدة، عدا عبارة «المهدي إمامنا» التي تؤكد إقرار الموحدين بإمامة محمد ابن تومرت التي تشكل ركنا من أركان الدعوة الموحدية نفسها.

أما الدرهم المؤمني (نسبة إلى عبد المؤمن بن علي) فهو يعادل من الناحية الوزنية نصف درهم النصاب، مربع الشكل تقريبا، طول ضلعه (13×11ملم) ووزنه (0.55 0.75غ). والدراهم المؤمنية على نمطين مختلفين من حيث النصوص المسجلة عليها[10]. إذ نقرأ على النمط الأول في الوجه فاتحة الكتاب في ثلاثة سطور أفقية متوازية، على النحو التالي :

في الوجـــــه :
1 ــ الحمد لله
2 ــ رب

(9) لمزيد من التعرف أكثر على هذه النقود راجع :

Bel, A., «Contribution a l'étude des dirhemes de l'époque Almohade».
Codera, F., **Tratado de Numismatica**, p. 221.
Rivero, **La Moneda Arabigo - Espanola**, p. 65.

(10) عبد الواحد المراكشي، **المعجب...**، ص 201.

3 ــ العالمين.

وعلى الظهــــر :

1 ــ أبو محمد عبد

2 ــ المومن بن علي

3 ــ أمير المؤمنين.

أما فيما يتعلق بنصوص نقود النموذج الثاني، فنجدها تتألف من كتابتين مركزتين على النحو التالي :

في الوجــــه :

1 ــ الحمد لله

2 ــ رب

3 ــ العالمين.

وعلى الظهــــر :

1 ــ الأمر كله

2 ــ لله لا قوة

3 ــ إلا بالله.

ومن استعراضنا المتقدم، يتبين أن النقود الفضية الموحدية مجردة من تاريخ الضرب، وأنها نادراً ما تحتوي على مكان الضرب، وهذه الظاهرة الفنية تعتبر من أهم خصائص النقود الموحدية عامة. ولما كانت النقود تمثل وسائل إعلامية ودعائية للدولة، فقد علق الموحدون عليها أهمية كبيرة تتجلى بوضوح فيما اختاروه من العبارات الدينية القوية المؤثرة بما يتناسب والجو العام الذي كان قوامه الشعور الديني المتعطش للمذهب السّني، لذلك نراهم ينقشون عبارات دينية وأجزاء من آيات قرآنية لها دلالات محددة. أما شخصية عبد المؤمن بن علي، فتظهر في المسكوكات بوضوح ممثلة في نقش اسمه وكنيته ولقبه الخليفي «أمير المؤمنين» الذي يكشف عن شخصيته الملوكية القوية المتطلعة إلى حكم العالم الإسلامي، حيث «كان شديد الملوكية كأنه كان ورثها كابرا عن كابر، لا يرضى إلاّ بمعالي الأمور»[11]. والمعروف أن هذا اللقب ظل، إلى ذلك الوقت، مقتصراِ على خلفاء

(11) المراكشي، **المعجب** ص 197.

بني العباس في بغداد والفاطميين في مصر بالقاهرة، وقد كان عبد المؤمن يرى بأنه أحق بتولي خلافة المسلمين. وفضلا عن هذه الصفة، فإن خلو النقود الفضية من إسم المهدي ولقبه يدل دلالة واضحة على التفرد بالسلطة وحصر الحكم في أسرته الكومية المؤمنية، ومن هنا يمكن القول بأن هذا الإجراء السلطوي ينم عن عبقرية ودهاء سياسي، يدل على ذلك ادعاؤه النسب العدناني القريشي الذي يؤهله لخلافة المسلمين.

2 ــ الديـنـــار[12] :

كان دينار عبد المؤمن مستدير الشكل من معدن الذهب، قطره حوالي 20 ملم. أما وزنه فكان يساوي 14 قيراطا، والقيراط يساوي ثلاث حبات من حبات الشعير المتوسط، أي : أن 14 قيراطا : (14 × 3 = 42 حبة) وتعادل حوالي 2.33 غرام من الذهب، ونصف ديناره طبقا لهذه النسبة المحدّدة، يكون وزنه إذن : (42 : 2 = 21 حبة من حبات الشعير المتوسط) وهي تعادل 1.16 غرام.

وإذا كان وزن الدينار الإسلامي الذي حدده مرسوم الإصلاح النقدي في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هو 4.25 غرام من الذهب، فإننا نلاحظ انخفاضا كبيرا في وزن الدينار المؤمني الذي أصبح يمثل أكثر من نصف الدينار الشرعي بقليل[13]. ولاشك أن هذا التدني في وزن النقود الموحدية في هذه الفترة المبكرة من تكوين الدولة الموحدية له ما يبرّره سياسيا واقتصاديا. وهذا الوزن يعتبر ابتكارا جديدا لم يكن معروفا من قبل في عالم المسكوكات الإسلامية عامة.

وأما التصميم الهندسي فيتكون من قطعة مستديرة الشكل من معدن الذهب، يزيّنها حلقتان؛ الأولى خطية والثانية منقوطة تتوسطها ثلاثة مربعات، اثنان خطيان والثالث منقط. وهذه الصورة الجديدة للدينار المغربي تجعل الباحث يتساءل عن الدوافع والأسباب التي كانت وراء هذا الابتكار الجديد، الذي يمثل اتجاها جديدا في تاريخ نظم السكة الإسلامية بشكل عام والمغربية بشكل خاص.

---

(12) الدينار العربي الإسلامي، مشتق من الكلمة اللاتينية (Dinarius Auriens)، وهذا المصطلح نفسه هو الذي عرفه البيزنطيون وتعاملوا به.

(13) كان دينار الزكاة يساوي 72 حبة من حبات الشعير المتوسط أي حوالي 4.25 غ.

فهل هناك من خلفية تاريخية يمكن الاستناد إليها في تفسير ذلك؟ وهل كان ذلك كرد فعل ضد المرابطين الذين كانت سكتهم مستديرة ؟ أم كان ذلك نتيجة حتمية لفكرة التوحيد، التي تعني الأصالة والتجديد، ونبذ التقليد والاقتباس ؟.

الواقع أنه من الصعب جدا إعطاء إجابة علمية مقنعة لأول وهلة، لأن ذلك يستوجب القيام بالبحث والتنقيب في تراث الموحدين الفكري والحضاري، وقراءة متأنية للمصادر التاريخية ! ونعتقد طبقا لبعض المعطيات التي توفرت لدينا، ومنها أن إقدام عبد المؤمن على تطبيق مبادىء المهدي بن تومرت في الميدان والداعية إلى نشر المذهب التوحيدي بالإقناع والقوة في كل بلدان المغرب الإسلامي، هذا فضلا عن محاولة القضاء على القوى السياسية التي كانت تتقاسم البلاد، ولتحقيق هذا المشروع الحضاري الجديد، كان عليه أن يأتي بالبديل في كل الميادين. وهنا تكمن أهمية هذا الابتكار الذي عبر بشكله ومضمونه المتميز عن عظمة هذا التوجه الفكري للموحدين، وسوف نناقش هذه المسألة لاحقا. وبعد أن تعرفنا عن شكل العملة الذهبية الموحدية، يتحتم علينا معرفة مضامينها الفكرية، حتى يتسنى فهم المبادىء والأفكار التي جاء بها عبد المؤمن بن علي.

كان الدينار الموحدي في عهد هذا الخليفة يعرف باسم الدينار المؤمني[14] نسبة إلى صاحبه، وتتألف نصوصه الكتابية من كتابتين إحداهما هامشية والأخرى مركزية من الوجهين، نفذت بطريقة الحفر البارز، بالخط النسخي الموحدي. ففي الوجه، كتابة هامشية تتألف من أربع عبارات دينية تسير عكس عقارب الساعة :

1 ـــ بسم الله الرحمن الرحيم
2 ـــ صلى الله على محمد
3 ـــ واله الطيبين
4 ـــ الطاهرين.

أما الكتابة المركزية فمن ثلاثة سطور أفقية متوازية تشير إلى الشهادتين :

1 ـــ لا إله إلا
2 ـــ الله محمد

(14) لمزيد من الإطلاع راجع : د. صالح بن قربة، **المسكوكات الإسلامية على عهد الموحدين...**، ص 281 وما بعدها.

3 ـــ رسول الله.

وفيما يتعلق بالظهر، فنقرأ على المضلعات :

1 ـــ أبو محمد عبد
2 ـــ المؤمن بن علي
3 ـــ أمير المؤمنين
4 ـــ الحمد لله رب العالمين.

الكتابة المركزية :

1 ـــ المهدي إمام
2 ـــ الأمة القائم
3 ـــ بأمر الله.

أما النصوص الكتابية المسجلة على نص الدينار المؤمني[15] فقد اختلفت عباراتها عن نصوص الدينار بعض الشيء، يتبين لنا هذا الاختلاف والتوافق فيما يأتي :

الــوجـــــه :

أ ـــ كتابة الهامش :

1 ـــ بسم الله
2 ـــ الرحمن الرحيم
3 ـــ صلى الله على محمد
4 ـــ خاتم النبيين[16].

ب ـــ الكتابة المركزية :

1 ـــ لا إله إلا
2 ـــ الله محمد
3 ـــ رسول الله

---

(15) نصف الدينار المؤمني صغير الحجم والوزن، قطره بين 14 و15 ملم، ووزنه بين 1.13غ و1.16غ.

(16) أول من استعمل هذا الشعار على النقود الذهبية المغربية هو أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي، على دنانيره المضروبة بالقيروان سنة 333هـ.

الظـــهـــــر :

أ ـــ كتابة الهامش :

1 ـــ أبو محمد عبد

2 ـــ المؤمن بن علي

3 ـــ أمير المؤمنين

4 ـــ الحمد لله رب العالمين[17].

ب ـــ الكتابة المركزية :

1 ـــ المهـــدي

2 ـــ خليفة الله.

ولاشك أن بعض هذه الصيغ والعبارات الدينية الجديدة سيختفي من السكة الذهبية الموحدية بعد وفاة عبد المؤمن بن علي سنة 558هـ/1162م. هذه هي النماذج التي ضربها هذا الخليفة طوال فترة حكمه، وفيما يتعلق بأجزاء الدينار الأخرى كالثلث والربع وغيرها فلم تصلنا منها نماذج تؤكد رواج أو عدم رواج أجزاء الدينار في المعاملات الاقتصادية، ومعنى ذلك أن الدينار ونصف الدينار والدرهم ونصف الدرهم سيشكلان مصدرا وثائقيا ومحورا أساسيا في دراستنا لشخصية عبد المؤمن.

ثانيا : خصائص شخصية عبد المؤمن بن علي :

في ضوء الدراسة التحليلية المستخلصة من نصوص السكة الموحدية، والتي كشفت عن مجموعة من الأبعاد والحقائق التي كثيرا ما أكدها المؤرخون القدامى والمحدثون، ومن بينها ما يمكن اعتباره مفتاحا للتعرف على شخصية عبد المؤمن بن علي بما انطوت عليه من أبعاد في النواحي السياسية والدينية والاقتصادية والفنية وغيرها.

1 ـــ الناحية السياسية :

كان عبد المؤمن بن علي ممن يحرصون على بلوغ أهدافهم باستمرار، ولا يحيدون عنها، ولما كان هدفه بعد وفاة المهدي بن تومرت ومبايعة جماعة الموحدين له البيعة

(17) استعمل هذا الشعار لأول مرة ككتابة نقدية على نقود الداعية الشيعي أبي عبد الله الصنعاني المضروبة بالقيروان سنة 296-297هـ.

الخاصة كخليفة سنة 524هـ/ 1130م والبيعة العامة حوالي سنة 528هـ/ 1132م، على أرجح الأقوال، هو نشر الدعوة وتعاليم الإمام بن تومرت ومواصلة مشواره، فإنه لم يلتفت للمنافع المادية بقدر ما كان يهتم بهدفه الأصلي في الميدان، وهو القضاء نهائيا على المرابطين وإزالة رسومهم من المغرب. ولتحقيق هذا الهدف قاد الموحدين منذ سنة 524هـ/ 1130م، وفق خطط حربية جديدة منتظمة، فتجنب باستمرار ملاقاة المرابطين في المناطق السهلية المنبسطة، ولذلك قوّى سلطته في سلاسل جبال المغرب الأقصى، الواحدة تلو الأخرى، انطلاقا من الأطلس الكبير ثم الأوسط ثم الريف، فالسلسلة الجبلية الواقعة جنوبي مدينة تلمسان[18]، ولذلك لم يخاطر بالترول إلى السهل، بل شق طريقه عبر الجبال بمهارة فائقة، وهنا تظهر هذه الأساليب جديدة غير مألوفة من قبل لأنها كانت تناسب ظروف الموحدين العسكرية. وهكذا وخلال سنوات من الصراع بين الطرفين اشتدت وتيرتها بين سنتي 534 و541هـ، أحرز النصر على المرابطين، توجت بسقوط مراكش عاصمة ملكهم سنة 541هـ/1143م.

تعتبر هذه السنة نقطة تحول كبرى في تاريخ المغرب وحضارته، ففيها تم إعلان الخلافة الموحدية كنظام سياسي جديد ذي أبعاد مذهبية وفكرية متميزة في إدارة الدولة ومفهوم الملك، وبعمله هذا يكون قد حقق حلم ابن تومرت في تأسيس خلافة تقوم على تطبيق نظريته ومبادئه التي ناضل من أجل نشرها[19].

وهكذا، فإن الفضل يرجع إلى عبد المؤمن بن علي في توحيد بلاد المغرب والأندلس تحت سلطة سياسية واحدة، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت حدود الخلافة الموحدية تمتد من حدود طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن الأندلس شمالا إلى الصحراء جنوبا. ومادمنا بصدد دراسة هذه الشخصية الفريدة، فلابد لنا في هذا النطاق من الربط بينها وبين تأسيس الخلافة الموحدية كنظام حكم جديد، وضرب السكة كرمز وشعار رسمي لها، والسكة بهذا المفهوم، تعتبر وثائق رسمية ووسائل إعلامية فعالة في نشر أفكار الدولة وتوجهاتها وشعاراتها، وهي إلى

---

(18) لوترنو، روجي، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني والثالث عشر**، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس، 1982، ص 61.

(19) جورج لابيكا، **السياسة والدين عند ابن خلدون**، ترجمة موسى وهبي وشوقي وهيي، دار الفارابي، بيروت، 1980، ص 177.

جانب ذلك، تمثل العملة الرسمية في المعاملات من بيع وشراء، ومؤشرا للحكم على قوة الدولة واقتصادها، وقد تكشف عن الضعف والفقر كذلك.

ولذلك تعتبر السكة من مستلزمات الدولة، فعن طريقها تتأكد شرعية الخلافة ومؤسسها، من خلال نقش اسمه وكنيته ولقبه عليها، ولتخليد هذا الحدث العظيم، فقد أصدرت دار السكة بمراكش كمّيات هائلة من النقود ذات التصميم الهندسي الجديد المتميّز عن شكل ومضامين النقود التي ضربها الحكام الذين تعاقبوا على حكم بلاد المغرب الإسلامي والأندلس قبل ظهور الموحدين. وجميع النقود التي ضربت في هذه الفترة المبكرة، سواء كانت فضية أو ذهبية تحمل إسم ولقب الخليفة عبد المؤمن بن علي «أمير المؤمنين»، غير أن الظاهرة التي تستوجب التوقف عندها، هي أن جل هذه النقود مجردة من تاريخ الضّرب، ولذلك لابد لنا إزاء هذه الظاهرة، من الاحتكام إلى المصادر التاريخية، التي أشارت إلى هذا الحدث وخصوصا تحديد المناسبة التي سمّي فيها عبد المؤمن باللقب الخليفي «أمير المؤمنين»، ومن بين هذه المصادر نذكر كتاب **«المعجب في تلخيص أخبار المغرب»** لعبد الواحد المراكشي الذي ذكر أثناء حديثه عن الحرب بين المرابطين والموحدين سبب تسمية عبد المؤمن بلقب «أمير المؤمنين» خلال الإعداد البشري والمعنوي لمعركة البحيرة 524هـ، حيث أمّر المهدي ابن تومرت على جيش الموحدين عبد المؤمن فخاطب الموحدين قائلا : «أنتم المؤمنون وهذا أميركم»[20]، فاستحق عبد المؤمن من ذلك اليوم لقب أمير المؤمنين. ونعتقد أن ذلك كان من بين الأمور التي شجعت هذا الرجل على نقشه على النقود أولا ثم إعلان نفسه خليفة للمؤمنين بعد فتح مراكش ثانيا. ومع ذلك، فإن مسألة تحديد تاريخ ظهور هذا اللقب على النقود تبقى معلقة ويصعب على الباحث إعطاء إجابة محددة فيها، بسبب خلو النقود الموحدية جميعها من تاريخ الضرب. لكن من وجهة النظر التاريخية، فقد فصل المؤرخون رغم اختلافهم حول السنة التي ظهر فيها عبد المؤمن رسميا خليفة للموحدين[21]، بعد البيعة العامة. وكيفما كان الأمر، فالذي يستشف من سير الحوادث ومن كلام المؤرخين، أن عبد المؤمن قد وفق في الوصول إلى خلافة الموحدين، التي أكد الإمام ابن تومرت على وجوبها وأحقيتها في الظهور كما يبدو

(20) عبد الواحد المراكشي، **المعجب...**، ص 192.

(21) من المؤرخين من ذكر سنة 526هـ ومنهم من ذكر 527هـ و529هـ.

ذلك من مخاطبته للصبيان : «إنما الله إله واحد، والرسول حق، والمهدي حق، والخليفة حق»[22].

وتظهر شخصية عبد المؤمن كما جسدتها النقود، في نظام الوراثة الذي أعلنه بعد تولي الخلافة بعدة سنوات ببيعة ولده الأكبر محمد بولاية العهد، إذ ليس هناك شك فيما للنقود (المسكوكات) الذهبية من أهمية خاصة في تشخيص ومعرفة الأحداث التي تتعلق بالفترة التي ضربت فيها... فالسكة هي الحكم إذا ما تناقضت الروايات والأقوال حول شخصية خليفة أو حاكم برز فجأة على مسرح الأحداث السياسية.

وقبل أن نعرض لهذا الحدث كما صورته النقود، لابد من الإشارة إلى التغير الذي أدخله عبد المؤمن في هيكل السلطة، إذ كانت هذه عند وفاة المهدي بن تومرت عبارة عن سلطة شيوخ مجموعات القبائل الذين تجمعهم مجالس مختلفة، فقام عبد المؤمن بنقل هذا الشكل من الحكم الجماعي إلى سلطة ملكية[23]. هذه السلطة الجديدة يتمتع فيها هو وأفراد أسرته بنفوذ قوي، والملاحظ أن عبد المؤمن قد نفّذ هذا التغير الجذري في السلطة من خلال مجموعة من الإجراءات والعمليات المتتالية[24]، لعل أهمها جميعا إقدامه على تعيين أحد أبنائه وليا للعهد، وقد شرح ابن الأثير تفاصيل هذه الخطوة الجريئة بقوله : «في هذه السنة أمر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده، وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر الهنتاتي أن يلي عمر الأمر بعدِ عبد المؤمن، فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده، أحب أن ينتقل الملك إليهم، فأحضر أمراء العرب من هلال زغبة وعدي

(22) أبو بكر البيدق، **كتاب أخبار المهدي بن تومرت**، ص 36.

(23) أحمد بدر، **تاريخ المغرب والأندلس**، دمشق، المطبعة الجديدة، 1981، ص 244–245.

(24) بدأت هذه العملية بإدخال القبائل العربية البدوية إلى المغرب الأقصى، بعد أن كانت مضاربها لا تتجاوز المغرب الأوسط (الجزائر) وخاصة في منطقة بوسعادة، ولما هزمهم عبد المؤمن أقنعهم بدخول المغرب طوعا أو أخذ رهائن منهم ــ ويبدو أن السبب الذي تقدمه الروايات هو الاستعانة بهم للجهاد في الأندلس ــ ولكن الحقيقة غير ذلك فقد ظهر الخلاف واضحا بين شيوخ الموحدين عقب الحملة التي قضت على الحماديين سنة 547هـ، حيث أظهر أخوان من إخوة المهدي مع شيوخ آخرين عداوة سافرة لعبد المؤمن. مما جعله يحتمي بهذه القوة، وهكذا بعد أقل من ثلاث سنوات من اعتماده على هذه القوة خطا عبد المؤمن خطوة جريئة فعلا نحو حصر الحكم في أسرته وذلك بمبايعة أحد أبنائه للعهد.

وغيرهم إليه، ووصلهم وأحسن إليهم، ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له : نريد أن نجعل وليّ عهد من ولدك، يرجع الناس إليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم إكراما لعمر الهنتاتي لعلو منزلته في الموحدين وقال لهم : إن الأمر لأبي حفص عمر، فلما علم عمر بذلك خاف على نفسه، فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه، فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد، وكتب إلى جميع البلاد بذلك، وخطب له فيها جميعها، فأخرج عبد المؤمن في ذلك اليوم من الأموال شيئا كثيرا»[25]. وبعد هذا الإجراء، قام عبد المؤمن بتعيين أولاده على الأقاليم والولايات، تمهيدا للاستئثار بالسلطة نهائيا.

بعد إعلان عبد المؤمن ولاية العهد لابنه أصدر نقودا تخلد هذا الحدث وتحمل اسم ولي العهد «أبو عبد الله محمد» (551-558هـ). وقد كانت هذه النقود الذهبية مثار جدل بين علماء النّميات الذين أشكل عليهم الأمر في معرفة اسم صاحبها، فنسبوها خطأً إلى محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين الذي حكم بين (595-610هـ)، على أساس أنها حملت اسمه وكنيته ولقبه : «الأمير الأجل أبو عبد الله محمد»، وقد اختلط الأمر على هؤلاء العلماء لتشابه وتماثل اسم الأميرين، أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن وأبو عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور، دون البحث والتحقيق في الظروف والملابسات والمناسبة التي ظهرت فيها هذه النقود وعليها هذا اللقب الفخري المركب «الأمير الأجل».

وكانت حجة هؤلاء الباحثين في إصدار هذا الحكم، ما ورد بشأن هذه المسألة في المصادر، التي تذكر بأن أبا يوسف يعقوب المنصور كان يتعجل البيعة لولده ووليّ عهده «أبو عبد الله محمد» لضمان ولاية العهد له، ولاسيما الوثيقة المتضمنة للبيعة التي كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولي العهد أبي عبد الله محمد وذلك في أوائل شهر ذي القعدة من سنة 588هـ[26].

أما نصوص هذا النقد فهي كالتالي :

---

(25) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت، 1965، ج 11، ص 211.

(26) نقلا عن محمد عبد الله عنّان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** (القسم الثاني)، ص 190-191.

الـوجــــــه :

أ ــ الهـامــش :

1 ــ وإلـهـكـم

2 ــ إله واحـد

3 ــ لا إله إلا هو

4 ــ الرحمن الرحـيم.

ب ــ المـركـز :

1 ــ بسم الله الرحمن الرحيم

2 ــ لا إله إلا الله

3 ــ محمد رسول الله

4 ــ المهدي إمام الأمة.

الظـهـــــر :

أ ــ الهـامــش :

1 ــ الأمير الأجل

2 ــ أبو عبد الله

3 ــ محـمـد بن

4 ــ أمير المؤمنين[27].

ب ــ المـركـز :

1 ــ القائم بأمر الله

2 ــ الخليفة أبو محمد

3 ــ عبد المؤمن بن علي

4 ــ أميـر المؤمنيـن.

والحجة في كتابة مركز الظهر التي تؤكّد بما لا يدع مجالا للشك أنها لأبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن بن علي ولي عهده يدل على ذلك أن القائم بأمر

(27) تعتبر عبارة (ابن أمير المؤمنين) بالسطرين 3–4، المفتاح في التعرف على صاحب النقد، وهي حجة قاطعة في نسبة جميع النقود التي تحمل هذه الخصائص إلى محمد بن عبد المؤمن، الذي يعتبر أول من تلقب بـ(الأمير الأجل) ومما يؤكد هذه النسبة ما سجل بكتابة مركز الظهر والتي تشير إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي.

الله (أي ناشر الدين) هو عبد المؤمن نفسه، كما أن عبارة (ابن أمير المؤمنين) الواردة بكتابة هامش الظهر، (السطر الرابع)، تظهر لأول مرة على السكة الذهبية الموحدية.

وهنا تظهر معالم شخصية عبد المؤمن القوية في التسمية بلقب (الخليفة) بالسطر الثاني من الكتابة المركزية، مما يؤكد فكرة تطلع هذا الخليفة إلى حكم العالم الإسلامي بدلا من الخليفة العباسي، الذي أصبح عاجزا عن تولي هذا الأمر إذ كان يرى نفسه أنه أحق بحكم العالم الإسلامي وحماية الحرمين الشريفين[28].

وتظهر عبقرية عبد المؤمن السياسية في أنه نجح في توحيد المغرب الإسلامي وأجزاء من الأندلس لأول مرة في التاريخ، بعد أن كانت أجزاؤه موزعة بين قوى سياسية مثل الزيريين والحماديين والمرابطين، وأصبحت تابعة للخلافة الموحدية في مراكش. ويدعم هذا التوحيد السياسي ما شيده من دور السكة التي انتشرت على مساحة واسعة في المغرب والأندلس، كان عددها أكبر من الفترة المرابطية. ومن آثار شخصية عبد المؤمن أن اسمه وألقابه الخلافية مثل «القائم بأمر الله» و«الخليفة» و«أمير المؤمنين»، بقيت ثابتة على السكة الذهبية إلى نهاية الدولة سنة 668هـ/1269م.

2 ـــ الناحية الدينية :

يعتبر الخليفة عبد المؤمن بن علي معلمة من معالم السياسة في المغرب الإسلامي، ويعتبر عمله في مجموعه تكملة للعمل الذي قام به ابن تومرت في نشر مبادئه، وبناء دولة على أساسه، ونجح في توسيع سلطان حركة الموحدين إلى تلك الحدود التي ذكرناها، بعدما كانت منحصرة في جبال الأطلس الكبير عند وفاة المهدي، ومع أنه لم يتم له تحقيق ما نادى به المهدي بنشر عقيدة التوحيد في ديار الإسلام كلها، فإنه أوصل سلطان الدولة إلى حدود لم تتجاوزها إلا قليلا طوال مدة حكمها وخلال مراحل ازدهارها بعد وفاته، وفضلا عن ذلك فقد كان عبد المؤمن وفيا لمبادىء ابن تومرت، يدل على ذلك استمراره في حفظ مبادئه ويأمر الناس بحفظها، حتى أن مجموعة من رسائل المهدي، وهي **أعز ما يطلب**، إنما جمعها

(28) د. أحمد بدر، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص 244.

عبد المؤمن نفسه، ويتجلى عمله في ميدان العقيدة ما قام به في سبيل نشر العقيدة الأشعرية.

ولكن هناك من الباحثين المعاصرين[29] من يرى أن عبد المؤمن لم يكن وفيا لتعاليم المهدي بن تومرت إطلاقا، فعلى الرغم من أنه كان ورعا وشديد الالتزام بمبادىء المهدي، فإنه لم يعمل سوى على تقوية جهاز الدولة وتوسيع رقعتها.

ومهما يكن من أمر، فإن اتهام هذا الباحث لعبد المؤمن بالتراخي في خدمة مبادىء أستاذه الأول، فإن الواقع التاريخي المدعم بالبيانات المتوفرة، وكذا الأعمال المعتبرة التي حققها في ميدان إصلاح العقيدة ونشر مبادىء التوحيد، كفيلة بأن تبعده عن هذه التهمة الواهية، وتبلورت النتائج التطبيقية لهذا التوجه الجديد فيما نقشه عبد المؤمن بن علي على النقود من نصوص دينية وشعارات سياسية معبرة، وستكون لنا وقفة مع هذا الموضوع بعد حين. وفي ضوء الجهود التي بذلت والنتائج التي تحققت في عهد هذا الخليفة وخلفائه من بعده، يمكن القول بأن الفكر العقدي في المغرب الإسلامي قد عبر على عهد الموحدين عن هموم دينية وسياسية جديدة.

وهذا يعني حسب مذهب ابن تومرت، بأن تصحيح العقيدة لا يتحقق إلا بنبذ التقليد والعودة إلى الأصول انطلاقا من قراءة عقلية للنصوص المقدسة التي تتحدث عن الله تعالى والمنظمة لعلاقة الإنسان به، هذه جملة من الأسباب دفعت بابن تومرت إلى إنتاج خطاب عقدي وإلى العمل على نشره بالدعوة وبالأساليب العسكرية، وهو ما طبع الدعوة أو الحركة الموحدية بأنها ثورة دينية وثقافية عبرت عن مرحلة أساسية من مراحل التطور الحضاري للمغرب الإسلامي[30]. ولهذا خصص ابن تومرت أجزاء من كتابه «**أعز ما يطلب**» وممارسته السياسية لتجسيد عقيدة قوامها التوحيد والتنزيه المطلقين. وذهب إلى أبعد من ذلك فقرّر وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة، ثم قرّر أن إثبات العلم بالتوحيد لا يكون إلاّ عن طريق العقل. هذه الأفكار والمفاهيم الجديدة في ميدان العقيدة، تولى مهمة

---

(29) روجي لوتورنو، **حركة الموحدين في المغرب...**، ص 67.

(30) عبد الواحد العسري، «الخطاب العقيدي بين ابن تومرت وابن الخطيب»، **مجلة كلية الآداب بتطوان**، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، العدد 2، 1987، ص 430.

نشرها الخليفة عبد المؤمن بن علي وذلك باستعمال النقود بما تحمله من نصوص وآيات وشعارات وجمل دينية تحيل إلى مضامين العقيدة التومرتية لما للنقود من تأثير مباشر على المتعاملين بها، ولأن النقود كانت من الوسائل الإعلامية والدعائية في ذلك الوقت، تساهم في عملية التواصل بين أفراد المجتمع حكاما ومحكومين لا فرق بين خاصتهم وعامتهم، وهذه المسألة بالذات هي التي دفعت عبد المؤمن إلى انتقاء عبارات وآيات معبرة عن الاتجاه الديني الجديد، ولتدعيم وإنجاح هذه الوسيلة وتحقيق الهدف المنشود، أسس العديد من دور السكة في جميع ممتلكات الدولة بالمغرب والأندلس لتتولى إنتاج الكميات الهائلة من النقود لتسهيل عملية البيع والشراء من جهة، ومن جهة ثانية لتمكين الناس من القراءة والإطلاع على مذهب الدولة ومبادئها.

كان عبد المؤمن يعي تمام الوعي أهمية النقود في التواصل، لذلك اختار من الشعارات المنقوشة على النقود الفضية والذهبية في شكل عبارات سلسة مرنة يسهل فهمها واستيعابها، وبذلك ساهمت النقود كوسائل إعلامية مقروءة في نشر الوعي حول مفهوم التوحيد.

ومن مظاهر سياسته الدينية، اهتمامه بالجيل الناشىء الذي يتوقف عليه مستقبل الدولة، فقد أشار ابن القطان إلى أن «من مكارم عبد المؤمن حضه الناس على العلم وإرادته لهم ولبنيهم ما يريده لنفسه ولبنيه... واستدعاؤه الصبيان الصغار من أبناء إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إلى حضرته ليعلمهم ويحفظهم القرآن والحديث»[31].

ويضيف صاحب كتاب «**الحلل الموشية**» أن هؤلاء الطلبة كانوا يدربون على ركوب الخيل والرمي بالقوس وعلى السباحة والتجديف في بحيرة صنعها الخليفة خارج بستان، وأن عددهم بلغ ثلاثة آلاف طالبا كأنهم أبناء ليلة واحدة[32].

---

(31) ابن القطان، **نظم الجمان** ــ أبو محمد حسن بن القطان الكتامي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 179.

(32) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق علوش، الرباط، 1936، ص 125.

3 ــ الناحية الاقتصادية :

الراجح أن عبد المؤمن بن علي منذ اعتلائه عرش الخلافة الموحدية في مراكش، قد رأى أن ضرب المسكوكات كان موزعا بين حكام متعددين، من أمثال المرابطين في المغرب الأقصى والأندلس، والحماديين والزيريين في المغربين الأوسط والأدنى (إفريقية)، والسكة كما يذكر ابن خلدون في مقدمته أهم شارة من شارات الملك والسلطان «وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات، ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة»[33]. ويستطرد ابن خلدون مشيرا إلى استحداث الموحدين لسكة جديدة بقوله : «ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلا وتحميدا، ومن الجانب الآخر كتبا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدين، وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد»[34].

والسكة من حيث دلالتها على المشروعية لا تقل عن ذكر إسم الخليفة في الخطبة يوم الجمعة، لذلك فإن عبد المؤمن بعد نجاحه في توحيد المغرب الإسلامي وأجزاء من الأندلس تحت سلطته العليا، عمل على توحيد النظام النقدي للمغرب الإسلامي. أما الدوافع الاقتصادية لذلك فتكمن في انعدام وجود عملة ذهبية مغربية موحدة حتى عهد عبد المؤمن بن علي رغم من مضي خمسة قرون ونيف. وهكذا تعامل المسلمون في المغرب الإسلامي بدنانير دول عديدة في المغرب والأندلس مختلفة الأحجام والأوزان[35]، وارتبطوا بأسعارها وأوزانها وعيارها. ولما كانت الدنانير هي العملات الرئيسية في الاقتصاد المغربي، رأى عبد المؤمن أنه لا يمكن أن تستمر الأوضاع الاقتصادية والأنظمة النقدية على هذه الوتيرة،

(33) ابن خلدون، **المقدمة**، ج 2، ص 809.

(34) ابن خلدون، **نفس المصدر**، ص 810.

(35) كانت هناك عملات كثيرة تتجاذب العملات النقدية والاقتصادية في بلدان المغرب الإسلامي في العصور الوسطى مثل النقود الأموية بالأندلس، والإدريسية ثم المدرارية بالمغرب الأقصى، والأغلبية ثم الفاطمية بإفريقية التي استمرت قاعدة للتعامل عند الزيريين، هذا فضلا عن الدراهم والدنانير العباسية ثم المرابطية.

ففكر في إيجاد بديل يكون في مستوى هذا الحدث، ولن يكون ذلك إلاّ بتحرير النظام الاقتصادي المغربي من هذه الفوضى النقدية المتمثلة في كثرة العملات واختلافها. وبالرغم من هذه الدوافع السياسية والاقتصادية والدينية، فإن الخليفة عبد المؤمن كان يقدّر تماما خطورة الميدان النقدي إذا استمرت الأحوال على ما كانت عليه.

الواقع أن هذا الموضوع من أهم الموضوعات الهامة المرتبطة بدراسة السكة الموحدية، ولن نتطرق للتفاصيل، ولكن سنحاول أن نصل إلى بعض الحقائق مباشرة. لعل هذه المحاولة الناجحة ستبقى مرتبطة بشخصية الخليفة عبد المؤمن، موحد النظام الاقتصادي المغربي على أسس نقدية موحدة، وقد شمل هذا التنظيم المالي كل أرجاء الدولة الموحدية.

ومن آثار هذه السياسة أنه أمر بتكسير أراضي افريقية والمغرب سنة 555هـ/1160م. «وفي هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب، وكسّر بلاد إفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ[36] والأميال[37] طولا وعرضا، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعارى والأنهار والسبخات والطرقات والحزون، وما بقي قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب»[38]. يؤرخ هذا النص لأول محاولة لجمع الضرائب بعد عملية مسح شملت كل الأراضي الخاضعة للدولة الموحدية.

وهذا المشروع الفريد يعتبر تكملة للمشاريع الموحدية التي وضع قواعدها الأولى الخليفة عبد المؤمن بن علي. ولكن الظاهرة الملفتة للنظر في هذا الإجراء هو فرض ضريبة الخراج، بدل العشر. وحتى لو افترضنا بأن كلمة (الخراج) قد تشير إلى الضرائب عامة، فإن الذي يثير التساؤل ويستوجب التوقف، هو أن المؤرخ ابن أبي زرع الذي أورد هذا النص، يتبعه بذكر كمية هذه الضريبة في

(36) الفرسخ يساوي حوالي 5544 متر.

(37) الميل يساوي 1500 متر أو 1600 متر.

(38) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973، ص 188-189.

الأندلس عندما تحدث عن جماعة أعفوا منها في عهد عبد المؤمن : «وحرّرت أملاكهم، فلم تزل محرّرة إلى انقضاء أيامهم، فليس في أملاكهم رباعة وجميع بلاد الأندلس مربعة»[39]. ومهما يكن من أمر هذه المسألة، فإنها لا تعدو أن تكون الكلمة خراجا تصل نسبته إلى الربع، وهذا يتفق مع اعتبار الموحدين لسكان البلاد التي خضعت لسلطانهم كغير مسلمين ماداموا غير موحدين، كما أنه ينسجم مع معاملتهم للبلاد التي قاومتهم في قتل الأعداد الكبيرة ورفض منح الأمان لمن يستسلم قبل السقوط. وليس معنى هذا أنه كانت للموحدين سياسية ضرائبية ثابتة، تطبق على الجميع وخلال مراحل التاريخ الموحدي، بل كانت مرتبطة بموقف السكان من الموحدين[40].

ومن الأمثلة على هذه السياسة، ما حدث في تونس التي لم تصمد في مقاومة الموحدين إلاّ أياما، حيث خرج إلى عبد المؤمن سبعة عشر رجلا من أعيان البلد يسألونه الأمان لأهل بلدهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم، فإنه لم يمنح ذلك إلاّ لهؤلاء الأعيان لمبادرتهم إلى الطاعة، أما بقية أهل البلد فقد أمنهم في أنفسهم وأهاليهم وقاسمهم على أموالهم وأملاكهم، وبعد أن نفذ أمناؤه مقاسمة الأموال، أخذ من سكانهم أجرة عن نصف مساكنهم[41].

والملاحظ أنه كانت للحروب الدامية بين المرابطين والموحدين أثرها الواضح على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، فاضطربت الحياة الاقتصادية اضطرابا لا نظير له. فغلت الأسعار وقلت الأقوات وساد الفراغ والخوف وانتشر اللصوص في الطرقات، لانعدام الأمن والاستقرار. ولم تنته هذه الفوضى بالقضاء على المرابطين وقيام دولة الموحدين، بل انتشرت الثورات ضد الموحدين في كل ناحية، ولم يستطيعوا إخمادها وتخليص البلاد منها إلاّ سنة 549هـ/ 1154م على يد عبد المؤمن، ومنذ ذلك التاريخ عاد الأمن والاستقرار فأخذت الحياة الاقتصادية تنتعش وتحسنت أحوال الرعية، والمعروف أن الحياة في المغرب تقوم أصلا على الفلاحة،

(39) نفس المؤلف والمصدر، ص 189. ويبدو أن هناك خلطا في كلام ابن أبي زرع بين فرض الخراج وطريقة جبايته، والإشكال المطروح هو أن معظم المصادر والمراجع تسمي كل ما يجبى خراجا إلاّ الزكاة.

(40) د. أحمد بدر، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص 247.

(41) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 64–65.

حتى إن ابن عبدون يقول في هذا الشأن : «فالفلاحة هي العمران.... وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام»[42].

4 ــ الناحية الفنيـة :

إذا كنا قد أتينا على مناقشة أهم الأبعاد في شخصية عبد المؤمن بن علي، فهناك من أبعاد ونواحي أخرى لم نشر إليها بعد، والتي لا تقل أهمية عما سبقها، ومن بينها البعد الفني الذي لم يلق هو الآخر اهتماما من قبل الدارسين ومؤرخي الفن، على الرغم من أهميته في مجال دراسة الطرز الفنية والمعمارية، التي اقترن ظهورها ــ كرؤية وكأسلوب ــ بالموحدين[43]. ومن بين تلك الأساليب الفنية الجديدة والتي ترتبط بشخصية عبد المؤمن، ابتكار الشكل الهندسي المربع للعملة الفضية الموحدية، لأول مرة في تاريخ المسكوكات الإسلامية، يدل على ذلك أن جميع النقود المتداولة في العالم الإسلامي شرقه وغربه إلى ذلك الوقت (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، كانت مدوّرة الشكل تتألف من كتابتين هامشية ومركزية في العهد الأموي، ثم كتابتين هامشيتين ومركزية في العهدين العباسي والفاطمي. ولكن بمجيء الموحدين اختفى هذا الأسلوب الصناعي والفني في سك النقود، وحل محله ابتكار الشكل المربع المتميّز بكتابتين مركزيتين من الوجه والظهر، وفي هذا الإطار نلاحظ بروز شخصية الخليفة عبد المؤمن الذي يرجع إليه الفضل في استعمال الخط النسخي المغربي في تنفيذ نصوص الدرهم المربع وأجزائه، فضلا عن استعماله في الدنانير الذهبية، استعمالا يتميّز بالجدة، ويتضح الأسلوب الجديد في وحدة العبارات والآيات القرآنية، ويدل على هذه الروح الفنية التي بلغها الخطّاط أو الفتّاح الموحدي كما تسميه المصادر، تلك العبارات أو الجمل الدينية المنقوشة على الدراهم، والمتميّزة بانسجامها وتماثلها، والمجال لا يتسع لذكر تفاصيل هذه الظاهرة الفنية.

---

(42) ضمن **ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة**، نشر ليفي بروفنصال، القاهرة، 1955.

(43) لمزيد من التفاصيل راجع : د. صالح بن قربة، «علم التّميات على عهدي الموحدين والمرينيين»، (بحث قدم في الندوة القومية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب)، بغداد، 1989، (1–68)، ص 8–7. ومحمد المنوني، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1950، ص 100 وما بعدها.

إن هذا التوحيد بين الشكل والمضمون كان منطلقا وأساسيا في مختلف النواحي السياسية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية. وهكذا يمكن القول بأن الموحدين منذ عهد مؤسس دولتهم قد حققوا هذه الوحدة الفنية الإسلامية عبر دولتهم الواسعة، فامتزجت فنون الأندلس ومصر والعراق بغيرها من الفنون المحلية الإسلامية كالفن الزيري ـــ الحمادي والمرابطي بالفن الموحدي الجديد. ويكفي أن نذكر في هذا المقام كتجسيد لهذه الوحدة الفنية مئذنة الكتبية، التي كانت النموذج الذي احتذى به المعماريون وظهر بصورة أوضح في المنارات الثلاث : الكتبية في مراكش وحسان بالرباط والجيرالدا في إشبيلية.

ويدل الاكتفاء ببناء مئذنة واحدة في مساجد بلاد المغرب الإسلامي على وحدة المذهب الديني الذي تمسك به المغاربة وهو المذهب السني المالكي، ولا يتسع المجال للحديث عن منشآت الموحدين ومؤسساتهم في عهد الخليفة عبد المؤمن، والتعرض لفلسفة الفن والروح التي امتاز بها الفنان الموحدي في إنجاز أعماله الفنية والصناعية.

الحِصارة بمدينة سلا :
آدابها وأدواتها ورجالها ودورها
في المجتمع حتى منتصف القرن العشرين(*)

مصطفى بوشعراء
باحث بالوثائق الملكية بالرباط سابقا

هي حرفة يدوية تقليدية لصنع الحصائر، ملفقة من السَّدى واللُّحْمة، وصاحبها يدعى : الحصَّار، ويصوغ العامة وأهل المهنة اسم مصدرها صياغة شلحية أمازيغية فيقولون : تاحَصَّارت، مثلما يقولون للنِّجارة والحِدادة : تانَجَّارت وتاحدَّادت. أما مكان نسجها فهو الطِّراز باللغة الفُصحى أو الدّراز بالتعبير العامي الذي يقلب الطاء دالاً، وهما حرفان نِطعيان مخرجهما واحد.

لهاته الصناعة مواد وأدوات مخصوصة وتقاليد وأصول مرعية. وسأعالج أمرها بالحديث عن مواد الصنعة وأدواتها، وأنواع الحُصُر واستعمالاتها، ونظام الحرفة وإنتاجاتها، ومصير الحِصَارة ودواخلها، مستعيناً في ذلك ببعض التصانيف القليلة والروايات والسماعات والمشاهدات من أهل الحرفة القاطنين خاصة بمدينة سلا، سواء منهم الأحياء أو الأموات من قبل، وخاتماً بإبراز الدور الريادي الذي وصف به بعض الحصارة وبملحقين في الموضوع.

* * * *

1 ـــ مواد الصنعة وأدواتها :

تتركب الحصيرة من سدىً ولُحمة، وتزين وتستصلح موادها بالغسل، و«الإقامة» (أي : ليقامة في النطق الحرفي)، من صباغة وكَبْرَتَة وتشميس. الإقامة

(*) هاته الدراسة من اللواتي لم يطلع عليها فقيدنا الفقيه محمد المنوني رحمه الله، فلا يسعني إلا إهداؤها لروحه.

مشتقة من فعل أقام الشيء إذا أتمه. واللحمة تكون بالسّمار (المسمَّى أحياناً الدِّيس). وأما السدى فهو بالقنَّب تارة أو بالدَّوْم تارة أخرى وهو يمتد طولاً، بخلاف اللحمة الممتدة عرضاً.

السَّمار (أو السّمار بتسكين السين وشدها في لسان أهل الحرفة) نبات عشبي من فصيلة الأسَلِيّات، ذو سيقان طويلة ومنتصبة، ومكانه هو المستنقعات والأراضي الرطبة. كان السمار غزيراً بمرجات قبيلة بني أحسن المجاورة لمدينة سلا قبل استصلاحها، وكانت له مْشاعر (أي منابت) بهاته الناحية مثل مْشاعر الرملة (قرب مركز سيدي يحيى بالغرب)، وكان صنفه ممتازاً وجيداً، لكن أثره انقطع اليوم وانقرض بتجفيف المرجات الحسناوية التي كانت مساحتها تناهز ثلاثمائة ألف 300.000 هكتار. كما كان سمار زمُّور (نواحي تيفلت وعلال البحراوي) جيداً، لكنه كان دون ما قبله. وكان بالحياينة (إقليم تاونات) وبالشاوية سمار لكل واحدة من هاتين القبيلتين، وكل السمار المتقدم كان يدعى الحُرّ، وكان صالحاً لحصيرة الخيط أو القنب.

ينقسم السمار عدة أنواع : السمار الحُرّ المشار إليه آنفاً، ثم سمار مِيرَة وهو دون الحر ويصلح لحصيرة الخيط وحصيرة الدوم معاً، ويوجد بمرجة سيدي بوغابة قرب مهدية بين سلا والقنيطرة، ثم السمار البَكَري وهو غليظ وموجود بالمرجة المذكورة. والنوع الرابع كان ينبت بنواحي ماسّة بسوس، وهو غليظ أيضاً مثل البكَري، لكنه كان أجوف. وكلا النوعين الأخيرين يصلح للفراش وللتغليف ولصنع حُصُر الشريط أي الدَّوْم.

كان الحصارون السلاويون يشترونه من مناطق إنتاجه بالجملة ببني أحسن وزمور، ثم يخزنونه ويجففونه تحت الشمس بحي الرمل خاصة خارج باب بوحاجة، ولما انتشر العمران بالحي المذكور أخذوا ييبسونه في أماكن أخرى مثل سطوح الدرازات.

فإذا حان وقت خدمته غسلوه بأنفسهم بصهاريج داخل الدراز أو كلفوا غسالة السمار (وهم أصحاب مهنة مرتبطة بالحصارة) بفعل ذلك. وفي عشية كل يوم خميس أو صباح يوم كل جمعة يكعبون السمار في البراميل. إذ التكعاب عملية ضرورية يبدأونها بتفريش «حَلْقات» أي قبضات من السمار داخل ما يدعونه

بالبرميل وهو عبارة إما عن وعاء خشبي علوه نحو المتر والنصف وقطره نحو المتر، وإما عن حفرة مبنية في مثل الحجم المذكور. وتوضع هاته الحلقات رقيقة وشفافة ومستديرة حول باطن البرميل، ثم يتصل ترتيب الحلقات من السمار وذلك من القعر إلى الفوهة، بينما يترك الوسط فارغاً من الحلقات ليجعل فيه وعاء أو مجمر توقد فيه نار خامدة تحرق مسحوق الكبريت، بعد تغطية البرميل أو الحفرة تغطية كاملة عند إقفال الدراز طيلة يوم العطلة الأسبوعية يوم الجمعة حيث يكون المحل فارغاً من المستخدمين. ومن شأن الكبريت أن يلين السمار وينشفه ويزينه، وذلك بنفاذه إلى طبقات حلقاته وتخلله بها ساعات طويلة.

والمعلم صاحب الطراز هو الذي يتولى عادة تنقية السمار أمام باب محله، فهو يصفيه وينخِّلُه وينزع من القبضة التي بين يديه ما فيها من طفيليات ومن سمار رديء. وبذلك أتمم وصف الإقامة واللحمة المشار إليهما آنفاً.

أما السَّدى فيكون كما قدمنا بالقنب المفتول لحصيرة الخيط تارة أو بالدوم المفتول لحصيرة الشريط تارة أخرى.

حصيرة الخيط تسدى خيوطها من القنب الهندي الأصل الذي ينبت في البلدان المعتدلة والباردة، وكان الشراط يفتله ويبيعه للحصارين وغيرهم بقياس يدعى «المْدَجَّة» (أي المَذْجة) والكبة إلى أن صارت المعامل العصرية تنتجه اليوم بالمغرب وتبيعه بوزن الكيلو.

أما حصيرة الشريط فهي مصنوعة السدى من سعوف الدَّوْم الذي هو من جنس شجر من فصيلة النخليات، ساقه متشعبة، وينبت بالخلاء، فيجنيه أهل البوادي ويصنعون من برمه أشياء كثيرة، من جملتها الخيوط التي يبيعونها بعيار يدعى الكافَّة (أي الكَفْأة) مطوية بطيات مستطيلة عكسا وطرداً ومن جهة إلى جهة، وكل طية تقارب المتر.

تبدأ السداوة بإدخال «المتعلم» الخيوط ـــ قنبية كانت أو دومية ـــ تحت خشبة طويلة وملساء تدعى أحيانا البالو، ومن هناك يذهب لإدخالها في ثقوب القالب الخشبي (الذي هو عبارة عن خشبة طويلة على قدر البالو ولكنها أقل غلظا منه وذات ثقوب رقيقة ودقيقة ومتعددة كثيراً) ومنها إلى الخشبة الثانية (أي البالو الثاني) الموجودة في الطرف الآخر من الدراز، وبعد ذلك يعود إلى القالب فالبالو

الأول فالقالب فالبالو الثاني إلى أن تنتهي السداوة حسبما يراد لها من طول وعرض، وكل هاته الأخشاب الثلاثة (القالب والبالوان) يدعى المرمّة.

يشرع أهل الحرفة في صنع الحصيرة، فيجلس أمهر الصناع فوق خشبة متحركة بأعلى المرمة، ويدعى القوالْبي، وبجانبه صانع آخر يسمى البْنَاوْصي، بينما يقعد فوق خشبة أخرى أمامهما في الجهة السفلى متعلم أو متعلمان يدعى كل واحد منهما التحايتي، وينسج جميع هؤلاء العمال ــ بين القالب والخدمة المصنوعة بأعلى المرمة ــ عدة سمارات مضاعفة بين الخيوط القنبية أو الدومية على هيأة مخصوصة، بحيث يضغط بأصابعه على خيوط لتنحدر ثم على أخرى لتعلو حتى يتسنى للسمار الدخول بين الخيوط، وذلك من الأوْصال إلى الحاشية. فإذا أتم كل واحد عمله دفع التحايتي القالب إلى القوالبي ليدق به المصْيدة (أي كل ما تم نسجه في تلك اللحظة) دقاً متصلا ثم يرده إلى التحايتي الذي يعيد هو ومن معه ومن هو أمامه عملاً آخر مثل المصيدة الأولى، وهكذا إلى نهاية الحصيرة.

* * *

2 ــ أنواع الحصائر واستعمالاتها :

الحصيرة جزء من متاع المنزل والمسجد والضريح والزاوية والمصلَّى، فهي حصيرة ما امتدت أفقية فوق أديم الأرض، وهي حَيْطي إذا ما قامت عمودية على الجدران والسواري وستائر المصلَّى. الحصيرة أقصر عمراً من الحيطي فهي معرضة للبرودة، ولا تزيد في الغالب عن سنتين لأنها تخشى البلل، هذا إن كانت متقنة، بخلاف الحيطي الذي يغطي الجدران ولا يتَّصل بالرطوبة، فتعمّر حتى عشر سنوات.

الحصيرة صالحة لتكون بساطاً للصلاة، ولوضع الأقدام عند النزول من السرير، وللنوم عليها، ويجعل الصغير منها اليوم تحت الصحون في المطاعم العصرية، والمتوسط منها على عتبات الأبواب.

كانت تقاس وتباع بالدكاكين والطرازات بالبْياسا (الوحدة أو القطعة) أو بالقالة أو الذراع طولا، إلى أن صارت تشترى بالمتر المربع، ونادراً ما كانت تصدر إلى الخارج.

يروي السلاويون أن حصيرة الخيط لا تصنع متقنة وجيدة إلا بمدينتهم، وكانوا مع ذلك يخدمون حصائر الشريط أي الدوم مثل صناع مدن أخرى كمكناس ومراكش وآسفي والصويرة، فيتخذونها من المادة الخام المتوفرة لديهم محلياً.

كان ثمة «شُغْل الوصيّة» وهو العمل الذي يطلبه زبون معلوم لأجل معلوم وبثمن معلوم وبوصف معلوم، وكان هناك «الشغل السوّاقي» الذي يصنع لعامة الناس وجمهور المستهلكين، وكان أرخص ثمناً من الشغل الأول الذي هو من اختصاص عمال «رْقَايْقِيين» أي مهرة بارعين، ولاسيما إذا كانوا خيايطيين مقارنة مع الصناع الشغايليين الشرايطيين العاديين.

ولايزال أهل الحرفة وعامة الناس يثنون خيرا ويكنون التبجيل والاحترام لصناع ماهرين وينعتونهم بلفظة «عَزّي» قبل النطق باسمهم المجرد : عزي فلان. ومن الصناع المجيدين بسلا صدر القرن العشرين، الحاج محمد الصحراوي والحاج أحمد التّسطاوني، ثم الحاج عبد الله الشاوي المتوفي أوائل القرن المذكور ومعاصره حمو بن مالك. وبعد الأخيرين نجد الحاج علال جلزيم والحاج علال السبيطي ومحمد بوشعراء المدعو نْصِيِّص والمختار التازي وأخوه عمر وأبا بكر بن بوعزة الشبشوبي الشاوي وغيرهم ممن ذكرت صنعة باسمهم مثل زَوّاقة ابن أحمد، ولُوبْرَة يوسف، وإن كنا لا نعرف عنهما غير ما ذكرناه.

هؤلاء توفوا في العقود الماضية الأولى من القرن العشرين، واستخدموا واستنبطوا أنواعا من الرسوم والزخارف والتزاويق من مْخُوتّم مثل الوَشّام والنويورات واللوبرات وما في حكمها.

ومن الزواقات واللوبْرات الخاصة بحصر الأرض أذكر : أسنان الشارفة ـــ عين العبد ف الحمّام ـــ النجوم البُوبَض ـــ خواتم بلا قْجَر ـــ الخواتم السليمانيين ـــ التّعَارَجْ ـــ النفافخ المقسومين ـــ كْتَف ودْرَج ـــ دارة الخواتم ـــ السلسلة البيضاء ـــ السلسلة المصبوغة ـــ زوّاقة ابن أحمد ـــ زواقة عَزّي بوبكر بن بوعزة الشبشوبي ـــ لوبْرة يوسف إلخ...

أما الحياطي فكانت تصنع بالاقواس مثل : أقواس الركبة من دقّة دقّة ـــ أقواس الركبة بالضامة ـــ أقواس التفاحة ـــ أقواس الشوكة ـــ أقواس بالنجمة العامرة ـــ أقواس بالنجمة الخاوية إلخ...

وأذيل هاته الفقرة بما ورد في تقرير أوكَوست بوميي A. Beaumier نائب قنصل فرنسا بالرباط سنة 1856 نقلا عن ترجمانه كلود ده لاروش C. de Laroche حول صناعة الحصر بالعدوتين، فقد جاء فيه حسبما رواه جاك كايي في كتابه «تاريخ الرباط» أن الحصائر تصنع خاصة بمدينة سلا وأنها كانت تقسم ثلاثة أنواع : الحصائر الدقيقة جدا والملونة وكانت تباع بعشرة فرنكات للواحدة (ويعني بهذا النوع ما يسمى عند أهل الحرفة : «المْخُوتَم»)، والحصائر البيضاء وثمنها ثلاثة فرنكات ونصف (3,50 ف) للواحدة والحصائر الخشنة (ويقصد بها ما يعرفه الحصارون باسم «تِينْدَة») وثمنها فرنك واحد لكل حصيرة، وهي لا تصلح إلا لحزم الصوف الذي كان يباع بكثرة بالدارالبيضاء والجديدة، وتعجب كيف لم يرحل أي حصار سلاوي إلى المدينتين المذكورتين، لاسيما وأن الإقبال على تصدير الصوف كان كبيراً.

* * *

3 ــ نظام الحرفة وإنتاجها :

يصنف أهل هاته الصنعة عدة أصناف بنطقهم : المْعَلَّم والصانع والمْتْعَلَّم، وعلى رأسهم الأمين.

فالمْعَلَّم (بتسكين الميم وتشديد اللام المفتوحة) هو رب الدراز، والصانع (بفتح النون) هو الذي يتولى صنع الحصيرة بمعونة غيره والمَتْعَلَّم (بفتح الميم وتسكين التاء وتشديد اللام المفتوحة) هو الطفل أو الشاب الذي يتعلم مبادىء الحرفة. ويضيف الحصارون السلاويون صنفاً رابعاً هو المْعِيلَّم (بتسكين الميم وخفض العين الممدودة وتشديد اللام المفتوحة) وهو تصغير عامي للفظة معلم والمقصود هو الذي يفتح درازه لأول مرة لينال نصيبَه (وهو نصف قسمة المعلم) من السمار النابت بمرجة سيدي بوغابة التي تملكها الأحباس، وتوسع على الحصارين في تسديد ثمنه بعد الحش، على يد الأمين الذي يضمنه ويدفع له حظه من الكبريت لتكعاب سماره. ولكن هذا الصنف الرابع إنما هو مؤقت، إذ لا يدوم إلا سنة واحدة، بعدها يصبح المعيلم معلما.

أمين الحرفة كان هو رئيسها، وينطق الحرفيون عامة بكلمة «لامين» وليس الأمين فيسهلون الهمزة، وجمعها هو لامينات لكي لا يختلط ويلتبس بأمناء المخزن :

أمناء المستفاد أو أمناء المرسى. فهو الحكَم بين الحصارة بعضهم بعضاً، وبينهم وبين مستخدميهم من صناع ومتعلمين، وبينهم وبين زبنائهم. وهي مهمة عسيرة يختار أهل الحرفة لها الأفاضل والنابهين منهم والعارفين بشؤون هاته الصناعة ودواخلها.

وليس عندي جرد لأسمائهم قبل القرن العشرين، لكني وقفت على هوية البعض منهم ممن كانوا يتولون منذ الربع الأول من القرن المذكور، وها هي قائمة لهم :

1 ــ الحاج بنعاشر بَنَّغْموش، كان سنة 1916/1334 أميناً للحصارة.

2 ــ الحاج عبد الله الشاوي هو الذي تولى بعده.

3 ــ الحاج الهاشمي كَحْكَحْني و لم أعرف تاريخ ولايته ووفاته، ولكني أعلم شيئاً عن خلفه وهو :

4 ــ الحاج إبراهيم الجعيدي المتوفى سنة 1981، وقد مكث أميناً إلى حوالي سنة 1940.

5 ــ محمد بن عبد القادر القصري المعروف بالبيضاوي المتوفى سنة 1948، وآخرهم كان هو :

6 ــ الحاج الهاشمي بوشعرة الذي انتخب أميناً حتى وفاته سنة 1982.

المعلم هو المتصرف في محله، يبيع الحُصُر ويهيىء ما يقيم به أَوَدَها من سمار وخيط ودوم وكبريت وأجرة أسبوعية للصانع عشية يوم الخميس من كل أسبوع، دون المتعلم الذي لا أجرة له، لأنه إنما جاء للمصنع لتعلم أصول الحرفة، إلا أن المعلم كان مع ذلك ينفحه بصلة عينية أو نقدية بمناسبة الأعياد. ويستمر المتعلم في تلقي الصنعة إلى أن يترقى إلى رتبة صانع، وذلك بعد سنين عديدة من التعلم والمِران.

على أننا نفتقر إلى إحصاءات مدققة بعدد أهل الحرفة بأسمائهم وأنسابهم، وكذلك بمعلومات مرقمة عن عدد الطرازات ومبلغ إنتاجها.

وقبل أن نبحث القليل من ذلك، أود أن أسوق فقرة لمحمد بن علي الدكالي السلاوي من كتابه «الإتحاف الوجيز». فقال لكن دون أن يورد أي رقم :

«وأما صناعة الحصر فهي إلى الآن، خاصة بسلا، في [غاية] الإتقان والجودة وحسن المنظر وعجيب الرقم. ولازالت هاته الصنعة لها روجان في سائر بلاد

الغرب وأمصاره، وتحمل حتى إلى بلاد الإفرنج» بل وحتى إلى بلدان إفريقيا أيضا ولاسيما حوالي سنة 1963 لما تقرر فرش المسجد الأعظم بداكار بالحصر السلاوية.

عن القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أوردت بعض التقارير القنصلية والتجارية الفرنسية والإنجليزية والإسبانية أرقاماً مفيدة، ولو أنها متقطعة عبر السنوات أجملها في الجدول الموالي الذي سنعقب عليه :

السنة	عدد الطرازات	عدد أهل الحرفة				الانتاج السنوي بالحصيرة
		المعلمون	الصناع	المتعلمون	الجميع	
1865	29	—	—	—	250	25.000
1872	16	—	—	—	100	—
1913	30	50	50	100	200	—
1916	—	44	—	—	—	حسب أحمد الصبيحي
1924	—	35	—	—	—	حسب ماسينيون

هذا ويستدعي هذا البيان تعاليق شتى.

فأرقام سنة 1916 أتى بها أحمد الصبيحي، محتسب سلا في وقته، وهو مَن هو ضبطاً ومعرفة، لكنها مع الأسف ناقصة بدورها، إذ لا تملأ الجدول بما تحتاج إليه أعمدته من أرقام. غير أن مقارنتها بإحصاء سنة 1913 تجعلنا على بينة من حال المهنة وإنتاجها.

ومن المفيد الإشارة إلى أن الحصّارة السلاويين يستصغرون أرقام سنة 1924 المأخوذة من بحث لوي ماسينيون. فأثناء محادثتي مع بعضهم كانوا يرفعون عددهم في منتصف القرن الماضي إلى 130 معلماً، لكن دون أن يضيفوا إلى هذا الرقم الصناع والمتعلمين، فلو أنهم زادوا هؤلاء على عدد المعلمين لملنا إلى تصديق ما قالوا وما يقولون.

أما الإنتاج فقد كانت العادة قبل منتصف القرن العشرين أن يكون معدل ما يخرج يوميا من كل طراز حصيرة واحدة مساحتها نحو 10 أمتار مربعة. فلنتخذ هذا الرقم معدلاً ولنحاول أن نعرف صنع هؤلاء الحصارة ـــ من خلال

طرازات المعلمين الأربعة والأربعين الذين أحصاهم المحتسب الصبيحي ــ مع افتراض أن لكل واحد منهم طرازاً واحداً فقط، فسنجد أن الإنتاج اليومي هو 44 درازاً × 10م² = 440 متراً مربعاً، فيصير الإنتاج السنوي هو 440م² × 300 يوم من العمل (باعتبار العطل الأسبوعية والسنوية) ويساوي 000 132م² أي 200 13 حصيرة.

وقبل أن آتي بأسماء هؤلاء المعلمين سنة 1916 ينبغي أن أقول إن المرء يرتاب في الأرقام التي قدمها القناصل في تقاريرهم حينما قدروا أن إنتاج سنة 1865 بلغ 25000 حصيرة أي 250.000 متر مربع في 29 طرازاً فقط كان فيه 250 من الأشخاص ولا يصدق ذلك إلا إذا ثبت أن الطلب على الحصير كان شديداً.

وها هي أسماء الحصارة سنة 1916 (انظر الملحق الثاني بخط أحمد الصبيحي) وذلك بعد ترتيبهم :

1 ــ أحمد بن الحْسَن (= بَلّحْسَن).
2 ــ عبد السلام البحراوي.
3 ــ الحاج أحمد بلاَنْبُو.
4 ــ الحاج بنعاشر بَنَّغْموش (أمين الحرفة).
5 ــ الهاشمي بوخريص.
6 ــ أحمد بن بوزيد.
7 ــ محمد بن بوزيد.
8 ــ محمد بوشعراء.
9 ــ محمد بوشعراء «المعيزة».
10 ــ إبراهيم الجعيدي.
11 ــ محمد الجعيدي.
12 ــ محمد الحجام.
13 ــ الجيلالي الخويخي.
14 ــ بحمد الرتيمي.
15 ــ عبد الكبير زنيبر.
16 ــ العربي الزواوي.

17 ــ الهاشمي كَحْكَحْني.
18 ــ حمود بن مالك.
19 ــ محمد بن مالك.
20 ــ أحمد المصلوحي (خليفة الأمين).
21 ــ العربي المهداوي.
22 ــ بنعيسى النجار.
23 ــ ولد العباسي.
24 ــ محمد بن العروسي.
25 ــ مفضل بن العروسي.
26 ــ عبد السلام العلمي.
27 ــ بنعاشر العيون.
28 ــ أحمد الغرباوي.
29 ــ محمد غميرس.
30 ــ الميلودي غميرس.
31 ــ الحاج أحمد القصري.
32 ــ محمد القصري.
33 ــ عبد السلام القصري.
34 ــ التهامي السبيطي.
35 ــ علال السبيطي.
36 ــ محمد السحيمي.
37 ــ عمر السحيمي.
38 ــ محمد السدراتي.
39 ــ محمد بن سعيد.
40 ــ محمد السفياني.
41 ــ أبو بكر بن الحاج التهامي الشاوي.
42 ــ التهامي الشاوي.
43 ــ عبد الله الشاوي.
44 ــ محمد الشوني.

* * *

4 ـــ مصير الحِصَارة ودواخلها :

تدل بساطة هاته الحرفة سواء في ماعونها أو في موادها أو في حبكتها على أنها صناعة تقليدية، فيمكن أن تكون من أوليات المهن التي ابتكرها الإنسان، غير أنها تطورت تطوراً ملحوظاً بعد ذلك وعلى مر الأعوام.

فإذا كانت صناعة الحصر الخيطية (أي القنبية) سلاوية مائة في المائة حسبما سبق بيان ذلك، فقد ورد في بعض المصادر الشفوية النص على أنها جاءت من الأندلس مع المهاجرين، دون أن يبين المصدر مستنده.

ولعلنا واجدون في علم اللسنيات ما يعزز هاته النظرية ويؤكدها. فإذا استعرضنا مصطلحات الحصارة ألفينا بعضها مشتملاً على كلمات إسبانية : بالو palo لخشبة المرمة، والباليو paleo لمساعد القوالبي الجالس عن يساره ويصر أهل المهنة على النطق بالكلمتين الأخيرتين بالپاء الفارسية : پ P. ومن الألفاظ الدخلية : الأوبْرَا el obra وهي العمل، والبلانكو blanco للمكان غير المصبوغ والأبيض في الحصيرة، والباسطو basto للسمار الرديء المرشح للصباغة، وكلمة الطابلة tabla وكلمة الكَاريطو gareto المقابلة لكلمة garot الفرنسية وهي الشظية التي تزير حبال المرمة من الأطراف الأربعة لخشبيتي المرمة palo. فإذا تأملنا ألفاظا أخرى مثل البَنَاوْصي (الذي هو الباليو المشار إليه أعلاه) ومثل البَسْويلُو (من كلمة إسبانية لعلها مركبة من لفظة أبيس ápice التي تفيد الطرف أو الهدب) وهو عبارة عن قطع من القنب تعد سلفاً لترقيع ما عسى أن ينقطع أو يفتق من خيط، تحققنا أنها بعيدة عن الصياغة العربية، ولهذا فهي أجنبية ثم تحرفت قليلا.

وعلى ذكر الجذور الأندلسية لهاته الصناعة ينبغي أن أشير إلى أن مدينة تطوان التي هي بوابة المغرب الشمالي قد تكون هي أول من استقبل الحصارين الأندلسيين الذين انتشروا بعد ذلك في مدن أخرى مثل سلا، وحملوا إليها شيئاً من نطقهم ولهجتهم.

فمن المعلوم أن لأهل أقصى الشمال المغربي من مدينة القصر الكبير إلى مدينة شفشاون طريقة في التلفظ مغايرة لسواهم في القليل من الجزئيات، مثلا عند وجود كلمة ذات حرف مُحرَّك بالفتحة ومتبوع بحرف ساكن أو مشدد اعتادوا أن

يفصلوا بين الحرفين بمد مفتوح وخفيف بالألف، فهم يقولون للقهوة : القاهْوَة، وللنجار : النَّاجَّار وللحصار : الحاصَّار، ووجه الشاهد عندي هو في اللفظ بكلمة «مَدَّة» (أي تطويل)، وهي تعني في اصطلاح الحصارين السدى واللحمة الممدودين الكافيين لصنع شغلين (أي حصيرتين) أو أكثر. فالسلاويون يتلفظون بالكلمة هكذا : مادّة، كما يفعل أهل الشمال، أي المادة التي لا تفيد معنى العنصر ولا معنى تركيب الكل من الجزء، وإنما المقصود مفهوم هندسي هو امتداد الطويل. فالألف الممدودة الكائنة بين الميم والدال ليست سلاوية الأصل (وإلا لنطقت مدّة) وإنما هي من المدن الشمالية التي كان أهلها يجيدون صناعة الحصائر، وهم الذين علموا لأهل سلا هاته الطريقة اللاشعورية في النطق، وكل هذا يوحي بالأصل الأندلسي للحصارة.

ويطول بنا المقام لو تتبعنا ألفاظاً أخرى مثل : الأَوْصَال مفرده وصل، ونقصد به الخيوط المضعفة عند ملتقى السمار. فلو كانت اللفظة سلاوية لقيل لَوْصال، ولكنها شمالية فتسمى لأَوْصَال.

وأيا كان أمر الصناعة فقد أخذت أحوالها تتدهور وتسير نحو الانقراض مثلما وقع لحرف أخرى ولأهلها مثل السقاط (صانع السروج) والجوّاي (صانع أغمدة السيوف). وقد حلت اليوم محل الحصارة صناعات عصرية وبديلة كالحصر السورية الجيدة الزهيدة الثمن وكغيرها من البسائط المتخذة من ألياف البروبيلين أو من المواد النفطية مثل البالاطوم والبلاستيك والجونفليكس أو من الميكا المعروف بالمشمع أو من سُقاطة القطن والصوف مثل الموكيط.

وقد أخذ الناس يزهدون في اشتراء الحصير، ولم تعد اليوم موجودة بسلا إلا دكاكين قليلة العدد لبيعها، وإلا بضعة درازات لصنعها، يملكها أصحابها بسوق الغزل والصف وباب شعفة منتظرين أن تصدر من وزارة الأوقاف سمسرة لتفريش المساجد، فتراهم يصنعون حصراً خيطية فقط ويخزنونها لهذا الغرض، ولا يتجاوز عدد العاملين في تلك الدرازات عشرة أشخاص من الكهول. أما الشباب فلا وجود لهم اليوم مطلقا بين من يتعاطون هاته الحرفة التي مادامت لم تستقطبهم ومادام الناس عازفين عن إنتاجها فإن مصيرها إلى زوال ولاسيما عند وفاة الحصارين الموجودين اليوم بقيد الحياة. ولم يفد في شيء إنشاء التعاونية العصرية لهم، ولا خلق جناح لهم بالمجمع الصناعي بباب مْصَدَّق لأنه فولكلوري.

وحتى لو ظلت هاته الحرفة قائمة الذات فإن.متعاطيها كان معرضاً لعدد من الأمراض المهنية الفتاكة، نتيجة الغاز الكبريتي المنبعث من برميل تكعاب السمار، فهو يورث الربو أي ضيق التنفس، ومثل أمراض المفاصل واعوجاج الأطراف وانفراج الركبتين وتقوس الظهر والعمود الفقري ونتوء المرفقين إلى الوراء. هاته الأمراض الأخيرة تتولد من عادة القعود المستمر فوق المرمة. فالقوالبي يجلس كما هو معلوم في الفوق على إلْيَتِه ويثني فخذه ورجله من الجهة اليمنى ويلصقهما بالمرمة، ويترك الفخذ والرجل الأخريين من الجهة اليسرى منتصبتين، بينما البناوصي معينه يثني أطرافه ويجلس على إليته مثله ولكن بشكل مغاير، أما التحايتي فموقعه في الجهة الدنيا وهو واضع رجليه دائما فوق الأرض بين خيوط المرمة وازدحام خيوط الأوصال، وذلك ما يصيب بلاشك شظيتي ساقيه بالدُّبَرة الناتجة عن الاحتكاك المستمر الدائم بالخيوط، أما أطرافه فتصاب بالبرودة التي تفضي إلى الروماتيزم.

ولا يفوتني في ختام هذا المبحث أن أشير إلى أن الحرفيين كانوا أبداً من ذوي السبق في الكفاح عن وطنهم ودينهم، وأنه لم تنجح أية دعوة للإصلاح ما لم تكن مدعومة بأفراد الشعب من جميع المستويات. فقد تظاهروا واحتجوا وسجنوا وعذبوا، فكان منهم رجال بررة ذوو نفوس طيبة مستعدة دائما لتجسم المخاطر والنضال من أجل المقدسات.

يروي رجال الحركة الوطنية والقومية بسلا أن ذوي الحرف من شباب وكهول من حصارين وبنائين ونجارين وتجار وفلاحين كانوا أول من لبى الدعوة، ومن المناهضين لحركة الظهير البربري (1930) وأنهم كانوا سنة 1934 من المشاركين في الانتفاضة التي قامت من أجل إغلاق الخمارات وكذلك في تظاهرات المطالبة بالاستقلال.

وإلى جانب هاته الصفات الحميدة والمعاناة التي تكبدوها في خلْقهم وخلقهم، عرفوا بنضال عاشته مدينة سلا بغية تحسين أوضاعهم المادية والمعنوية سنة 1937. كانوا ضحية استغلال من لدن مشغليهم، فالشباب منهم أجّج حركات مطالبهم بالعيش الكريم وبتقنين أوقات العمل والكف عن تحميل صغارهم فوق ما يطيقون.

وقد ظهر لي أن أقدم في الملحق الأول مقالا لسعيد حجي في جريدته «المغرب»

في عدد 14 مايو 1937، دعا فيه المسؤولين إلى العناية بشؤون أهل الحرف ولاسيما الحصارين وتحقيق الممكن من مطالبهم والكف عن استنزاف قوى المتعلمين، وكان ذلك في الوقت الذي لم يكن للحركة النقابية وجود ولا لهيئات الدفاع سبيل إلى إنصافهم.

إلا أنني أتحفظ فيما ذكره المقال من أن مدة الخدمة من السادسة صباحاً إلى ما بعد العشاء. فذلك غير صحيح في الجملة.

المصادر والمراجع :

— مشاهدات وسماعات من والدي الحاج أحمد وعمي الحاج الهاشمي رحمهما الله، وكذلك من بعض الحصارين، زيادة على :

— محمد بن علي الدكالي : «الإتحاف الوجيز»، ص 46 من الطبعة الثانية.

— مصطفى بوشعراء : «الاستيطان والحماية»، ج 1، ص 119–120، والباب الثاني، الفصل الرابع : «النظام الحرفي»، ص 230–273.

— أحمد معنينو : «ذكريات ومذكرات»، الجزء الثاني، الفصلان 17 و22 منه.

— أحمد الصبيحي : «خطة الحسبة» الجزء السادس، ص 17 و18، مخطوط الخزانة الصبيحية، رقم 234.

— جريدة «المغرب»، العدد 13، السنة الأولى.

— Jacques Caillé : «La petite Histoire de Rabat», pp. 193-194.

— Kenneth L. Brown : «Poeple of Salé, Tradition and change in a Moroccan City : 1830-1930», Manchester University, pp. 131-132-133-134-140-141-152-239.

وقد اطلع براون على المراجع الآتية المذكورة في كتابه وهي :

— J.L. Miège : «Documents inédits sur l'artisanat de Rabat-Salé au milieu de XIX^{ème} siècle» in Bulletin Economique et Social du Maroc, Tome XXIII (oct. 1959), pp. 173-182.

— Maurice de Périgny : «Au Maroc. Casablanca- Rabat- Meknès» (1920), page 120.

— Louis Massignon : «Enquête sur les corporations musulmanes des artisans et des commerçants au Maroc» in Revue du Monde Musulman, Tome L.V (1924), page 26 et suivantes.

الملحق الأول :

شؤون العمال والصناع

صناع الحصير بسلا

لا نعرف عمال صناعة أشد شقاء وأتعب عملاً وأقل أجرة من عمال صناعة الحصير، فهي الصناعة التي تتعب خادمها وتشوه جسمه، لأنها لم تتطور بل ظلت محافظة على وسائلها الأولى وظلت بذلك مصدر خطر لكثير من الصبيان والشباب الذين يمارسونها. وزيادة على ذلك فإن أصحاب تلك الصناعات يعاملون صناعهم معاملة يشتكون منها منذ زمان طويل، دون كبير جدوى ودون أن تهتم الحكومة بأمرهم الاهتمام الجدي، وتدرس مطالبهم، وتتخذ التدابير التي تخفف من مصائبهم وأتعابهم.

يطلب العمال أن تكون مدة خدمتهم 8 ساعات في اليوم طبقاً للظهير الشريف حيث أنهم لازالوا يخدمون لحد الآن من الساعة السادسة صباحاً إلى ما بعد العشاء ليلا.

يطلبون أن ترفع أجورهم فأعلاها لا يزيد على أربعة فرنكات في اليوم إذ يمكن للعامل مع متعلمين أن يصنع (طريحة) في اليوم الواحد مساحتها 25 ميترا تقريباً تباع بـ150 فرنكا.

ولكي يضمن أرباب تلك الصناعات رخص أجرة الصناع فإنهم اتفقوا فيما بينهم على ألا تزيد الأجرة على 4 فرنك للعامل المتقن الصنعة وعلى أن تكون مدة الخدمة من السادسة صباحا إلى ما بعد العشاء.

ويظهر أن أمين الصناعة الذي كلفه المخزن بتلك المسائل متفق مع أرباب الصناعة على هذه المعاملة القاسية فالعمال كلما اشتكوا إليه لم يهتم بأمرهم ولم يراع لهم حقوقاً، ويطلبون أن تفكر الحكومة في تطوير صنعتهم لكي تصبح غير متعبة ولا مفسدة للصحة ولا مشوهة للجسم، لقد طلب مرات بهذا لاعلانها

ولطلب الخدمة وعلى إثر ذلك صدر أمر وزارة الأحباس بعدة خدمات لصنع الحصير لمساجد المغرب و لم تسمسر بل وزعت على أرباب الصناعة لكي ينتفعوا وينفعوا الصناع معهم ولكن الصناع لم يستفيدوا من ذلك أية استفادة بل ظلت المعاملة كما كانت في الماضي وهذا ما نلفت إليه نظر الإدارة المحلية بنوع أخص لتدرس القضية من جديد وتضع لها نظاماً عادلا.

جريدة «المغرب» الصادرة بسلا
لسعيد حجي، عدد 14 مايو 1937

الملحق الثاني :

12 المشاركة 24 رجب 1333 / 16 / 1336 م

1 أمين العلاج بن عاشر ...
2 خليفة سيد احمد المطوعي — مسلم
3 السيد محمد بوشعواري
4 احمد بن بوزيد
5 السعيد الزاوي
6 التعيسي القبلي
7 عثمان السبيطي
8 سيد الهاشمي بوخريص
9 التهامي الرشاو
10 عبد الله الشاو — ممتاز
11 سيد ابراهيم الجعيد — هذا خليفة ادريس يوم 23 / 1 / 1336 مع خليفة احمد السنوسي
12 محمد السحيمي
13 السيد محمد بن بوزيد
14 ابو بكر الرشاو — جوم الرشاو
15 الميلودي محمد ...
16 التهامي السبيطي
17 الحاج احمد بلانبو
18 سيد محمد البعيد — مع خليفة الخليفة
19 السيد محمد بن سعيد — مع سيد عبد السلام العلمي
20 السيد محمد بن العروسي
21 السيد محمد بن مالك
22 السيد محمد التيمي — مع السيد محمد السبيدي
23 السيد محمد السحيمي
24 بن عاشر الصيود
25 السيد محمد غيلاس
26 السيد محمد السعيدي
27 السيد محمد الفقيه
28 سيد عبد السلام الكيماوي
29 عبد السلام الفقيه
30 سيد عبد السلام العلمي

31 الحاج ... محمد ...

32	السيد محمد بوشعرا المعزي
33	احمد الخرباوي
34	حمود بن مدكو
35	العربي المهدي
36	معطي بن بعروكي
37	السيد محمد السعودي
38	ولد العباسي
39	عبد الله زنيري
40	السيد محمد الحمداوي
41	احمد بن الحسن
42	الحاج احمد التغي
43	السيد محمد الشرادي
44	الجيلاني المنوزي

من مخطوط أحمد الصبيحي

«خطة الحسبة» الجزء السادس، ص 17 و18

نصوص ووثائق

وثيقة حول توزيع المياه في الأندلس(*)

تقديم وتحقيق :
محمد المغراوي
كلية الآداب ــ الرباط
مصطفى بنويس
UMR 5648 جامعة ليون 2 ــ فرنسا

تعود الأهمية التاريخية للوثيقة التي نقدم لها من كونها نموذجا للوثائق الشرعية والعقود التي كانت تصدر عن القضاة في العصر الوسيط بالأندلس، وهي وثيقة قضائية رسمية حررت بشأن موضوع نزاع حول الماء. وهذا النوع من الوثائق نادر جدا. أما ما هو معروف وشائع من وثائق هذه الفترة ــ حسب علمنا ــ فهي تلك النماذج التعليمية النمطية التي احتفظ بها أصحاب كتب الشروط ليستفيد منها الموثقون في كتابه العقود[1]، والتي تجرد معطياتها وتحتفظ فقط بفقه المسألة موضوع العقد، وبالجوانب الشكلية في كتابته. أما الفتاوى التي تعرضت لمواضيع النزاع حول الماء، والتي كان المفتون يجيبون بها على الأسئلة التي تطرح عليهم،

(*) نشكر الأستاذ بيير كَيشار (Pierre Guichard) على مساعدته القيمة في إعداد هذا البحث. كما نشكر كلا من ماريا لويسا أبيلا (Maria Luisa Avila) وماريبيل فييرو (Maribel Fierro) وإيمانويل ساليس (Emmanuel Salesse) على مساعدتهم.

(1) نشرت مجموعة من كتب الوثائق التي تعود إلى العصر الموحدي، والتي تتضمن عقودا للمعاملات المتنوعة مشابهة من كتب الوثائق التي تعود إلى العصر الموحدي منها كتاب **الوثائق المختصرة** للقاضي أبي إسحاق الغرناطي (ت 579/1183)، إعداد مصطفى ناجي، الرباط، مركز إحياء التراث المغربي، 1988، و**المقصد المحمود في تلخيص العقود** لعلي بن يحيى الجزيري، دراسة وتحقيق أسونثيون فريرس، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1998.

فهي اجتهادات فقهية ليست لها صبغة قضائية إلزامية. وهذا ما أعطى لهذه الوثيقة أهمية بالغة بما تتضمنه من معلومات موضوعية وتقنيات شكلية على حد سواء.

اعتبر الأستاذ بيير كيشار هذه الوثيقة، ووثيقة أخرى هي عبارة عن ظهير يعود إلى الخليفة الموحدي يوسف المستنصر مؤرخ بسنة 1217/614[2]، الوثيقتين العربيتين الرسميتين المعروفتين لحد الآن واللتين تعالجان قضايا تتعلق بمنطقة بلنسية، وقد اعتمدهما في كتابه حول مسلمي بلنسية وحركة الاسترداد[3]. كما أشار إلى هذه الوثيقة الباحث طوماس كليك في كتابه حول الري والمجتمع في بلنسية في العصر الوسيط[4].

1 ـ التعريف بالوثيقة وتوثيقها :

هذه الوثيقة مؤرخة بربيع الآخر سنة 619/ مايو 1222. وتوجد ضمن محفوظات أرشيف مملكة بلنسية بإسبانيا :

Archivo del Reino de Valencia; Procesos de Madrid, Letra S, 429.

Archivo del Reino de Valencia, Dir. General de Archivos y Bibliotecas, Madrid, 1965, Documento n° 34;

ومعها ترجمة إلى الإسبانية أنجزها فرانشسكو لوبيز طاماريز (Francisco Lopez Tamariz)، أسقف ألمرية بمملكة غرناطة، ومؤرخة بيوم 20 أغسطس سنة 1566 (الموافق لسنة 974 هجرية). أنجزها بصفة رسمية، وقدم في آخرها وصفا ماديا للعقد، وذكر الجهة التي كلفته بترجمته وهي المجلس الأعلى لأركون (Alto consejo de Aragon de su Majestad).

يتبين من الدراسة المادية لهذه الوثيقة أنها إحدى النسخ الأصلية التي كانت بأيدي أصحاب الحق، ويدل وجود تصحيح قاضيين عليها، أن أصحابها كانوا

(2) يرخص بموجبه لرهبان دير قطلاني يدعى بوبلي Poblet، في رعي مواشيهم بأراضي المسلمين في منطقة بشمال بلنسية.

Pierre Guichard, **Les Musulmans de Valence et la reconquête (XIe-XIIIe Siècles)**, Damas, 1990, T.I, p. 38.

(3) Pierre Guichard, **Les Musulmans de Valence et la reconquête**, T.I, p. 38-39

(4) Thomas F. Glick, **Irrigation and Society in Medieval Valencia**, Cambridge, Harvard University Press, 1970, p. 209.

يعرضونها على قضاة مدينة مربيطر لتصحيحها عند تعيين كل قاض جديد، إثباتا لحقهم. وكتبت جميع مكوناتها بنفس الخط، ويعود ذلك إلى قرب المدة بين كتابتها سنة 619، ووفاة أحد القضاة الذين وثقوها وهو أبو الحسن بن أبي الفتح سنة 1226/623. ولاشك أن كاتبها محمد بن عبد الله بن زهير كان أحد مساعدي قاضي مربيطر، وواكب قيامه بمهمته مدد مجموعة من القضاة.

تتكون هذه الوثيقة من عقدين شرعيين، الأول منهما رسم استرعاء[5] بين أهل قريتين من القرى القريبة من مدينة مربيطر، هما قرص وطرش، يتناول موضوع توزيع المياه بينهما؛ والثاني عقد استقلال[6] وإشهاد على الرسم الأول. وقد ذيل الرسمان معا بشهادة شهود مذكورين بأسمائهم، بعد تصريح القاضي بقبول شهاداتهم وتزكيتهم للشهادة بين يديه بمجلس حكمه بمدينة مربيطر. وقد احتفظ الرسم الأول بأسماء ستة عشر شاهدا عدا من لم نتمكن من قراءة أسمائهم، وفي الرسم الثاني أسماء أربعة من الشهود.

وبأعلى الوثيقة إشهادان على صحتها من قاضيين هما أبو الحسن بن أبي عبد الله بن أبي عبدة، وأبو الحسن أبي الفتح، ويبدو أنهما أشهدا على العقد في مدة قضاء كل واحد منهما. ويظهر بأعلى الوثيقة اسم كاتبها وهو محمد بن عبد الله ابن زهير، ولم يكتب تاريخ إشهادي القاضيين المذكورين.

وقد لاحظ الأستاذ گيشار أن النصارى احتفظوا بهذه الوثيقة بعد استرجاع إحدى القريتين من أيدي المسلمين لاستعمالها كسند قانوني في إثبات حقهم في استغلال الماء[7]، فصارت لها حجية قانونية وأصبحت مرجعا معتمدا في

(5) عقد الاسترعاء هو ما قابل الأصل، أي شهادة الشاهد بما في علمه من الشهادة الأصلية التي أودعها المشهود عليهم، محمد قدوري، **دليل المصطلحات الفقهية**، الرباط، إيسيسكو، 2000، ص 32.

(6) عقد الاستقلال هو الإقرار الذي يصدر عن القاضي بصحة الوثيقة من ناحية الشكل والموضوع، استقلالا بولايته غير المتوقفة على إذن أحد، حسين مرعي، **القاموس الفقهي**، بيروت، دار المجتبي، ط 1، 1992، ص 20.

(7) P. Guichard, **Les Musulmans de Valence**, T.I, p. 39

الموضوع، لذلك فقد رتبت فيما بعد ضمن أرشيف مملكة بلنسية مع وثائق أخرى مسيحية تعالج موضوع الماء.

2 ــ مضمون الوثيقة :

تتناول الوثيقة قضية نزاع حول الماء بين قريتين من قرى منطقة جبلية بنواحي مدينة مربيطر بشرق الأندلس، إحداهما تسمى طرش وتقع في العالية، والأخرى تسمى قرص وتقع في السافلة. وكان النزاع قد دام بين أهل القريتين حوالي عشرين سنة حول اقتسام الماء بينهم. أما السبب المباشر الذي أدى إلى تجدد النزاع فهو التدهور الذي أصاب الساقية التي تحمل الماء من القرية العليا إلى القرية السفلى، وتهدم جزء منها وتسببه في ضياع الماء، مما أدى إلى حرمان القرية السفلى مما كان يصل إليها عادة منه. وقد استدعى النزاع بين القريتين الاحتكام إلى قاضي مدينة مربيطر[8].

عرضت الوثيقة للطريقة التي تعامل بها القاضي مع النازلة، حيث إنه لم يكتف بسماع دعاوى أهل القريتين، وإنما اعتمد عدداً لابأس به من الشهود تنقلوا معه إلى محل النزاع، ووقفوا معه على موردة الماء، وعاينوا ما بها من تدهور وتأكدوا من حاجتها إلى الإصلاح، ثم أشرف على اتفاق بين أهل القريتين على اعتماد تقنيات توزيع كانت معروفة لديهم لحل النزاع بإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه، وتم الصلح على ذلك، ووقع الإشهاد عليه.

يعرض العقد الأول لأصل المشكلة وتطورها وتدخل القاضي لحلها، ويسجل الاتفاق الذي حصل بين أهل القريتين في صيغته التقنية، ويقدم بذلك معلومات دقيقة حول بعض تقنيات توزيع المياه في الأندلس في العصر الوسيط مستعملا نفس المصطلحات ومشيرا إلى نفس التقنيات التي كانت مستعملة.

ويظهر من خلال وصف النازلة التي يقدمها العقد أن الماء كان ينزل من جبل يقع بأعلى قريتي طرش وقرص، وكان لكل قرية سد تجمع فيه المياه النازلة إليها. وكان الماء يصل أولا إلى القرية العليا، ثم يهبط منها إلى القرية السفلى عن طريق الساقية أو الموردة التي وقع المشكل بسببها. وبعد الاحتكام إلى قاضي مربيطر

---

(8) لم نتبين اسمه.

تم الاتفاق على إصلاح الساقية المخربة، وإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه، وتوزيع الماء على ما كان متعارفا عليه قديما بين أهل القريتين وبمنطقة مربيطر كلها، وذلك بأن يوضع بالساقية حجرة رحى بها ثقب محدد بعناية، إذا ارتفع الماء إلى حد معين يخرج منها خيطان ونصف من الماء لأهل القرية السفلى، إذا زاد الماء في الساقية على أربعة أخياط. أي أن القريتين كانتا تقتسمان الماء بالتساوي تقريبا. لكن إذا لم يصل الماء إلى هذا المستوى فهو من نصيب قرية طرش العليا وحدها. وبذلك فإن العرف الذي كان معمولا به في توزيع الماء بين القريتين ينطلق مما تقرر لدى فقهاء المذهب المالكي قديما، ومما جرت به أعراف أهل منطقة الغرب الإسلامي بأحقية أهل الأعالي بالماء على أهل الأسافل[9].

أما العقد الثاني فهو إشهاد على العقد الأول، ويؤكد أن القاضي أشهد شهودا آخرين على نفسه في نفس تاريخ النازلة وهو ربيع آخر سنة 619هـ.

3 ــ شكليات الوثيقة :

تقدم الوثيقة ثلاثة أنواع من المعلومات :

1 ــ معلومات تتعلق بمشكل المياه بالأندلس بأبعاده الطبيعية والاجتماعية والقانونية، ووسائل التنظيم والتقنيات المستعملة في حدود سنة 619هـ.

2 ــ معلومات تتعلق بسير المسطرة القضائية وطرق حل النزاعات الجماعية، ومرجعيات ذلك، وفي هذا الجانب تؤكد الوثيقة على المعلومات الآتية :

أ ــ كان الاحتكام يتم إلى القضاء الشرعي في هذا النوع من الخصومات الجماعية في قضايا توزيع الماء.

ب ــ كان القاضي والشهود ينتقلون إلى مكان النزاع لمعاينة موضوعه.

ج ــ كان القاضي يحرر عقدا يتضمن ذكر الوقائع بالتفصيل، وذكر ما تم الاتفاق عليه بين المتنازعين، والإشهاد عليه من طرف عدد كبير من الشهود، ثم الإقرار بتزكيتهم.

---

(9) الونشريسي، أحمد، **المعيار المعرب**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج 8، ص 5–20؛ عمر بنميرة، «قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال أدب النوازل»، ضمن **التاريخ وأدب النوازل**، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995، ص 77.

د ــ كان القاضي يشهد باستقلال العقد، أي شهادته باستقلاله بالولاية وعدم الاحتياج إلى إذن من أحد.

هـ ــ الاحتكام إلى العرف السائد المقرر، انطلاقا من الفقه المالكي الذي يعترف بالعرف والعادة التي لا تخالف أصول الشريعة.

و ــ يترك العقد مدة سنة للطعن أو الاستئناف (ملحق سنة).

3 ــ ومن الناحية الشكلية نلاحظ ما يلي :

أ ــ خلو الوثيقة من أي توقيع للقاضي. لكنها تحتفظ في آخرها قبل استعراض أسماء الشهود بالعلامة التي هي : «وبذلك كله صح»، وهي بخط كاتب الوثيقة. ولكن الخرم الكبير الذي وقع في أسفلها في الأماكن التي من المفترض أن تحمل التوقيع تجعلنا لا نستبعد أنها كانت تحمل توقيعا.

ب ــ تضمين جميع الإشهادات في نفس الوثيقة، وليس في أوراق مستقلة.

ج ــ شهادة أربعة شهود على أداء القاضي الذي حكم في النازلة في العقد الثاني. وهؤلاء هم من العدول، وليسوا من الشهود العاديين، لأن الشهادة في هذه الوثيقة ليست على الوقائع وإنما هي على أداء القاضي.

د ــ كتب بأعلى الرسم إشهادان مستقلان لقاضيين، هما أبو الحسن بن عبد الله بن أبي عبدة، وأبو الحسن بن أبي الفتح، ويبدو أن العقد عرض عليهما للتصحيح بعد مدة قصيرة من إصداره.

هـ ــ كتب ناسخ الوثيقة اسمه بعد كل إشهاد من الإشهادين السابقين.

و ــ كتبت كلمة شهد فوق اسم كل شاهد وليس قبله.

4 ــ وصف الوثيقة :

كتبت الوثيقة على الرق.

مسطرة العقد الأول : 16 سطرا. والعقد الثاني : 4 أسطر.

تاريخها : ربيع الآخر سنة 619هـ، (الموافق لشهر مايو سنة 1222م).

خطها أندلسي مبسوط مدمج مع المجوهر، دقيق سهل القراءة.

بها خروم كثيرة في أعلاها ووسطها وأسفلها وبجانبها الأيسر، مما أثر على قراءة عدد لابأس به من كلماتها.

5 ــ قراءة وتصحيح الوثيقة :

لم نتمكن للأسف من مراجعة النص المخطوط للوثيقة، واعتمدنا في قراءتها على مصورتين؛ إحداهما على الورق والأخرى على الميكروفيلم، مكننا من الحصول عليهما، وعلى نسخة مخرجة من الترجمة الإسبانية المشار إليها الدكتور بيير كَيشار (Pierre Guichard) مشكورا. ولاحظنا أن نفس الفراغات الموجودة بالأصل، موجودة في الترجمة، مما يؤكد أن الوثيقة تعرضت للتلف في مرحلة مبكرة.

وقمنا بقراءة الوثيقة ومحاولة ملء الخروم، ووضعنا الكلمات المبهمة بين مربعين [ ]، والكلمات التي لم نهتد إلى قراءتها أو المخرومة وضعنا مكانها نقطا بين مربعين [...]. ووضعنا للوثيقة علامات التنقيط، وقسمناها إلى فقرات، وعرفنا بالأعلام البشرية والجغرافية والمصطلحات المذكورة فيها.

نـص الوثيقـة

[إشهادان بأعلى الوثيقة]

1 ــ نسخة عقد... عليه[10].

2 ــ وبذلك أعلم بصحة رسم الاسترعاء المكتتب هذا بأعلاه الشيخ الفقيه الأجل القاضي [...] الورع الأعدل [...] المحقق الأحفل الحسيب الأسمى الأكمل أبا الحسن بن الشيخ الفقيه الأجل المرحوم الأو[...] أبي عبد الله بن أبي عبدة[11] وصل الله توفيقهم بعظم قدرهم وأ[...] برهم وشكرهم. [...] بحقهم. محمد بن

(10) جملة تقع في سطرين لم نتبين منها سوى ما ذكر، وكتبت بخط مغاير لخط الوثيقة.

(11) سماه ابن عبد الملك المراكشي (ت 1304/703)، أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن أبي عبدة، وذكر أنه «كان من أهل العناية التامة بالعلم جريا على سنن سلفه، من بيت علم وجلالة»، ويبدو أن اشتهار بيته هو الذي منع ابن عبد الملك من أن يذكر أصله وبلده، كما أنه لم يذكر وفاته، **الذيل والتكملة**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، ج 1/5، ص 317، رقم 630.

عبد الله بن زهير[12] والسلام عليهم ورحمة الله.

3 ـــ أعلم بصحة رسم الاسترعاء المكتتب أسفل هذا [...] القاضي الأفضل الأجل أبو الحسن ابن أبي الفتح[13] وصل الله [...] ده كثيرة. محمد بن عبد الله بن زهير يولي عليه [...].

[نص العقد الأول]

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد رسوله الكريم وعلى آله وسلم تسليما

شهداء هذا الرسم يشهدون أنهم يعلمون أنه وقع بين أهل قرية طرش[14] وقرية قرص[15] من قرى مربيطر[16] حرسها الله تنازع وتشاجز منذ بضع وعشرين تقدمت هذا التاريخ، في الموردة[17] التي يأخذ أهل قرية قرص

(12) وردت اسمه في النسخة المترجمة هكذا : Mahomath Benabdalah Abenbax، و لم نتمكن من التعرف عليه.

(13) هو علي بن عمر بن أبي الفتح التجيبي، يكنى أبا علي، ذكر تلميذه ابن الأبار أنه من أهل بلنسية وولي الأحكام بها، «وكان من أهل المعرفة بالفقه والحفظ لمسائله والقيام عليه... توفي سنة 623هـ... وحضر السلطان يومئذ جنازته»؛ وذكره أيضا ابن عبد الملك المراكشي، وأضاف أنه عاش حوالي 80 سنة؛ ونقل ابن الزبير عن **الذيل** لابن فرتون الفاسي أنه «كان من أهل المعرفة بالفقه، وقعد ببلده للتدريس، وتوفي في حدود سنة 620هـ أو بعد ذلك بيسير». انظر ابن الأبار القضاعي، محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (ت 1260/658) : **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، الدارالبيضاء، دار المعرفة، 1996، ج 3، ص 234، رقم 589؛ ابن عبد الملك المراكشي : **الذيل والتكملة**، ج 1/5، ص 269، رقم 531؛ أبو جعفر بن الزبير الغرناطي (ت 1308/708)، **صلة الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعرب، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1994، ج 4، ص 135، رقم 279.

(14) طرش (Torres Torres) أو (Torox) حسب الترجمة، قرية محصنة قرب مربيطر، تقع على السفح في الضفة الجنوبية لوادي بلنسية (Rio de Sogorb).

(15) قرص (Carcer) أو (Carze) حسب الترجمة، قرية أخرى من قرى مربيطر، كانت بها بعض التحصينات، وتسمى اليوم باللغة الكطلانية Els Castellets.

(16) مربيطر (Morvedre) أو (Morbetir) حسب الترجمة، وتحمل اليوم اسم Sagunto، إحدى مدن شرق الأندلس، تقع إلى الشمال من مدينة بلنسية عاصمة الإقليم.

(17) ساقية صغيرة تأخذ الماء من الساقية الرئيسية.

الـ[مذكورة] الماء عليها لسقي أملاكهم في الجانب القبلي[18] من الساقية الكبرى المعلومة لأهل قرية طرش المذكورة ولساير قرى مربيطر قبليها وشرقيها وغربيها و[...] الموردة المذكورة بمقربة من بطحاء قرية الـ[...] مربيطر إذ كانت هذه الموردة قد انخرمت وفسدت فسادا بينا. وتخاصموا في شأن ذلك عند الشيخ الفقيه الأجل القاضي [... ... ...][19] بمدة تولية القضاء بها.

ولما طال التنازع في ذلك و[...] بين من ذكر رأى الشيخ الفقيه الأجل القاضي أ[بي ... ...] المذكور الوقوف بنـ[ـفسه الـ... قبل وادر...] جماعة من الشهود من [...] الوقوف معه إلى الموردة المذكورة فنهضوا مع القاضي المذكور ووصلوا إلى هذه الموردة وعاينوها محتاجة إلى صلاح وجبر ما انخرم فيها وفسد. وحضر أهل قرية طرش [...] في الموردة المذكورة وتشاجروا في ذلك عند القاضي المذكور فتوافق أهل القـ[ـريتين المذكو]رتين على أن تـ[...] المذكورة مطحن يكون في وسطه ثقب لخروج الماء عليه لأهل قرية [...] يحمل من الماء خيطين[20] اثنين ونصف خيط واحد من الأخياط المتعارفة بمربيطر إذ كـ[ـان الماء د]ون ذلك. وإذا كان الماء أربعة أخياط فما دونها من الأخياط المذكورة [لا يجوز] لأهل قرية قرص المذكورة أخذ شيء من الماء مع أهل قرية طرش المذكورة، لعلو سدهم المعلوم لهم قديما على سد قرية أهل [قرص] المذكورة المعلوم لهم أيضا قديما.

ولما كمل تواثق من ذكر حضر البنّاء وأنزل في [الموردة] المذكورة مطحنا في وسطه ثقب موزون ليُخرج منه خيطين اثنين ونصف خيط واحد من الماء لأهل قرية قرص المذكورة إذا كان الماء في الساقية المذكورة أزيد ن أربعة أخياط كما ذكر لمن ذكر، فإذا لم يبلغ الماء الثقب المذكور وكان أربعة أخياط فما دون

---

(18) الجانب الجنوبي الشرقي.

(19) أتى خرم على اسم القاضي فلم نتبين منه شيئا، ولم يتبين اسمَه المترجم أيضا.

(20) الخيط وحدة قياس للماء كانت مستعملة في الأندلس، وقال گليك أنها ظلت لغزا لدى الدارسين، طوماس گليك، **المرجع السابق**، ص 209. ونعتقد أن الخيط هو عبارة عن قناة محددة العرض يسمح بتصريف صبيب معين في مدة محددة، وتسمى بالإسبانية **Fila**. ولاتزال كلمة الخيط تستعمل في الدارجة المغربية بمعنى صبيب الماء وكلمة الفيلة بمعنى الدور إلى يومنا هذا.

لم يأخذ أهل قرية قرص المذكورة من الماء شيء[21]. وكان لأهل قرية طرش المذكورة خاصة، ولمن بعدهم من أهل قرية قرص المذكورة وسواهم من قرى مربيطر أن يصل لأهل قرية طرش المذكورة لكونهم يأخذون الماء الأعلى فالأعلى على حسب تواصل الموارد في ذلك والأسدا[22]. ورضي جميعهم بذلك وارتفع بينهم الانتكال والتنازع.

شـ[ـهد بذلك] كله من عرفه [بنفسه ...] نصه وتحققه بحال وصفه، وحضر التواثق المذكور عن الإذن المذكور، وشاهد جميع ما ذكر فوق هذا مشاهدة تامة وتعين كلما يحتاج إلى تعـ[ـيين ...]. ذكر شهادته بذلك كله إذ سئلت منه في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة، فيه ملحق سنة وبشر (كذا) محتاجة، وملحق المذكورة، وبذلك كله صح.

محمد بن علي بن الوليد شهد، وأحمد بن علي بن الـ[...] شهد، وسعد بن علي بن خلف شهد، وصالح بن عبد السلام بن صالح شهد، وعبد الله بن عبد الرحيم بن أحمد شهد، وعبد الله ابن عبد الكريم بن شبيب شهد، وسعد بن عامر الحاج شهد، ومحمد بن ولي الله بن [...] شهد، وعلي بن محمد بن الحسن شهد، و[ليث] بن محمد بن أبي الفتح شهد، وعلي بن سعيد ابن خلف السلمي شهد، وعلي بن [أحمد] [...] شهد، ومحمد بن علي بن خلاص القضاعي شهد، ومحمد ابن إسماعيل بن [...] شهد، وموسى بن حزب الله بن شبيب شهد، ومحمد بن عبد الملك بن عبد الـ[...] شهد.

[نص العقد الثاني]

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على محمد رسوله الكريم [...].

[يشهد] الله على نفسه أنه استقل عنده رسم الاسترعاء المكتتب هذا بأسفله

(21) هكذا في الوثيقة، والصحيح شيئا.

(22) جمع سد.

واستقله استقلالا تاما بشهادة من قبل، وأجاز من شهد لله إذا سئل منه وفقه الله [...] ولليوم وبعده فأجاب إلى ذلك بعد أن اقتضاه نظره وأوجبه حـ[...].

شهد عليه وفقه الله بذلك من أشهده به في مجلس حكمه بمربيطر المذكورة و[... ـسـن] ربيع [الآخر] عام تسع عشر وستمائة عبد العزيز بن محمد بن [...] وحسان بن يوسف بن عيسى ومحمد بن إبراهيم بن سهل وعلي بن محمد بن [... الـ]ـسودود.

بحوث مترجمة

أصول تدويل طنجة

المفاوضات حول إقامة النظام الدولي 1912–1924(*)

بيير غيلان
تعريب : محمد الأمين البزاز
كلية الآداب — الرباط

كانت منطقة طنجة تكتسي في نظر القوى الأجنبية، ومنذ ما قبل خضوعها للنظام الدولي، طابعا دوليا يستلزم إدارتها بشكل مخالف لما هو عليه الأمر في باقي أنحاء الإمبراطورية الشريفة. من الحق أنها كانت ماتزال تشكل جزءا لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية، وتخضع لسيادة السلطان؛ إلا أن هذه السيادة كانت آخذة في التقلص لتصبح مجرد سيادة اسمية؛ فبجانب موظفي السلطة الشريفة، قامت في المدينة، وبالتدريج، سلطة موازية بيد القوى العظمى، تمارس اختصاصات تتسع مجالاتها باستمرار.

ترجع الدعائم الأساسية لهذا التطور إلى وجود جالية أجنبية كثيرة العدد في طنجة (حوالي 15000 شخص في العام 1914، بجانب 12000 يهودي مغربي، و40000 مغربي مسلم) تخضع في تنظيم حياتها لنظام الامتيازات والحماية القنصلية، مما جعل القسم الأكثر ثراء ونشاطا من سكانها المسلمين واليهود لا يخضع للتشريع المغربي. كان الأجانب والمحميون المغاربة تابعين للسفارات والقنصليات، الموجود مقرها وقتذاك في طنجة، وكانوا يشكلون فريق ضغط ذا نفوذ ونشاط، يدعو إلى إخراج طنجة ومنطقتها نهائيا من التشريع المغربي

(*) Pierre Guillen : «Aux origines de l'internationalisation de Tanger. Les négociations sur le Statut International. 1912-1923», in **Tanger. 1800-1956**, Faculté des lettres et des Sciences Humaines, Rabat; Ecole Sup. Roi Fahd de Traduction, Tanger, pp. 205-215.

ووضعهما، بشكل أو بآخر، تحت سلطة القوى العظمى؛ كانوا يعتبرون ذلك ضمانة لأمنهم واستقرارهم ونمو مشاريعهم.

عندما طرح في منعطف القرن ما سمي بالقضية المغربية، كان هؤلاء قد حققوا بعض المكاسب. فتحت ضغطهم، قام المخزن في 1893 بتفويض الهيئة الدبلوماسية، المنضوية داخل المجلس الصحي الدولي، مرافق المدينة المتعلقة بالحالة الصحية، وبالطرق، وبعض المصالح البلدية، وحيث أن هذا المجلس كان يرعى أنشطة لجنة أخرى، وهي لجنة الصحة والطرق البلدية، التي كانت تمارس أنشطتها بشكل غير رسمي منذ 1888، فإنه قام بتفويتها هذا التفويض مما مكنها من الحصول على اعتراف رسمي بوجودها. كانت هذه اللجنة تتكون من أعضاء يتم اختيار بعضهم من طرف القناصل، ويتم انتخاب البعض الآخر من طرف مختلف عناصر السكان. وإلى جانب الاختصاصات المفوضة لها، أضافت هذه اللجنة اختصاصات أخرى عن طريق الممارسة وسياسة الأمر الواقع، ووسعت بذلك مجال تدخلاتها الحضرية سنة بعد أخرى، بحيث كانت تجنح إلى أن تصبح نوعا من المجلس البلدي، ممارسة السلطة الفعلية، وتاركة الإدارة المغربية في المدينة على الهامش[1].

كان التقارب بين مصالح فريق الأجانب والمحميين وبين سياسة القوى العظمى يتأكد عند قيام «الأزمات المغربية». فبحكم موقع طنجة الاستراتيجي في مدخل البحر الأبيض المتوسط، وكونها عاصمة دبلوماسية للمغرب، وميناء ترسو فيه السفن، وبوابة لولوج السوق المغربية، ومقرا للعديد من الشركات والمشاريع، بحكم كل ذلك، شكلت المدينة رهانا تتنازع حوله الأطماع المتناقضة للقوى العظمى، إلا أن النزاع كان ينتهي بها إلى التعادل وتبني أطروحة التدويل.

في هذا الصدد، كان مؤتمر الجزيرة الخضراء محطة بارزة، حيث أنه حرم المخزن مما تبقى له من سلطة في المدينة. وهكذا، فقد تم إسناد الشرطة إلى طابورين برئاسة مفتش سويسري، أحدهما يقع في المجال الحضري ويؤطره الإسبان، والآخر خارج

---

(1) Jean Sibieude : «La question de Tanger», thèse Droit, Montpellier, 1927
أنظر أيضا مقالة «التايمز» (Times) بتاريخ 20 يونيو 1923 والتي أعيد نشرها في «افريقيا الفرنسية» (= AF)، يوليوز 1923.

المجال الحضري ويؤطره الفرنسيون. أما الحامية المغربية في طنجة، فقد أصبحت رمزا ليس إلا. في الوقت نفسه، انبثقت عن المؤتمر مجموعة من المؤسسات الدولية لإدارة أنشطة الميناء والحياة الاقتصادية والمالية : لجنة الجمارك، ولجنة القيم الجمركية، واللجنة الخاصة للأشغال العمومية (من أجل الأشغال الممولة بضريبة 2,5 % على المستوردات)، واللجنة العامة للمناقصة (من أجل الأشغال غير الممولة بهذه الضريبة)، ولجنة الإحصاء والضريبة الحضرية. بالإضافة إلى ذلك، أصبحت طنجة مقرا لبنك الدولة المغربية، وللإدارة العمومية للدين، وللشركة المغربية للأشغال العمومية. أخيرا، تمكنت القوى العظمى من تأكيد حق إقامة المكاتب البريدية وفتح المدارس.

بعد فرض الحمايتين الفرنسية والإسبانية، زادت آفاق النمو الاقتصادي من حدة المطامع. يتعلق الأمر بالخصوص ببناء ميناء عصري كبير في طنجة، وربط المدينة بفاس عن طريق خط حديدي لتزويدها بظهير اقتصادي. ومن ثم، تأسست في فبراير 1914 الشركة الدولية لتنمية طنجة التي حلت محل الشركة المغربية للأشغال العمومية. في الشهر التالي، تم التوقيع على استقطاع السكة الحديدية طنجة/ فاس.

لتتويج كل ذلك، بقي وضع القانون الدولي الذي كانت القوى العظمى قد اتفقت عليه من حيث المبدأ. فالاتفاق الفرنسي/ الانجليزي، في أبريل 1904، أدرج في فصله السابع نوعا من الحياد (التعهد بعدم السماح بإنشاء أية تحصينات ساحلية). ونص الفصل التاسع من الاتفاق الفرنسي/ الإسباني، في أكتوبر 1904، على أن طنجة ستحتفظ بـ«الطابع الخاص» الذي يخوله لها وجود الهيئة الدبلوماسية ومؤسستيها «الصحية والبلدية». تأكدت هذه الترتيبات من جديد في معاهدة فاس، بينما نص الاتفاق الفرنسي/ الإسباني، في نوفمبر 1912 (الفصل السابع)، على أن طنجة وضاحيتها ستزودان بنظام خاص يتم تحديده في وقت لاحق، وحُددت منطقة طنجة في مساحة قدرها 275 كم². أضف إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية أبدت موافقتها، في بلاغ رسمي، على مبدإ التدويل، وتعهدت بعدم المطالبة بنفوذ، أو مكانة، أكبر مما سيخصص لانجلترة وإسبانيا[2].

---

(2) AF, juillet 1923, p. 372

بيد أنه سرعان ما تبين أن المفاوضات ستكون صعبة بسبب الضغوط المتضاربة من طرف مختلف الجاليات. فإذا كانت الجالية الانجليزية في صالح التدويل، فإن الجالية الإسبانية كانت في صالح إدماج المدينة في منطقة الحماية الإسبانية. أما الجالية الفرنسية، فكانت تطالب بإدماجها في منطقة الحماية الفرنسية، وكانت ترى أن منطقة طنجة لا يمكن أن يقع فصلها عن باقي المغرب بالنظر إلى أهمية الدور الذي تقوم به المدينة في الحياة المغربية ومكانة الصدارة للمصالح الفرنسية فيها[3].

إذا كانت المباحثات الانجليزية/ الفرنسية/ الإسبانية، التي دارت في لندن في نهاية 1912، قد مكنت من التوصل إلى تسوية حول المبادىء العامة، فإن أشغال اللجنة، التي اجتمعت في مدريد في بداية 1913، تعثرت حول مسألة حضور الخليفة السلطاني في لجنة المراقبة الدولية، وحول نظام الانتخابات والعلاقات بين الهيئات الثلاث (الأوروبية، والمسلمة واليهودية)، وتنظيم الميزانية[4]. وبما أن الجاليات الأجنبية أوفدت إلى مدريد نوابا عنها، حاملين رغباتها بتوسيع اختصاصات المؤسسات الدولية، فإن السكان المسلمين أوفدوا بدورهم أربعة مندوبين عنهم للمطالبة بحصة عادلة للمسلمين في إدارة المدينة، وحرية ممارسة الشعائر الدينية، وحرمة الأملاك الحبسية[5]. بالموازاة مع المباحثات التي دارت في مدريد، اجتمعت في باريس لجنة خاصة من القضاة الفرنسيين والانجليز والإسبان، وأعدت نظاما قضائيا نسجت فيه على منوال المحاكم المختلطة الموجودة في مصر[6].

أثار المشروع الذي أعدته اللجنة انتقادات كثيرة. فالمغاربة احتجوا ضد تجريد النائب السلطاني من كل سلطته، والذي انحصر دوره في اختصاصات تشريفية لا غير، كما احتجوا ضد التمثيل اللامتكافىء في المجلس البلدي (أربعة ممثلين بالنسبة لـ40.000 مسلم، وثلاثة بالنسبة لـ12000 يهودي، و28 بالنسبة لـ15000 أوربي). من جهتهم، لم يقبل الفرنسيون أن يعمل الإنجليز والإسبان على تقليص

---

(3) AF, janvier 1912, p. 41
مطلب الجالية الفرنسية المجتمعة برئاسة ميشو ـــ بلير، 15 نوفمبر 1911.

(4) AF, mars 1915, p. 133

(5) AF, avril 1913, p. 171

(6) AF, mai 1913, p. 201

اختصاصات الخليفة إلى أقصى حد بدعوى أنه يمثل سلطانا محميا من طرف فرنسا، وانتقدوا مسألة إسناد الشرطة الواقعة خارج المجال الحضري للإسبان، وعدم تخصيص سوى ربع المناصب للفرنسيين في إدارة المنطقة(7). تبعا لذلك اقترحت فرنسا إدخال بعض التعديلات، وحظي اقتراحها بموافقة انجلترة، إلا أن إسبانيا تمسكت بالنص الأول(8).

أخيرا، أظهرت مختلف الأطراف استعدادها للتراضي، وتقرر عقد مؤتمر بين سفراء فرنسا وانجلترا ووزير الدولة الإسباني في مدريد يوم 10 يوليوز 1914 لاختيار النص المعدل. إلا أن بداية الأزمة الدولية، ثم اندلاع الحرب، أدى إلى تأجيل هذا المؤتمر إلى أجل غير مسمى(9).

بعد الحرب، قامت مواجهة جدلية بين الفرنسيين الذين اتهموا إسبانيا برفضها، في آخر الأمر، التوقيع على المعاهدة المحضرة لعدم رغبتها فيها، وبين الإسبان الذين أجابوا بأن إسبانيا، بتوقيعها على المعاهدة، تجازف بوضع حيادها موضع شك بسبب احتمال قيام نزاعات بين القوى المتحاربة في الإدارة الدولية لطنجة(10).

خلقت الحرب الفرصة أمام فرنسا للطعن في مبدإ التدويل، وتتلخص أطروحتها في كون ألمانيا هي التي كانت قد فرضت هذا المبدأ، والحالة أنه أصبح باطل المفعول بعد هزيمتها وفقدانها كل حقوقها في المغرب وفي المسألة المغربية. زيادة على ذلك، وبالنظر إلى أن المغرب أعلن الحرب على ألمانيا، فقد قام السلطان بمصادرة كل الممتلكات الألمانية وطرد جميع الألمانيين الموجودين في طنجة، مما يدل دلالة قاطعة على استمرار نفوذ سيادته المطلقة في المنطقة. وبما أن فرنسا هي حامية السلطان، فإن الحماية الفرنسية ينبغي أن تمتد إلى المنطقة. أما بخصوص إسبانيا، التي وقفت في حياد غامض، ولم تنضم إلى معكسر الحلفاء، فلم تبق لها حجة لتبرير «حقوقها» ومصالحها في المغرب.

في البداية، شُنت الحملة من طرف الجالية الفرنسية في طنجة، وتم تنظيمها

(7) AF, août 1913, p. 306-307

(8) Sibieude, o.c., p. 22

(9) AF, juin 1914, p. 330

(10) AF, sept. - oct. 1919, p. 294, mai 1922, p. 261-162

بدعاية صاخبة، منذ ربيع 1918، من طرف لجنة افريقيا الفرنسية تحت شعار إعادة تحقيق الوحدة المغربية : ينبغي أن تتخلى إسبانيا عن منطقتها لفرنسا، وينبغي أن تكون طنجة، تلك المدينة الشقية التي كانت ضحية للدبلوماسية الدولية، من نصيب فرنسا، لأن النظام الذي تم تحضيره في 1914 غير قابل للتطبيق، إن العمل بنظام التدويل سيكون صعبا ومن شأنه تكريس حالة الركود الذي تعاني منه طنجة وعرقلة نمو الأنشطة الاقتصادية. لقد تمكنت ألمانيا خلال الحرب، وبسبب الغموض المحيط بالوضع القانوني للمدينة من جعلها قاعدة لمناوراتها ضد فرنسا؛ وفي حالة تدويل طنجة، فإنها ستصبح مركزا للمؤامرات والدسائس الموجهة ضد منطقة الحماية الفرنسية. أخيرا اعتبرت الحملة أن إسبانيا قد خالفت قواعد الرهان، وعبرت عن آمال الفرنسيين في أن تتراجع انجلترة عن مبدإ التدويل كعربون جديد على وحدة البلدين، تلك الوحدة التي توثقت عراها خلال الحرب[11].

بعد الإعلان عن الهدنة، صوتت الجالية الفرنسية في طنجة على عريضة طالبت فيها بعدم فصل المدينة عن باقي المغرب : «إن الانتصار ينبغي أن يفرز واقعا جديدا مبنيا على الحق، ولا يمكن لمصير طنجة، الذي ظل معلقا، أن يتوقف على الماضي الذي تجاوزته الحرب»[12]. وكان على مؤتمر الصلح، بالنسبة للحزب الاستعماري، أن يعمل على إعادة تحقيق وحدة المغرب. وتحسبا للمفاوضات التي تقرر الشروع فيها من أجل تحضير معاهدات الصلح، فقد دُعّم هذا الموقف بحجج مفصلة من طرف روبير رينو (Rober Raynaud)، وهو عضو ذو نفوذ وسط الجالية الفرنسية في طنجة وفي لجنة المغرب. وفي التقرير الذي قدمه أمام لجنة الدراسات للقضايا الاستعمارية التي طرحتها الحرب، أسهب روبر رينو في تعداد أهمية المصالح الفرنسية الموجودة في طنجة (المرتبة الاولى في الميدان التجاري؛ وثاني جالية من حيث العدد، لكنها الأولى من حيث أنشطتها ونفوذها؛ وثلاثة أرباع الأملاك العقارية؛ والمجموع الكلي تقريبا للأبناء؛ وإدارة المصالح العمومية والاحتكارات)، متذرعا بمصلحة الشعب المغربي : «إن إخلاصه وتضحياته خلال الحرب يستوجب ضرورة الاستجابة لرغبته في تحقيق وحدته السياسية»[13].

---

(11) AF, janvier - mars 1918, p. 61

(12) عريضة 15 نوفمبر 1918 : AF, déc. - 1918, p. 433-434

(13) Renseignements coloniaux (= R.C.) 1918, n° 12, p. 234-239

تبنت الفعاليات المختلفة للحزب الاستعماري المطالب الواردة في تقرير رينو، وشنت حملة من أجل الضغط على السلطات العمومية : «هناك حركة عامة تثبت أن البلاد تقف وراء الطموحات المغربية التي قدمتها فرنسا للمؤتمر»[14]. بالفعل، حظي موقف الحزب الاستعماري بكفالة الزمن (Le temps)[15]، وأصبح الموقف الرسمي للحكومة الفرنسية. وقد قام بعرضه برتي دي لا روكا (Peretti de la Rocca) (نائب مدير افريقيا في الكي دورساي) في مجلس العشرة خلال جلسة 25 فبراير 1919 المخصصة لمراجعة المسألة المغربية، والتي طالبت بها فرنسا[16] : «ينبغي أن يكون لنا مغرب صرف بمعنى، وبشرط المساواة التجارية، «مغرب محرر من كل هذا الركام الدبلوماسي الذي تعمل ألمانيا بواسطته على عرقلة مسيرتنا». إن إلغاء الرهونات الدولية يطرح مسألة طنجة التي كانت دائما خاضعة لسيادة السلطان. وإن الحق الذي يتمسك به هذا الأخير لضم هذه المدينة السلطانية إلى منطقة الحماية الفرنسية منصوص عليه في كل المعاهدات. إن الهزيمة الألمانية وانتصار الحلفاء يفرضان ضرورة إلغاء معاهدات 1906 و1909 و1911، مما يستلزم تحرير طنجة من الهيئة الدولية «التي قد تعود ألمانيا إلى الاستقرار [في طنجة] تحت غطائها». لقي الموقف الفرنسي هذا تأييدا من طرف الأمريكيين، إلا أن الانجليز بينوا أنه لا يمكن تقرير مصير طنجة في غياب إسبانيا التي لم تشارك في مؤتمر الصلح[17].

من جهتهم، ورداً على الادعاءات الفرنسية، طالب الإسبان بدورهم بإدماج طنجة في منطقة حمايتهم. وتحت تأثير الحملة، التي شنتها ابتداء من 1919 الجبهة الإفريقية (La ligne africaniste)، والجمعية الجغرافية لمدريد، والغرف التجارية، والجالية الإسبانية في طنجة[18]، تذرعت الأوساط السياسية بالحقوق التاريخية،

---

(14) AF, mars - avril 1919, p. 80

(15) Le Temps, 22 déc. 1918

(16) طالبت الحكومة الفرنسية على الخصوص بإلغاء عقد الجزيرة الخضراء وبالضمانات ضد عودة ظهور ألمانيا في طنجة.

(17) «المغرب أمام مؤتمر الصلح» : AF, fév. 1919O, p. 18

(18) René Thlerry : «L'Afrique de demain», AF sept. - oct. 1919, p. 261; Rober Raynaud : «La question de Tanger», **ibidem**, p. 279-281; R.C. 1919, n° 9-19, p. 157-163-171, n° 11-12, p. 201; janvier 1920, p. 13

والحضور المكثف على الصعيدين اللغوي والثقافي، وبمكانة إسبانيا في الملاحة والتجارة، وبالجالية الأكثر عددا[19]. في مرحلة أولى، تمسكت الحكومة الإسبانية بالرفض القاطع للادعاءات الفرنسية وبالمحافظة على الترتيبات المنصوص عليها في العام 1912[20]. إلا أنها تنازلت أمام الضغط، وأعلنت عن موقفها بإدماج طنجة في المنطقة الإسبانية. وحول هذه المسألة، شارك كثير من البرلمانيين الإسبان في مظاهرة جرت في سبتة، ثم في طنجة، خلال يوليوز 1920[21].

تجاه المطامع الفرنسية والإسبانية، واصلت انجلترا دفاعها عن مبدإ التدويل، آخذة بعين الاعتبار الأهمية الاستراتيجية لطنجة، الواقعة تجاه جبل طارق، والتي وقع التنبيه إليها من جديد من طرف القيادة البحرية العليا : إن طنجة [حسب الأطروحة الانجليزية] لا يمكن أن تبقى تحت سيادة السلطان، المحمي الفرنسي، بل ينبغي تزويدها بالنظام الدولي المنصوص عليه قبل الحرب، والذي تعهدت به فرنسا[22]؛ يضاف إلى هذا دور طنجة بالنسبة للخطوط الملاحية البريطانية وللتجارة الانجليزية في المدينة؛ إن قيام نظام دولي مستوف للأصول من شأنه أن يعمل على تكريس حياد طنجة وتدويلها؛ إن هذا النظام سيضع حدا للمطامع المتنافسة لكل من فرنسا وإسبانيا، وكذلك لحالة الفوضى واللامبالاة، ويعيد الثقة للمستثمرين، وسيمكن من تمويل التجهيزات اللازمة لنمو المدينة[23].

---

(19) «اسبانيا والمغرب» (AF, sept., oct., 1919, p. 19-24). «السياسة الإسبانية في المغرب» م.ن.، أبريل 1919، ص 19–24. «السياسة الإسبانية في المغرب» م.ن.، مارس ــ أبريل 1919، ص 89. «إسبانيا والمسألة المغربية»، م.ن.، نوفمبر ــ دجنبر 1919، ص 363. مارس ــ أبريل 1919، ص 72–73 (نص عريضة حول طنجة تقدمت بها العصبة الإفريقية). توجد أيضا إشارات كثيرة حول هذه الحملة في «افريقيا الفرنسية» (AF)، الأعداد فبراير، ومارس ويوليوز، وغشت 1920.

(20) خطاب الكونت دي رومانونس (Romanonès) في الكورتس، 21–1–1919 : AF, janvier - fév. 1919, p. 71.

(21) تدخل سفير اسبانيا ميري دلبال (Merry Delval) بهذا المعنى في جريدة التايمز (Times) وأمام : La Royale Geographical Society.

(22) Rober - Raynaud : «La question de Tanger», Un projet de Statut, AF, fév., 1920, p. 57-58

(23) «مسألة طنجة وموقف انجلترة» : AF, fév. 1920, p. 81-82

أمام المعارضة الصارمة لانجلترة وإسبانيا، لم تجد فرنسا بدا من تليين موقفها : فلم تعد تطالب بإدماج طنجة في منطقة حمايتها، وأظهرت استعدادها لأن تعترف لها بنظام خاص. إلا أن النظام الخاص لا يعني التدويل، وإنما مجرد ضمانات من أجل «الحياد الاستراتيجي»، والحرية التجارية، ومختلف مصالح الجاليات الأجنبية، وهذا دون أن يؤدي إلى المس بسيادة السلطان. للدفاع عن وجهة النظر هاته، والحيلولة دون التدويل، قامت شخصيات مختلفة من الأوساط السياسية والاستعمارية بتأسيس لجنة فرنسا ـــ طنجة، في مارس 1921، تحت رعاية لجنة المغرب. وبمجرد تأسيسها، وضعت لجنة فرنسا ـــ طنجة، ونشرت، خريطة للميناء الجديد وللتجزئات الأرضية المصممة، وتبين منها أن أراضي المدينة الجديدة، التي ستكون عليها طنجة مستقبلا، توجد في أغلبها بيد الفرنسيين.

تم عرض هذه الأطروحة الفرنسية الجديدة بتفصيل في غرفة النواب عند مناقشة ميزانية المغرب[24]. من جانبها، فإن الجالية الفرنسية في طنجة، على لسان عميدها ميشو بلير، واقتراحات الغرفة التجارية، أكثرت من تقديم التصريحات. كذلك، تم إقحام المغاربة : وهكذا فقد ذكر باشا طنجة بتعلق سكان المدينة المغاربة بالسلطان وحكومته، وأكد الصدر الأعظم، المقري، من جديد أن طنجة تشكل جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية الشريفة التي تربطها بها روابط متعددة، لا ينفصم عراها، وأنه لا يمكن فصلها عنها[25].

في لندن، لم تحظ المذكرة المتضمنة للاقتراحات الفرنسية، والتي وُجّهت في مارس 1921، بما يلزم من القبول إلى حد أن الخارجية البريطانية رفضت مناقشتها[26]. وكما أعادت هذه الأخيرة تأكيده سنة فيما بعد، فإن السياسة البريطانية لم يطرأ عليها تغيير منذ 1912 : وضع طنجة ومنطقتها تحت إدارة دولية[27].

---

(24) تم الإعلان عن تحول الموقف الفرنسي منذ بداية صيف 1919 : AF, mai - juin, 1919, p. 162 وقدمت إيضاحات في الموضوع في الأشهر التالية :

AF, fév. 1920, p. 58; mai 1921, p. 78-80; sept. 1921; p. 278; nov. 1921, p. 350.

(25) AF, sept. oct. 1920, p. 276-280

(26) AF, avril 1923, p. 81; Sibieude, ... o.c., p. 85

(27) تصريحات نائب كاتب الدولة في الخارجية البريطانية أمام غرفة العموم، بتاريخ 13 نوفمبر 1922 : AF, mars 1922, p. 154.

من جهتها، قررت إسبانيا، وبدون الحصول على إذن، إقامة حبل تلغرافي بين طنجة والعرائش، ومزربة للصيد في مياه طنجة، لتظهر بذلك رفضها الاعتراف بسلطة مخزن أصبح يدور في فلك السياسة الفرنسية. وفي مدريد، أكد وزير الدولة أن الأمور تسير نحو قطيعة مع فرنسا حول طنجة. وذكر رئيس المجلس بقوة بأن إسبانيا لا يمكنها أن تسمح لفرنسا بممارسة مراقبتها على طنجة[28]. بيد أن اندلاع حرب الريف جعل أغلبية الأوساط السياسية تتخلى عن المطالبة بـ«طنجة لإسبانيا»، ومنذئذ أصبحت الحكومة الإسبانية تساند أطروحة التدويل[29].

كان ذلك بمثابة النفق المسدود، لأن الحكومة الفرنسية، الخاضعة لضغوط الأوساط الاستعمارية، ظلت ترفض سماع أي شيء عن التدويل. وفي بداية 1922 أكد من جديد رئيس المجلس ووزير الخارجية برياند (Briand) عدم تساهل فرنسا حول هذه المسألة، وذلك على إثر تنبيه وجهه إليه رئيس الفريق البرلماني للمغرب ونائبه[30].

بعد أن أصبحت مسألة طنجة معلقة على صعيد الحكومات، فإنها عرفت تطورا تحت ضغط الحاجيات الاقتصادية. فالشركة الدولية لتنمية طنجة، التي كان عليها التكفل بأشغال الميناء، حصلت من الحكومة المغربية في يونيو 1921، على عقد الامتياز. إلا أن الانجليز والإسبان، المدعمين من طرف الأمريكيين، احتجوا، معتبرين الامتياز جد مؤات للفرنسيين، وتمكنوا في يونيو 1922 من حمل الهيئة الدبلوماسية على إلغائه[31]. كذلك، تم تعليق تأسيس الخط الحديدي بين طنجة وفاس وبناء الطرق المبرمجة بسبب المنافسة وغموض النظام الخاص بطنجة. لذلك، فإن الغرف التجارية في طنجة، والأوساط الاقتصادية المهتمة بتنمية المدينة، أكثرت من تقديم احتجاجاتها : إن هذه الحالة لا يمكن أن تستمر لمدة أطول، فالمدينة مهددة بالاختناق، وعلى الحكومات أن تتوصل إلى اتفاق فيما بينها[32].

---

(28) AF, mai 1921, p. 137-138, 144, déc. 1921, p. 407-413

(29) AF, sept. 1921, p. 278, avril 1922, p. 181

(30) AF, janvier 1922, p. 23

(31) AF, juillet et sept. 1921, p. 174, 224, 278, juillet 1922, p. 344

(32) AF, novembre 1920, p. 317-318, avril 1921, p. 119

ظلت هذه الحكومات تتماطل، وطيلة أشهر عديدة، وكانت المقترحات الفرنسية، التي تم توجيهها إلى لندن في دجنبر 1921، قد قوبلت بالرفض إذ من شأنها أن تؤدي، حسب الخارجية البريطانية، إلى إدماج مقنع لطنجة في منطقة الحماية الفرنسية، والحالة أن موقف انجلترة لم يطرأ عليه أي تغيير : إن سيادة السلطان لا يمكن أن يسري مفعولها في طنجة إلا عن طريق الهيئة الدبلوماسية[33].

في مؤتمر كان (Cannes)، المنعقد في يناير 1922، حاول برياند التوصل إلى تفاهم مع انجلترة، إلا أن هاته رفضت في الأخير التفاوض بدون إسبانيا[34]. في الشهر التالي، تم الاتفاق على عقد مؤتمر ثلاثي، إلا أن تدهور العلاقات الفرنسية/ البريطانية في مؤتمر جنوة أدى إلى تأجيل الاجتماع[35].

أثار بوان كاري (Poincaré) المسألة من جديد خلال سفره إلى لندن، وطالب بأن يكون السلطان ممثلا في المؤتمر، الأمر الذي رفضته انجلترة. هناك إشكالية أخرى، : فقد طالبت إيطاليا بالمشاركة في المؤتمر، بينما وقف بوان كاري معارضا.

أمام الجبهة الإنجليزية/ الإسبانية/ الإيطالية لصالح التدويل، استندت فرنسا على الحكومة المغربية. ففي تصريح مؤرخ في 14 يوليوز 1922، احتج الصدر الأعظم ضد أي محاولة لتدويل المدينة والتي من شأنها أن تلحق مساسا بسيادة السلطان ووحدة المغرب[36].

أخيرا، وفي أعقاب مساع جديدة جرت في أبريل 1923، انعقد المؤتمر الثلاثي في لندن يوم 29 يونيو[37]. ومن الجانب الفرنسي، كان ممثل الكي دورساي مرفوقا بالكاتب العام للحماية وبالسي قدور بن غبريط، ممثل السكان المسلمين[38].

---

(33) AF, juillet 1922, p. 354

(34) AF, janvier 1922, p. 23

(35) AF, mars 1922, p. 152, juin

(36) AF, juillet 1922, p. 344-346, 353-355

(37) AF, avril 1923, p. 180-181

(38) AF, juin 1922, p. 272-273

اصطدم المشروع الفرنسي (إعادة تأكيد سيادة السلطان مع بعض القيود لتقديم الضمانات الاستراتيجية والاقتصادية التي كانت تطالب بها انجلترة وإسبانيا) بالمعارضة الصارمة لانجلترة التي طالبت بالتدويل بمساندة إسبانيا (تعيين مفوض سام من طرف عصبة الأمم يكون له في منطقة طنجة نفس الاختصاصات التي يقوم بها المقيم العام في منطقة الحماية الفرنسية)[39]، ولم يتفق الإنجليز والفرنسيون إلا على إقصاء إيطاليا، وكانت هذه قد عادت إلى المواجهة معتبرة أن الأمر يتعلق بمسألة متوسطية أكثر منها مغربية، وأن من حقها المشاركة فيها، وعززت مطلبها هذا بإرسال سفينة حربية إلى طنجة وإنزال 12 عسكريا[40].

بيد أن زوال التوتر في العلاقات الفرنسية/ البريطانية بصدد منطقة المرور، والذي لاحت بوادره خلال الصيف، مهد السبيل لإيجاد تسوية بين لندن وباريس. وهكذا، فقد قُدّم مشروع فرنسي جديد، وتم تعديله والموافقة عليه من طرف انجلترة. وعلى الرغم من أن إسبانيا كانت متحفظة، فإن المفاوضات التي استئنفت في باريس، في أكتوبر 1923، أفضت إلى التوقيع على القانون الدولي في 18 دجنبر[41].

أكدت المعاهدة سيادة السلطان (تنازل كبير من قبل انجلترة)، وخولت لنائبه وموظفيه إدارة أمور السكان المغاربة، بينما أخضعت أمور الجاليات الأجنبية لإدارة دولية (تنازل كبير من قبل فرنسا) متكونة من متصرف (تقرر أن يكون فرنسيا)، ومتصرف مساعد (إسباني)، ولجنة المراقبة (المتكونة من نواب القوى العظمى)، ومجلس تشريعي دولي منتخب من طرف مختلف عناصر السكان. وتقاسم الفرنسيون والإسبان المصالح العمومية وتأطير هيأة الشرطة والدرك التي كانت تحت رئاسة بلجيكي؛ كما أن المعاهدة حددت توزيع الحصص في رأسمال شركة ميناء طنجة[42].

عمت إسبانيا موجة كبيرة من الاستياء تجاه القانون الدولي الذي لم يوقع عليه

---

(39) AF, juillet 1923, p. 399-400

(40) Sibieude, o.c., p. 87; août et sept. 1923, p. 424-482

(41) AF, octobre, novembre, décembre 1923, p. 564-566, 575, 656

(42) AF, décembre 1923, p. 657

مفاوضوها إلا بشرط عرضها على الاستفتاء، ومنذ 10 يناير 1924، طالبت حكومة بريمو دي ريفرا (Primo de Rivera) بمراجعة المعاهدة بغية تقوية مكانة إسبانيا في إدارة المنطقة وتوسيع حدود سبتة ومليلية[43]. بيد أن انجلترة، الراغبة في التوصل إلى تسوية عاجلة، ونهائية، للمسألة، مارست ضغوطها على الحكومة الإسبانية لتعمل على التخفيف من مطالبها، كما أن فرنسا قدمت بعض التنازلات. وفي 7 فبراير 1924 تم التوقيع على الرسائل الملحقة بمعاهدة 18 دجنبر[44].

من أجل أن يدخل القانون الدولي في حيز التنفيذ، بقي الحصول على موافقة الدول الأخرى الموقعة على ميثاق الجزيرة الخضراء، وعلى تخليها عن نظام الامتيازات. والحالة أن الكثير منها، خاصة بلجيكا، والبرتغال، والولايات المتحدة، وإيطاليا، اعتبرت أن التدويل غير كاف، وأن المكانة المخصصة لفرنسا قد تجاوزت الحدود، ورأت، بالتالي، أن الضمانات المتعلقة بالحرية التجارية وبالمساواة الاقتصادية غير كافية. يضاف إلى ذلك استياء إيطاليا من إبقائها على الهامش[45].

من جهة أخرى، فإن تشكيل المؤسسات الدولية المنصوص عليها سار ببطء كبير (تعيين المحكمة المختلطة، ووضع المدونات القانونية، واختيار الممثلين عن مختلف عناصر السكان في المجلس التشريعي — 17 أوروبيا، و6 مسلمين، و3 يهود، وأعضاء لجنة المراقبة). وبعد الإعلان عن تحديد تاريخ دخول النظام الدولي حيز التنفيذ في فاتح دجنر 1924، وقع تأجيله مرارا. ولم يبدأ العمل به إلا في فاتح يونيو 1925[46].

---

(43) كانت المطالب الإسبانية هي التالية : تعزيز سلطات المتصرف المساعد الإسباني المكلف بالحالة الصحية، وكذلك سلطات المهندس الإسباني المكلف بالأشغال العمومية، والتعهد بأن يخلف إسباني زميله الفرنسي على رأس الإدارة بعد مرور عشر سنوات، والمصادقة على الأنظمة المتعلقة بالمتجنسين والمحميين الإسبان، وتعيين مراقب إسباني في إدارة الجمارك، وتخويل إسبانيا السلطة القضائية في طنجة على المغاربة المنحدرين من المنطقة الإسبانية.

(44) حصلت إسبانيا على ما يلي : المحافظة لمدة اثنتي عشرة سنة على امتيازات الأسقف الإسباني في طنجة، وإثبات لائحة المتجنسين والمحميين، وتعيين كشاف إسباني في مصلحة الجمارك، وتأكيد حق الامتياز لإسبانيا في التلفون والكهرباء، والمساندة الفرنسية لدى السلطان من أجل تقويم بسيط في حدود سبتة ومليلية : AF, février 1924, p. 83-87.

(45) مذكرة موصوليني إلى القوى العظمى بتاريخ 24 دجنبر 1923 : AF, janvier 1924, p. 72

(46) AF, janvier à juin 1925, p. 32, 102, 156, 163, 213, 295

مع ذلك لم يتم تدليل كل العقبات، كما ظهرت مشاكل جديدة، خاصة المرتبطة منها بحرب الريف، وطالبت إسبانيا وإيطاليا بفتح مفاوضات جديدة من أجل مراجعة المعاهدة، الأمر الذي تمت الاستجابة إليه، و لم يوقع على نص النظام الدولي المعدل إلا في 25 يوليوز 1928، بينما ظلت الولايات المتحدة ترفض إعطاء موافقتها عليه[47].

(47) كانت إسبانيا تهدد، إذا لم يتم الاستجابة لمطالبها، بمعارضة دخول ألمانيا في عصبة الأمم. وقد طالبت في البداية بأن تخضع منطقة طنجة للعصبة على أساس أن تسند إليها المأمورية. إلا أنها اكتفت في الأخير بتعيين ضابط إسباني مفتشا عاما للشرطة والأمن، وضابط آخر رئيسا للدرك. أما بخصوص إيطاليا، التي كانت قد وجهت وحدة بحرية إلى طنجة في نهاية أكتوبر 1927، فإنها حصلت على مقعد إضافي في المجلس التشريعي، وأصبح من حق أحد أعضائها تولي منصب نائب للرئيس في هذا المجلس، كما حصلت على منصب مدير مساعد مكلف بالشؤون القضائية وعلى منصب آخر في المحكمة الدولية، هذا بالإضافة إلى حقها في المشاركة في المراقبة البحرية.

دراسات وعروض ببليوغرافية

تطور منشورات كلية الآداب بالرباط
1957 - 2000م

عمــر أفــا
كلية الآداب ــ الربــاط

I ــ بداية الإصدار :

منذ السنوات الأولى لاستقلال المغرب تأسست **كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط**[1] لتحل محل **معهد الدراسات العليا المغربية** L'Institut des Hautes Etudes Marocaines[2] فبادرت بإصدار المنشورات التي كان يتولى نشرها مثل **دفاتر علم الاجتماع** Les cahiers de sociologie؛ كما تولّت إصدار مجلة **هسبريس تمودا**[3] Hesperis - Tamuda منذ سنة 1960 والتي استمر إصدارها إلى اليوم.

وكانت عمليات النشر قبل الاستقلال موكولة في أغلبها إلى أجهزة الحماية الفرنسية بالمغرب خاصة منها «**البعثة العلمية**» La mission scientifique[4] ثم

(1) تأسست كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 1957م موافق 1376هـ.

(2) تأسس معهد الدراسات العليا المغربية سنة 1920، ثم في سنة 1921 وقع إدماج المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية في هذا المعهد، انظر :

Bulletin de L'institut des Hautes Etudes Marocaines, 1920, (F. 229, Faculté des Lettres Rabat).

(3) صدر العدد الأول من مجلة هيسبريس Hésperis سنة 1921 وأدمجت مع مجلة تمودا سنة 1960.

(4) تأسست «البعثة العلمية للمغرب» بطنجة سنة 1904 على يد لوشاطليي من كوليج فرنسا ضمن أجهزة الاستعمار الفرنسي وأعطيت الشخصية القانونية في 1913/10/11 ثم أدمجت في إطار معهد الدراسات العليا المغربية بعد تأسيسه مباشرة.

«المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية» L'Ecole Supérieure de Langue Arabe et de Dialectes Berbères، ثم معهد الدراسات العليا المغربية المذكور.

فكانت عمليات الإصدار في الكلية متواضعة بحيث كانت العناية موجهة للجانب العملي الذي يسعى لترسيخ تقاليد البحث العلمي على أساس المناهج الدراسية الحديثة وتخليص البحث من آثار عهد الحماية، وقد تم بدءاً من سنة 1967 الشروع في تعريب بعض التخصصات الهامة مثل التاريخ والجغرافية ثم الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس. وظلت تصدر بعض المنشورات بصفة دورية بإشراف بعض الأساتذة المتطوعين.

II ــ تأسيس مصلحة خاصة بالمنشورات :

ابتداء من سنة 1977 وقع الاهتمام بالمنشورات بشكل متميز وأدرك عمداء هذه الكلية[5] مدى ما يستحقه النشر من رعاية نظراً لما يقدمه من تعزيز قوي لخطوات البحث العلمي في رحاب الجامعة، وما له من فعالية في تنمية المجتمع المغربي في مختلف المجالات.

وقد تأسست «مصلحة النشر» سنة 1980 لمتابعة أعمال الطبع بعدما ازداد عدد هذه المنشورات واحتاج إلى مصلحة خاصة.

وقد حققت هذه المصلحة ذروة إنتاجها في السنوات الأخيرة حينما دخلت الكلية في إطار برنامج التعاون مع مؤسسة كونراد أديناور الألمانية منذ أكتوبر سنة 1985 لمدة اثنتي عشرة سنة، ووقع تجديد العقد مؤخراً إلى عام 2000، وكان دور هذه المؤسسة يقتصر على توفير الدعم المادي لكثير من منشورات الكلية بدون قيود.

وتزامن نمو منشورات كلية الآداب بالرباط مع تزايد عدد كليات الآداب بالجامعات المغربية، التي نما عددها، من كلية واحدة سنة 1957 إلى أربع عشرة

---

(5) ولئن كان الاهتمام بصدور بعض المنشورات برعاية عمداء الكلية السابقين. غير أن تطوير مجال النشر انطلق برعاية الأساتذة العمداء محمد القبلي وتبعه في نفس الرعاية محمد حجي الذي أسس «مصلحة النشر» ثم حسن مكوار وعبد الواحد بن داود ثم سعيد بنسعيد العلوي في الوقت الراهن.

كلية سنة 1995[6]، وتزايدت تبعاً لذلك أفواج الباحثين من مختلف التخصصات في الآداب والعلوم الإنسانية، وقد اتسعت آفاق هذه العلوم، فكان إيجاد الكتاب الجامعي ضرورة ملحّة.

III ــ شروط إنتاج المنشورات :

أنتجت الكلية منشوراتها في إطار شروط استطاعت أن تضمن تقديم أحسن إنتاج في مجال البحث الجامعي، من بين هذه الشروط :

1 ــ عرض هذا الإنتاج على لجن متخصصة قبل الموافقة على نشره.

2 ــ الحرص على أن تستوعب المنشورات مختلف فروع العلوم الإنسانية بإحداث ست سلسلات، وثلاث مجلاّت (نذكرها في آخر هذه المقدمة).

3 ــ اختيار أحسن دور للطباعة والنشر، مع التشدد في تقنية إخراج الكتاب علميّاً وفنّياً.

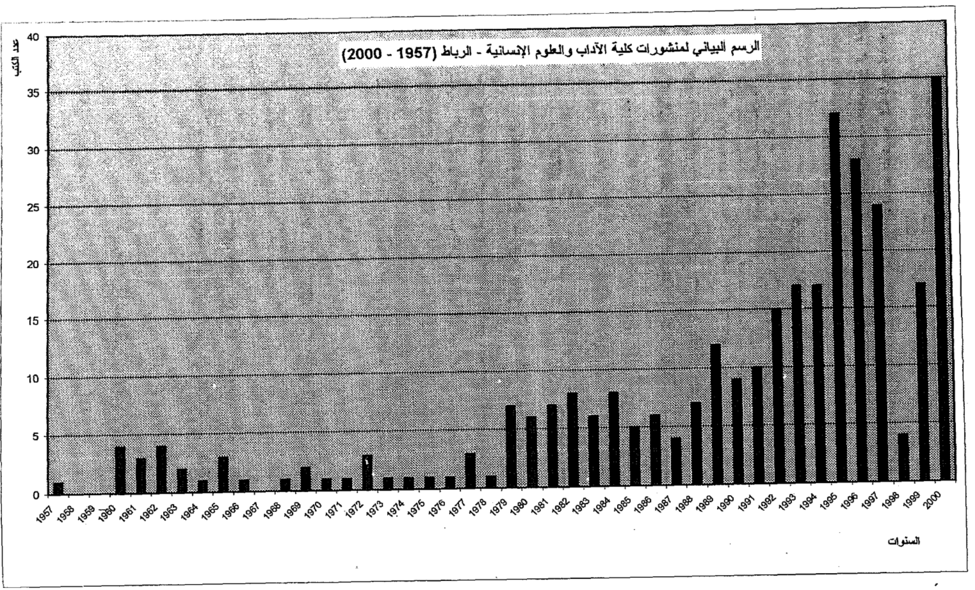
4 ــ تزويد مصلحة النشر بفريق مؤهل من الباحثين وموظفي الكلية للسهر بتفان على مراجعة أعمال الطبع وتحقيق أحسن المواصفات، ضماناً للإنتاج العلمي الرفيع، وضماناً للجاذبية التي يحتاج إليها الكتاب في عالم اليوم.

IV ــ تقريب الكتاب الجامعي من مختلف الفعاليات الثقافية :

في إطار ضيق آفاق توزيع الكتاب، ومحدودية وسائل التوزيع، ورغبة من الكلية في تقريب الكتاب الجامعي إلى مختلف الشرائح الثقافية من أساتذة ومن طلبة باحثين، أنشأت هذه الكلية وحدة متنقلة للإشراف على معرض لتسويق المنشورات، خلال زيارات دورية لأغلب كليات الآداب بالمغرب، وتعزز هذا التقريب الجغرافي بتقريب آخر اقتصادي، حيث تمنح في هذه المعارض تخفيضات للأساتذة والطلبة تبلغ أحياناً 50 % في أغلب المنشورات، تشجيعاً لعمليات الاقتناء الهادف إلى خدمة البحث العلمي الجامعي.

---

(6) انظر التوزيع الجغرافي لكليات الآداب بالمغرب، مع ترتيبها حسب التأسيس في **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات الآداب بالمغرب 1961-1994**، منشورات كلية الآداب 1995، ج 1، ص 9-10.


الرسم البياني لمنشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط (1957 - 2000)
عدد الكتب
0
5
10
15
20
25
30
35
40
السنوات
1957
1958
1959
1960
1961
1962
1963
1964
1965
1966
1967
1968
1969
1970
1971
1972
1973
1974
1975
1976
1977
1978
1979
1980
1981
1982
1983
1984
1985
1986
1987
1988
1989
1990
1991
1992
1993
1994
1995
1996
1997
1998
1999
2000



المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة دراسات ببليوغرافية رقم 7

دليل الأطروحات والرسائل الجامعية

المسجلة بكليات الآداب بالمغرب





أشرف على إنجازه :
عمر أفا

صدر من هذا الدليل أربعة أجزاء

٧ ــ النتائج والآفاق :

وفيما يلي بعض النتائج والآفاق.

من حيث الكم بلغ عدد المؤلفات التي طبعت في مختلف التخصصات إلى سنة 2000 حوالي 300 مؤلف، أي ما يقرب من 600 ألف نسخة. أكثر من 80 % منها طبع خلال الثمانينيات والتسعينيات، وبلغ الإنتاج قمته في بعض السنوات حيث بلغ سنة 1995 **اثنين وثلاثين مؤلفاً**، أي ما يناهز 64 ألف نسخة، وهذا التراكم الكمي جعل الكلية تزيد من حجم المخازن مراراً.

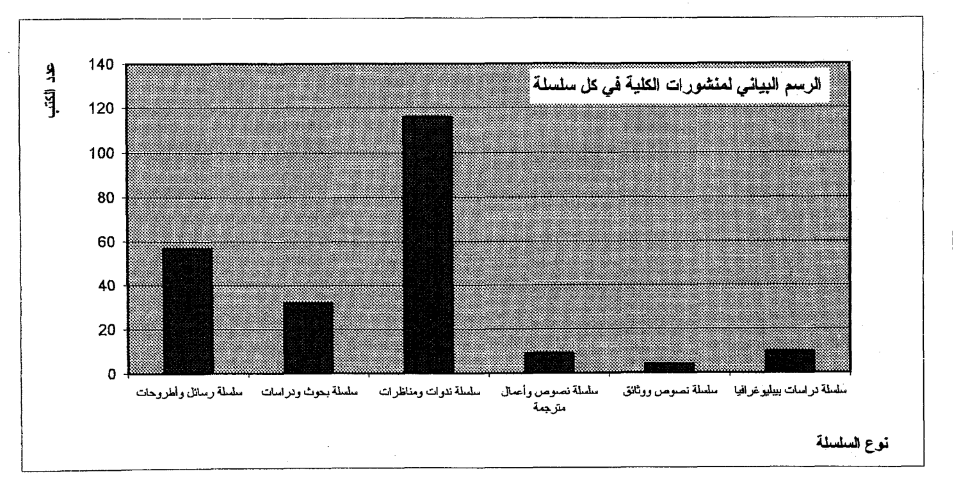
ومن حيث المضمون أصدرت الكلية ست سلسلات وثلاث مجلاّت، تستوعب، بمختلف اللغات، مختلف التخصصات في مجال العلوم الإنسانية :

1 ــ سلسلة **رسائل وأطروحات** طبع ضمنها 57 مؤلفاً.
2 ــ سلسلة **بحوث ودراسات** طبع ضمنها 32 مؤلفاً.
3 ــ سلسلة **ندوات ومناظرات** طبع ضمنها 116 مؤلفاً.
4 ــ سلسلة **نصوص وأعمال مترجمة** طبع ضمنها 9 مؤلفات.
5 ــ سلسلة **نصوص ووثائق**، طبع ضمنها 4 مؤلفات.
6 ــ سلسلة **دراسات بيليوغرافية** : 10 مؤلفات.

بالإضافة إلى ثلاث مجلات تشمل أغلب التخصصات واللغات :

1 ــ **مجلة كلية الآداب بالرباط**، الأعداد 1 إلى 23.
2 ــ **مجلة هسبريس تمودا**، الأعداد من 1 إلى 36.
3 ــ **مجلة اللغات والآداب**، الأعداد من 1 إلى 16.

وتشكل كتب الندوات قرابة 50 % من مجموع المؤلفات الأخرى، بينما تشكل الأطروحات الجامعية حوالي 25 % من مجموع المؤلفات، مما يبين مدى التركيز على أهمية البحث العلمي في مرفقين حيويين يستقطبان مختلف الفعاليات والأنشطة العلمية وهما مجال الندوات ومجال إنجاز الرسائل والأطروحات الجامعية، وقد أصدرنا بخصوص دليل الرسائل والأطروحات الجامعية أربعة أجزاء والجزء الخامس تحت الطبع مع الامتداد إلى كل المجالات الأخرى المهتمة بالإنتاج المعرفي.



الرسم البياني لمنشورات الكلية في كل سلسلة
عدد الكتب
140
120
100
80
60
40
20
0
سلسلة رسائل وأطروحات
سلسلة بحوث ودراسات
سلسلة ندوات ومناظرات
سلسلة نصوص وأعمال مترجمة
سلسلة نصوص ووثائق
سلسلة دراسات بيبليوغرافيا
نوع السلسلة

VI ـ إسهام الكلية في مجال التنمية إلى جانب الكليات الأخرى :

إن اعتبار المكننة والآليات الاقتصادية الصرفة، وكل معطيات التكنولوجيا، هي وحدها عماد التنمية، يعتبر توجُّها متجاوزاً، لأنه يغيِّب الموارد البشرية والأرصدة المعرفية التي بدونها تبقى كل المعطيات المذكورة دون جدوى.

وإن حضور التنمية في منشورات الكلية يتمثل في :

1 ـ تنمية الرصيد المعرفي أو ما نسميه «التنمية الفكرية»، وتشمل مختلف الإنجازات.

2 ـ تنمية الجانب الاقتصادي وذلك بتناول أهم المشاكل والقضايا الاقتصادية مع اقتراح حلول لها مثل مشكل التصحر، ومشاكل التنمية السياحية، ونظام السقي في الواحات، وغيره من المشاكل الفلاحية والمشاكل المالية والنقدية ومشكل التعمير الحضري والمشاكل السياحية. وبهذا وقع انفتاح البحث الجامعي على محيطه، فامتد انطلاقاً من تعاون الكلية مع البلديات والجماعات المحلية في مجال يتوسع عبر محاور الرباط وطنجة وأسفي وأبي الجعد إلى غيرها من الجهات.

3 ـ التنمية الاجتماعية حيث تتصدى هذه المنشورات لمعالجة مشاكل الطفل وقضايا المرأة والشباب، ومشاكل العالم القروي، ومشاكل الهجرة وقضايا الصحافة، ومعوقات المجال التعليمي على مستويات التخطيط والممارسة، وعدد آخر من القضايا التاريخية التي لها صلة بالتنمية.

ختاماً : إذا كان هذا الرصيد قد أسهم بفعالية في مجال البحث العلمي، فلابد من الإشارة إلى أن الخطوات الهامة التي قطعها البحث العلمي الجامعي في بلادنا تدين بكثير من الفضل لتقدم حركة الطباعة بالمغرب، بالرغم مما يكتنفها من صعوبات وما يواجه عمليات التوزيع من عراقيل. وإذا أضفنا إلى هذا كله ضعف الطاقة الشرائية وانصراف الاهتمام لدى كثير من القراء نحو الإنتاج التليفزيوني وإغراء المحطات الفضائية أدركنا سبب كساد الكتاب وتضخم أرصدة المخازن. مما يشكل هذه الأزمة التي يعيشها اليوم عالم الكتاب.

ومع أن الكتاب له مقومات لمواجهة كل التحديات، فإن هذه الأزمة تتطلب اليوم تضافر الجهود بين دور النشر، وإسهام الجهات المسؤولة وإيجاد تقنين يسهِّل عمليات التوزيع الذي يهدف إلى إزالة العراقيل ومد الجسور نحو العالم العربي والعالم الغربي، وتنشيط كل وسائل الإعلام لإعادة تفعيل هذا القطاع الحيوي، وفاء لخدمة الفكر وتوسيع آفاقه.

الرحلات خلال العصر القديم

المصطفى مولاي رشيد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الـربـــاط

لماذا نصوص الرحلات القديمة ؟ قد تبرز في البداية مبادرة الاستئناس باستيعاب وتحليل مصدر من المصادر القديمة. أضف إلى ذلك، التعرف على بعض المعطيات المختلفة والواردة في نص الرحلة، من مجموعات بشرية ومواقع طبيعية، ثم الإلمام نسبيا بوسائل وصعوبات الملاحة القديمة[1] في إطار البحار والمحيطات، دون أن ننسى أن نص الرحلة، هو موضوعيا بمثابة وثيقة تاريخية وجغرافية لبلد معين خلال فترة زمنية محددة.

تدل الرحلة (أو Périple، اللفظ المرادف لـ : Periploos باللغة الإغريقية) في مجال محدود على سفر بحري، تكون غايته الاطلاع على آفاق جديدة من الأقاليم المجهولة، وفي إطار أوسع وزيادة على جانب الاستكشاف، هنالك نية القيام بإنجاز تقرير للسفر، يكون بمثابة شهادة في هذا المضمار.

وكانت للرحلات القديمة، أهداف مختلفة. ففي الميدان الجغرافي، حاول القدماء، لاسيما الإغريق منهم، التعرف شرقا على مجال آسيا والبحار المجاورة لهذه القارة الأخيرة. وغربا، محاولة الخروج من البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق لاستكشاف الشواطىء الأوربية والإفريقية الغربية. وطرحت منذ العصر القديم في إطار المجال الغربي من المعمور، مشكلة الطواف البحري حول إفريقيا. لذا، نظمت مبادرات بحرية عديدة في هذا الصدد.

وقد تخيل القدماء في هذا السياق، حلا سهلا، مادامت «الكارطوغرافيا»

(1) انظر في هذا المضمار : J. Rougé, **La marine dans l'Antiquité**, Paris, 1975

التقليدية، استنادا إلى الجغرافيا الرياضية[2] ترسم ليبيا Lybie[3] على شكل مثلث مستقيم الزاوية، يتكون من وادي النيل إلى بحر إيرتريا (Erythrée)[4] والبحر الداخلي (الأبيض المتوسط) والبحر الخارجي (المحيط الأطلسي). فعلى ضوء هذه الرؤية، كانت المحاولات البحرية، تهم على الخصوص السواحل الغربية للقارة الليبية.

• **رحلات شرق المعمور :**

ـــ **رحلة سيلاكس دي كاريائدا (Scylax de Karyanda)** : كلف هذا الأخير من طرف داريوس الأول (521-486ق.م) بمهمة القيام بسفر بحري انطلاقا من نهر الهندوس لاستكشاف طريق مصر عبر الخليج العربي (البحر الأحمر) (هيرودوت IV، 44). تطلبت مدة الإبحار ثلاثة أشهر. وكانت للرحلة أهداف سياسية وتجارية. أمر داريوس بأن تفتح القناة التي أنشأها الفرعون نيكاوو والتي كانت تربط ما بين النيل والبحر الأحمر[5].

ـــ **رحلات أريان (Arrien)** : هدفها، استكشاف شواطىء البحر الأسود (Pont Euxin) والبحر الأحمر. وتشكل نصوص هذه الأسفار، مصدرا نفيسا للدراسة الجغرافيا القديمة.

ـــ **رحلة نيارك (Néarque)** : الذي كان بحارا كريتيا وقائدا لأسطول الأسكندر الأكبر والذي عاش خلال القرن الرابع ق.م. اشتهر خصوصا بالسفر البحري الحامل لاسمه والذي دام خمسة أشهر. فلأول مرة، أبحر أسطول إغريقي عبر المحيط الهندي (326ق.م). لكن الموت فاجأت الأسكندر الأكبر، عندما عزم هذا الأخير على تكليف نيارك بمهمة جديدة، هدفها، استكشاف شواطىء شبه الجزيرة العربية. وسجل أريان (Arrien)، مقتطفات من تقرير هذه الرحلة في مؤلفه أنديكا (Indica)، مدعيا أنه أخذها من مذكرات نيارك.

---

(2) أسندت الجغرافيا الرياضية، أشكالا هندسية للقارات والبلدان.

(3) القارة الليبية، أي القارة الإفريقية، حيث شكلت مع كل من آسيا وأوربا مجال العالم المعمور Oikoumène آنذاك.

(4) المحيط الهندي.

(5) حاول بونابرت Bonaparte لما حضر إلى مصر، البحث عن مخلفات هذه القناة.

ـــ الرحلات المنظمة من طرف الملوك البطالمة :

أ ـــ العلاقات البحرية بين الإسكندر والساحل الشرقي الإفريقي : أشرف الملوك البطالمة[6]، لاسيما الأربعة الأوائل منهم على العمليات الاستكشافية الخاصة بالبحر الأحمر، الأمر الذي أدى إلى إنشاء بعض الموانىء على الساحل الإفريقي، هذه الموانىء التي كانت بمثابة مراحل لصيد الفيلة. ومكنت من جانب آخر، من تقصير المسافة البحرية وذلك بإرساء البضائع بها وبعثها فيما بعد، عبر مسالك صحراوية حتى تصل إلى وادي النيل ثم إلى مدينة الأسكندرية.

بالإمكان، الافتراض أن هذه الرحلات قد تركت بعض التقارير، اطلع عليها إراطوسطين (Eratosthène)[7]. وقد تفقد كل من أغاثرشيد (Agatharchide) وأرتيميدور (Artémidore) نفس الجهات خلال القرن الثاني ق.م.، غير أن مؤلفاتهم في هذا الإطار، ضاعت. ومن جانب آخر، احتفظ لنا المؤرخ ديودور (Diodore) (III، 148) حول هذا الموضوع بمقتطفات مهمة؛ وكذلك سطرابون (Strabon) الذي استند في جغرافيته إلى العالم إراطوسطين.

ب ـــ أسماء بعض المستكشفين :

ـــ فيلون (Philon) (بلنيوس الشيخ، .XXXVII, H.N، 108)، سطرابون (II، 1، 20).

ـــ ثيموسثنيس (Thimosthènes) : استكشف نوبيا (Nubie) (سطرابون IX، 3، 10).

ـــ أرسطون (Ariston) : ذهب للاطلاع على سواحل شبه الجزيرة العربية، انطلاقا من سيناء إلى مضيق باب المندب (ديودور III، 42).

ـــ ساتيروس (Satyros) : استكشف في عهد بطوليمي إيفرجيت (Ptolemée Evergète) الساحل الإفريقي للبحر الأحمر (أوجيس Ogis، 30).

(6) Ptolémées أو Lagides نسبة إلى بطوليمي لاغوس Lagos مؤسس الدولة بمصر.

(7) انظر فيما يهم هذا العالم، المصطفى مولاي رشيد «العلم والعلماء خلال العصر القديم : إراطوسطين نموذجا»، **فكر وتاريخ، دراسات وأبحاث مهداة للدكتور مانويل فايشر**. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ص 205–210.

ـــ سيمياس (Simmias) : قام برحلة عبر بلاد الإكتيوفاج (ديودور، III، 18).

ـــ أومين (Eumène) وبيثولاووس (Pitholaos) وبثنجيلوس (Peithangilos)، اتجهوا بعيدا نحو الجنوب (سطرابون، IV، 13، 17).

• **رحلات غرب المعمور :**

ـــ **الشمال-الغربي** : خروجا من مضيق الأعمدة، استهدفت رحلتان الشواطىء الأوربية الغربية ويتعلق الأمر بكل من :

ـــ **رحلة القرطاجي هيميلكون (Himilcon)** : ففي هذا الإطار، لم يصل إلينا التقرير الذي أنجزه هيميلكون عن رحلته لما قبل سنة 480 ق.م. والتي أشار إليها بلنيوس الأقدم (**تاريخ الطبيعة**، II، 169). لكن أفيانوس (Ora Maritima، 117-129، 380-389، 412-415)، حول بعض مقتطفات هيميلكون إلى أبيات شعرية خلال القرن الرابع بعد الميلاد. ومن المحتمل، أن يكون هيميلكون ـــ حسب هذا المصدر ـــ قد وصف رحلته التي دامت أربعة أشهر والتي وصلت إلى إيرلندا (Irlande). لكن، نلاحظ من خلال أبيات أفيانوس (154-155)، أن هيميلكون، لم يصل إلاّ لإقليم غاليسا (Galice) بالشمال-الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

ـــ **رحلة المرسيلي بيتياس (Pythéas)** : كلف بحار مرسيلي (مرسيليا أو مساليا Massalia القديمة : منشأة إغريقية للقرن الرابع ق.م.) من طرف مواطنيه للقيام بسفر استكشافي للبحار الشمالية. أبحر إذن بجوار سواحل إسبانيا ولوزيتانيا (البرتغال) وغاليا، ثم الشواطىء الشرقية لإنكلترا والإيكوس (Ecosse)، إلى أن وصل إلى جزيرة أطلق عليها سكانها اسم تولي (Thulé) حيث يبدو أن موقعها يناسب مجال إيرلندا. ففي هذا الصدد، أنجز بيتياس مؤلفا تحت عنوان وصف المحيط Description de l'Océan، عبارة عن تقرير لسفره. كما أن إبحارا ثانيا، حكاه تحت عنوان : الرحلة Périple، وجهه عبر بحر البلطيق إلى مصب نهر أطلق عليه التنابيس Tanaïs[8] (ربما نهر الفيستول Vistule). غير أن هذا الجزء الثاني من

(8) يصب التنابيس Tanaïs في بحيرة ميوتيس Méotis ذات المياه المشتركة مع البحر الأسود المعروف قديما باسم بونت أوكسان Pont Euxin .

مسالك بيتياس قد وقع الشك في صحته. ومن جانب آخر، يعد هذا البحار، الأول في استيعاب العلاقة الموجودة بين المد والجزر وحركة القمر.

ــ **الجنوب الغربي** : نظمت رحلات أخرى في اتجاه السواحل الإفريقية، ويتعلق الأمر بكل من :

ــ **رحلة نيكاوو (Néchao)** (هيرودوت IV، 42؛ سطرابون II، 3، 4-5). دامت ثلاث سنوات وأنجزت من طرف ملاحين فينيقيين في عهد الفرعون نيكاوو الثاني (610-595ق.م.). استهدفت الرحلة مضيق جبل طارق للرجوع إلى مصر، انطلاقا من البحر الأحمر وجنوب إفريقيا ومرورا بالشواطىء الغربية الإفريقية. لكن هذه المغامرة، حتى وإن افترضنا أنها قد تمت فعلا، فلم يذكر خبرها فيما بعد.

ــ **رحلة القرطاجي حانون (Hanon)**[9]: يبدو ضبط الترجمة الإغريقية لنص الرحلة القرطاجية بتزامنها مع القرن الرابع ق.م. ويتعلق الأمر بمبادرة لاحتلال آخر من طرف البونيين خلال القرن الخامس ق.م. (أرسطو، في **السياسة**، II، 11، 15)، لا مجال للشك في صحتها.

ــ **رحلة سيلاكس المزعوم (Pseudo-Scylax)** : أنجز سيلاكس دي كاريانذا (Scylax de Caryanda) في نهاية القرن السادس ق.م. مؤلَّفاً حاملاً لعنوان : **رحلة عبر البحر الداخلي**، إذ تدل المقتطفات المحفوظة أنها تختلف عن الرحلة التي أسندها إليه الشبيه بسيلاكس حيث نجد نقلا للنصف الثاني من القرن الرابع ق.م.، استمر احتصاره خلال القرون اللاحقة. ولا تقل هذه الرحلة من أهمية، بدليل أنها تتوفر على معلومات نفيسة وخاصة بالساحل الفنيقي والمنشآت الفنيقية-البونية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط والساحل الأطلسي. ويتطلب استعمال نص الرحلة، الأخذ بعين الاعتبار، المصادر المختلفة والمساهمة في إنجازه.

ــ **رحلة سطاسبيس (Sataspes)** : أمر بتنظيمها سنة 480 ق.م. الملك الفارسي خِرْخِس Xerxès (486-465)، وقام بتنفيذ هذه الرحلة سطاسب

(9) انظر فيما يخص هذه الرحلة، المصطفى مولاي رشيد، «حانون والمغرب»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط**، عدد 10، 1984، ص ص 9-23.

(Sataspe) أو سطاسبيس (Sataspès) الذي تمكن من الخروج من مضيق الأعمدة، إذ وصل إلى نقطة مجهولة من الشاطىء الأطلسي. لكنه قرر الرجوع إلى مصر، دون أن يتمكن من تحقيق الطواف حول إفريقيا.

ــ رحلة بولييوس ورحلتا أودوكس دي سزيك (Eudoxe de Cyzique) : فيما يخص المبادرة الأولى، استعمل بلنيوس الأقدم، رحلة بولييوس لسنة 146 ق.م. والذي أشار إلى هذه الأخيرة في مؤلفه (V، 9–10). يتعلق المقتطف المحفوظ من طرف بلنيوس بالساحل الأطلسي للمغرب الأقصى. أما ما يهم أسفار أودوكس دي سزيك، فهي تنتمي للسنتين 117 و109 ق.م. وقد سجل مراحلها الجغرافي سطرابون في مؤلفه (II، 3، 4–5).

وختاماً، وفي إطار العلاقة مع مجال السواحل، وصل إلينا ديوان شعري من إبداع دونيس البرييجيتي (Denysle Périégéte) (شاعر إغريقي من الإسكندرية)، يصف فيه هذا الأخير الشواطىء الفينيقية والليبية، لاسيما حسب العالم إراطوسطين القوريني (275–194 ق.م.). علق على هذا الديوان المدعو أوستاش (Eustache) وحوله إلى أبيات شعرية كل من أفيانوس (Avienus) (القرن الرابع الميلادي) وبريسيانوس (Priscianus) (القرن السادس الميلادي).

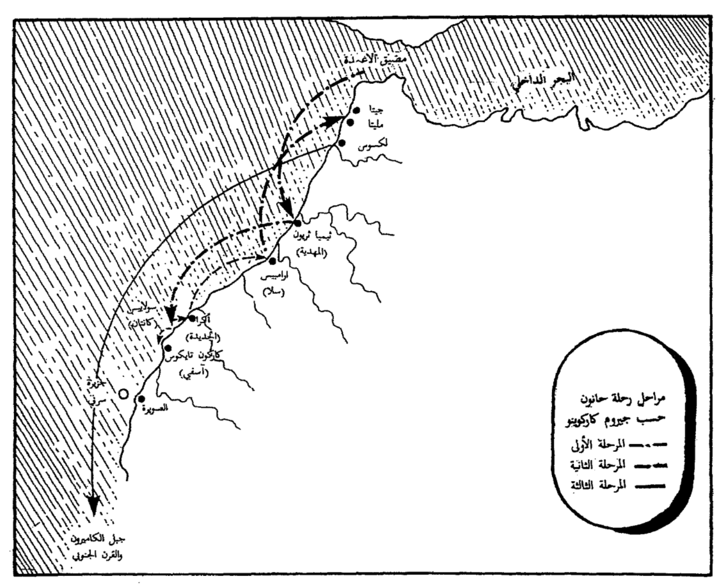
تلك هي أهم الرحلات القديمة التي وصلت إلينا أخبارها من مختلف المصادر والتي مازالت موضوع تعاليق علمية وافرة قصد ضبط مواقع المجال، اقتصرت الإشارة إليها فقط في غالب الأحيان[10].

(10) انظر فيما يهم نصوص الرحلات القديمة، المصطفى مولاي رشيد، **المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين**، الدار البيضاء، 1993.

J. Desanges, **Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique (Vs. av. J.e., IVs. ap. J.e.)**, Paris, 1978.

الرحلات القديمة : رحلة حانون نموذجا

إنجاز : المصطفى مولاي رشيد



قراءة لخريطتين تتعلقان بمساهمة المغرب في الحرب العالمية الثانية

بوشتى الفلاح
شعبة الجيومرفلوجيا ووضع الخرائط
المعهد العلمي ـــ الرباط

شاركت الجيوش المغربية بكثافة في الحرب العالمية الثانية، فشهد لها العالم بكفاءة ومقدرة نادرتين.

في محاولة لاستقراء بعض هذه الصور اللامعة من المحطات التاريخية، وباقتراح وجيه من اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، تم نشر خريطتين (1999)، أشرف على وضعهما المرحوم الأستاذ أحمد الغرباوي بالمعهد العلمي (جامعة محمد الخامس ـــ أكدال) وبمساهمة إدارة المحافظة العقارية والخرائطية.

هذا المقال هدية مني للأستاذ المرحوم وقراءة موضوعية لمجال بيقاري، تحركت ضمنه الجيوش المغربية. يحاول وضع صلات الربط بين قاعدة معلومات متفرقة وصياغة كرطغرافية تأليفية وعامة بحكم مقياس الخريطتين.

تقديم :

تزايد عدد الوحدات العسكرية المغربية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى (1914-1918) بشكل متناسب مع تصاعد حدة الصراع بين أقطاب الصراع الأوربي : التحالف النازي والجناحين الشرقي والغربي لأوربا. بلغ عدد أفراد هذه القوات ما لا يقل عن 40.000 سنة 1939، ليتضخم مع بداية المواجهات باستدعاء الاحتياطي المكون من المتقاعدين الجدد ومن الشبان، حيث وصل عدد المجندين حوالي 100.000 طوال سنوات الحرب (الخريطة الأولى).

أما العمليات الميدانية فتميزت بنقل الصراع من حوض المتوسط وإبعاده إلى

ما وراء جبال الألب (الخريطة الثانية) والفضل في ذلك كبير للمساهمة المغربية الفعالة[1].

الإعداد للحرب : تجميع الوحدات

ظلت الوحدات المغربية في الفترة ما بين الحربين تدعم القوات الفرنسية فوق التراب الفرنسي، بالألزاس واللورين وعلى امتداد نهر الرون؛ كما كان لها موقع بأجاكسيو (جزيرة كورسيكا) إضافة إلى وحدتين بأرض الشام في كل من حلب ودمشق (سوريا) وكانت وقتئذ تحت النفوذ الفرنسي.

بتوجيه من الإقامة العامة الفرنسية، عملت القيادة العليا بالرباط على تنظيم مواقع للمراقبة الجهوية Points de commandement régionaux تتوزع على المدن التالية : فاس، مكناس، الدارالبيضاء، مراكش وأكادير، وتخضع لهذه المواقع عشرات الفرق والكتيبات بثكنات موزعة عبر التراب الوطني : خنيفرة، أزيلال، وارتزاغ، صفرو، تافوغالت، واد زم، إكنول، وارزازات...

ويظهر من الخريطة الأولى (شكل 1) أن عمليات التجنيد كانت تتم بجل البوادي على امتداد الأوساط الجبلية المغربية. أما أهم الوحدات الشريفة أي الفرق الكبرى فكانت متمركزة على طول المحور مراكش — البيضاء — وجدة؛ فيما نجد وحدات الطابور والكوم والسبايس وهم فرق المشاة والخيالة موزعة عبر محورين آخرين ينطلقان من الراشيدية (قصر السوق آنذاك) :

— الأول باتجاه مكناس عبر الريش، ميدلت، تيمحضيت، أزرو ثم الحاجب.

— الثاني يتبع منخفض ملوية عبر ميدلت، أوطاط الحاج، المريجة وتافوغالت.

اعتمد تنظيم الجيوش المغربية، قبيل وأثناء الحرب، تصنيفها لفرق وكتيبات متعددة، وفق أحدث الأساليب المعمول بها. وهو مكسب وتحصيل حاصل من حيث استعداد يكاد يكون فطريا لدى الإنسان المغربي. ومن أهم التنظيمات المحدثة نجد :

---

(1) الخريطتان توجدان بشعبة الجيومرفلوجيا بالمعهد العلمي.

اسم الفرقة	عدد الأفراد	
فرقة المشاة المغربية	15.000	Division de l'Infanterie Marocaine (DIM)
فرقةالمغرب الجبالية	20.000	Division Marocaine de Montagne (DMM)
الفرقة الميكانيكية للمشاة	15.000	Division Motorisée d'Infanterie (DMI)
فرقة متخصصة أخرى	50.000	Autres

استمر عدد أفراد الجيوش المغربية المقاتلة، إلى حدود سنة 1944 ثابتا، بحيث يتم تطعيمها بعناصر جديدة لتعويض النقص الذي يصيب وحداتها بالجبهات إما جراء الوفيات أو الأعطاب.

وهكذا ساهمت أفواج الفرسان Spahis والقناصة المغاربة، منذ بداية الحرب الثانية العظمى، في العمليات الحربية للرد على الغزو النازي. غير أن حجم العمليات والاجتياح السريع للتراب الفرنسي، استدعى إعادة تنظيمها ابتداء من سنة 1940 و1941، لأجل تيسير اندماجها في منظومة الحلفاء.

أهم الجبهات : جدار غوستاف وتحرير مرسيليا

كانت استراتيجية الإقامة العامة والقيادات العسكرية الفرنسية في المنفى، تقوم على تكوين الجيوش المغربية وإرسالها مباشرة لأوربا بهدف تحرير فرنسا؛ وقد تدعم ذلك لاحقا بالنداء المشهور لجلالة الملك محمد الخامس (1943)، من أجل مساندة الحلفاء والمجهود الحربي الفرنسي. وهكذا أنشئت أو تم تجديد عدة فرق جهزت بأحدث الآليات والتجهيزات (الخريطة الثانية، شكل 2).

ومباشرة بعد عملية إنزال القوات الأمريكية سنة 1942 بالشمال الإفريقي (بمدينة القنيطرة)، انطلق الجنود المغاربة (حوالي 15.000) بمعية الحلفاء في اتجاه تونس، حيث تمت مواجهة الثنائي النازي والفاشي. وبعد شهور عادت بعض الوحدات المغربية قامت بتمشيط طال جبال الجرجرة والساحل التونسي. إلا أن هؤلاء العائدون إلى صفرو (الطابور الرابع، فوج المشاة) سرعان ما جمعوا رحالهم سنة 1943 متوجهين إلى صقلية.

تبين منذ البداية أن أصعب المهام عادة ما تسند للفرق المغربية. فبعد تمشيط المرتفعات الجبلية والبركانية في جزيرة صقلية، تم الانتقال إلى كلابريا على الضفة الأخرى من مضيق مسين شرق صقلية. منذئذ، اتضح أن مهمة الجيوش المغربية ـــ وكانت دوما في مقدمة جيوش الحلفاء ـــ، تكمن في إزاحة وتحطيم جدار غوستاف الذي كان يتوسط الجزيرة الإيطالية، قاطعا سلسلة الأبروز (2000-2500م) من الشرق إلى الغرب، بين نابلي وروما.

وكجل الخطوط الدفاعية المحصنة، كان الهدف من هذا الجدار المنيع هو حماية روما والقواعد الخلفية الحيوية والاستراتيجية (مطارات، معامل، مخابىء الذخيرة...) وهنا كذلك، أسندت المحاور الجبلية الرئيسية للوحدات المغربية (التي واجهت شتاء شديد البرودة فوق منطقة جبلية وعرة مكسوة محليا بالثلوج) واكتفت باقي الجيوش بتغطية الجناح الأيسر، على الساحل المتوسطي.

استمرت محاصرة الجنود المغاربة لجدار غوستاف لشهور متعددة، تخللتها معارك طاحنة أشهرها معركة كاسينو، نسبة إلى ممر جبلي يحمل نفس الإسم، والتي أدت إلى التعجيل بدخول روما أوائل ربيع 1944.

من نهر الرون إلى نهر الدانوب :

تواصل مد الجنود المغاربة، بعد تحرير إيطاليا، في اتجاه الشمال الغربي عبر التراب الفرنسي، فتوجهوا نحو ثاني أكبر مدينة فرنسية وهي مرسيليا، التي يعود تحريرها أيضا للمغاربة أكثر من غيرهم من الحلفاء (ربيع 1944). وتأكد مرة أخرى الانطباع الذي خلفته معارك كاسينو؛ ذلك أنها (أي القوات المغربية) أحكمت سيطرتها على محيط المدينة، ثم تسربت إليها من الغرب والشمال والجنوب، قبل أن تتلاشى أمامها كل مقاومة.

قبل نهاية صيف 1944، حصل توجيه فرقة المشاة الثانية إلى مرتفعات الجنوب ألبية، وذلك بغرض حماية وحدات الحلفاء المتنقلة عبر سهول نهر الرون في اتجاه ليون وغرنوبل. واكتمل تحرير التراب الفرنسي بإرسال فرق مغربية أخرى نحو مرتفعات الفوج والألزاس ثم اللورين. بعد ذلك غادرت نفس القوات مواقعها متقدمة نحو الشرق. وبالفعل تجاوزت الجيوش المغربية حاجز الراين في شهر مارس 1945، عبر كارسرو، لتصل نهر الدانوب شهرا بعد ذلك. وبعدها توغلت في

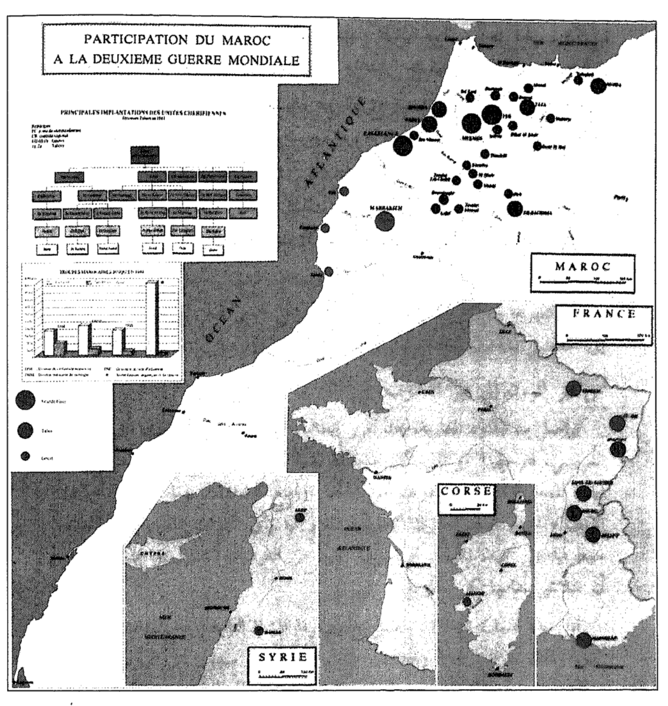
عمق التراب الألماني ثم النمساوي، بما في ذلك تمشيط فرقة الخيالة الخامسة للغابة السوداء.

خــلاصــة :

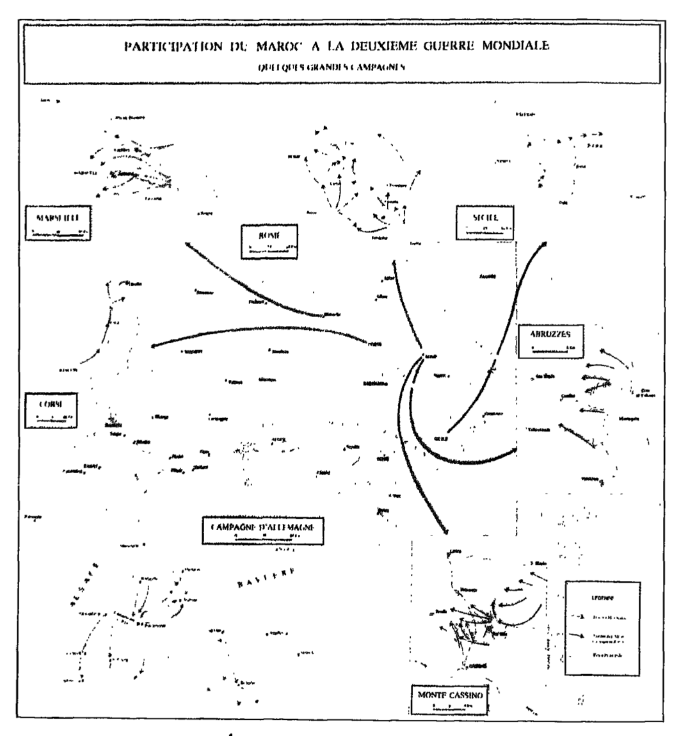
أوكل الحلفاء للجنود المغاربة أصعب المهام القتالية طوال مراحل الحرب الكونية الثانية. وبذلك تعتبر مساهمتهم تحديا علنيا واختبارا حقيقيا لمقدرة وكفاءة استثنائية.

ولعل في إنجازات مماثلة وعديدة عبر التاريخ (حنبال، طارق بن زياد، يوسف ابن تاشفين وغيرهم)، صورة موضوعية للروح القتالية التي دخل بها الجيش المغربي كبريات المعارك منذ نشأة الدولة المغربية.

ويترجم مضمون الخريطتين كذلك حول استمرار الدور الفعال للجيش المغربي وتأثيره بكيفية مباشرة في مجريات الأحداث المعاصرة البيقارية منها وحتى العالمية.



خريطة بمواقع تركز الوحدات المغربية



مساهمة المغرب في الحرب العالمية الثانية؛ بعض أكبر الحملات

أخبار المنصور سلطان المغرب

(1603 - 1578)

تأليف أنطونيو دو سالدانيا
عرض عثمان المنصوري
كلية الآداب / عين الشق ــ الدارالبيضاء

تقديم للكتاب :

هذا الكتاب من تأليف أنطونيو دو سالدانيا (Antonio De Saldanha). وقد حققه ــ مع دراسة نقدية ومقدمة وشروح ــ الأستاذ أنطونيو دياش فارينيا (Antonio Dias Farinha)، من كلية الآداب بلشبونة، وترجمه إلى الفرنسية ليون بوردون (Léon Bourdon).

ويقع في أزيد من 900 صفحة، من الحجم الكبير، وهو مطبوع طباعة أنيقة، وساهمت في نشره 14 مؤسسة، من ضمنها سفارة المغرب في البرتغال، وجامعة لشبونة، بإشراف معهد البحث العلمي المداري وطبع بلشبونة سنة 1997، ويتضمن ما يلي :

1 ــ تمهيد للأستاذ فارينيا باللغتين الفرنسية والبرتغالية في 4 صفحات.

2 ــ تقديم في حوالي 50 صفحة، باللغتين.

3 ــ نص الكتاب، باللغتين، وهو في حوالي 218 صفحة لكل لغة، وموزع على 146 فصلا قصيرا.

4 ــ بعد النص تأتي الهوامش والشروح، المتضمنة لتعليقات المحقق، وهي مرتبة حسب الفصول، وباللغتين، وتقع في أكثر من 120 صفحة. أما الملاحظات المتعلقة بضبط النص فقد أوردها المحقق مع النص البرتغالي. ومع هذا الجزء توجد أكثر من 22 لوحة، بها خرائط وصور.

5 ــ ملحق يتضمن 45 وثيقة، تتعلق بالمؤلف وبالمواضيع المثارة في النص، في حوالي 80 صفحة بالبرتغالية.

6 ــ ملحق للتعريف ببعض المصطلحات الخاصة الواردة في نص الكتاب به أكثر من 70 مصطلحا. في 22 صفحة بالبرتغالية.

7 ــ الفهارس : أغلبها فهارس بيبليوغرافية متنوعة، ثم ثبت يتضمن أسماء الأعلام والأماكن والمصطلحات.

التمهيد :

الكتاب في الأصل عبارة عن مخطوط يتضمن عددا من الأحداث التي وقعت في المغرب في عهد السلطان أحمد المنصور. ويوجد في نسختين، بدون عنوان، وبدون الإشارة إلى إسم المؤلف. النسخة الأفضل توجد بالمكتبة الوطنية بلشبونة وهي الأصل. حررها أحد الكتاب، انطلاقا من التقييدات التي احتفظ بها المؤلف عندما كان أسيرا بالمغرب. وقام هذا الأخير بمراجعتها وإضافة تصويباته وملاحظاته عليها بخط يده.

وبالنسبة لهوية المؤلف، فبعد بحث دقيق، ومقابلة لعدد من المخطوطات بالأرشيف البرتغالي، أصبح من الممكن التأكد من أن الكتاب ألفه نبيل برتغالي يدعى أنطونيا دو سالدانيا، كان ضمن حامية طنجة، عندما كان والده أيرش دو سالدانيا (Aires De Saldanha) حاكما لهذه المدينة.

كان هذا النبيل الشاب قد أسر على إثر معركة بالأراضي المغربية سنة 1592، واقتيد إلى مراكش، وظل بها إلى سنة 1606، حيث افتدي بتدخل من المغامر الشهير أنطوني شيرلي.

تمتع دو سالدانيا هذا بوضعية خاصة في مراكش، واستفاد من وجود عدد كبير من الأسرى البرتغاليين بالمدينة، الذين أسلم عدد منهم، وتقلدوا مناصب هامة بالبلاط السعدي.

وقد مكنته هذه الظروف الخاصة من الاطلاع على أدق تفاصيل وخصوصيات الحياة بالبلاط السعدي، وأحوال البلاد الداخلية، وعلاقاتها بالخارج.

وتعود مبادرة نشر هذا الكتاب إلى الأميرال (Avelino Teixeïra da Mota)

المدير السابق لمركز الدراسات الكرطوغرافية القديمة. وهو الذي صور المخطوطتين الأصليتين، وأسند إلى الأستاذ فارينيا مهمة نسخهما وتحقيقهما والتقديم لهما. كما كلف الأستاذ ليون بوربون بترجمة النص البرتغالي إلى الفرنسية.

التقديم :

خصص المحقق هذه المقدمة للتطرق إلى العناصر الآتية :

1 ــ **المؤلف** : ينتمي المؤلف إلى عائلة برتغالية نبيلة تقلد عدد من أفرادها مهام سياسية، وشاركوا في الاكتشافات البرتغالية بإفريقيا والهند. وكان والده حاكما لطنجة، ثم أصبح نائبا للملك في الهند.

خلال المدة التي قضاها المؤلف بمراكش، كان يملك حرية التجول داخل المدينة، واستخدام الخدم، والتحدث إلى من يشاء، وتلقي المراسلات والاستدانة وإقراض المال. وقد حافظ على روابطه ببلده الأصلي بسبب اتصاله بالتجار والسفراء الأوربيين، واستفاد من وجود عدد من المسيحيين العاملين في الإدارة والجيش السعدي للاطلاع على أحوال البلاد، وخاصة ما يتعلق منها بالجوانب السياسية.

وبعد عودته إلى البرتغال، تقلد مهام سياسية متعددة، ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته، لكن يتبين من إحدى وثائق عائلته أنه توفي بعد سنة 1656.

2 ــ **العصر** : تحدث محقق الكتاب في حيز كبير من المقدمة عن تاريخ البرتغاليين بالمغرب خلال القرن السادس عشر، وقدم معلومات مركزة عن التوسع البرتغالي بالسواحل المغربية وأسبابه وظروفه، وعن العلاقات البرتغالية المغربية قبل معركة وادي المخازن وبعدها. وتقدم هذه المقدمة تاريخ هذه الفترة من منظور أجنبي، وبرؤية مخالفة ومصادر مختلفة حيث تركز على عدد من النقط التي لا يدخلها الباحثون المغاربة في اعتبارهم.

* في العنوان الأول، تطرق إلى أسباب التوسع البرتغالي مستعرضا مراحله المعروفة، وقدم عددا من التفسيرات التي تنطلق من ظروف وأحوال البرتغال الداخلية لتبرير ما طرأ على هذا التوسع من مد وجزر، وتخلي البرتغاليين عن بعض الثغور واحتفاظهم بالبعض الآخر. كما تحدث عن أحوال المراكز المحتلة وسكانها

وطرق تسييرها وتزويدها بالمؤونة، وعن الحروب مع المغاربة في البر، وعن عمليات الحصار... إلخ.

* وفي العنوان الثاني، تحدث عن المحاولات السابقة للتوغل في المغرب برا من سبتة، ومن نهر لكوس (جزيرة المليحة)، وعن السياسات التي نهجها ملوك البرتغال، والتي كانت تهدف أحيانا إلى غزو المغرب أو بعض ثغوره. كما تطرق إلى الظروف العامة التي سبقت معركة وادي المخازن والتي دفعت بالملك البرتغالي إلى المغامرة بجيشه في المغرب.

* وفي العنوان الثالث، تطرق إلى الأوضاع الجديدة التي ترتبت عن المعركة، سواء بالمغرب أو الخارج، وأهمها استقرار الحكم للسلطان أحمد المنصور بالمغرب، وضم إسبانيا للبرتغال، وظهور انجلترا كقوة تجارية بحرية معادية لإسبانيا ومنافسة لها. وتتضح هذه الأوضاع في الكتاب المحقق حيث نجد تفصيلات عن احتفاظ إسبانيا بالناصر أخ المتوكل لاستعماله كورقة ضغط ضد المنصور، من أجل الحصول على العرائش التي كانت تعتبرها أهم ميناء بالمغرب. بينما رد المنصور على ذلك بتحصين الميناء زاعما أنه يهدف بذلك إلى منع الأتراك أو غيرهم من الاستيلاء عليه وبالتالي تهديد حليفته إسبانيا. لكن المنصور فتح في نفس الوقت باب التقارب مع انجلترا، ومع الدون أنطونيو المطالب بالعرش البرتغالي الذي كان لاجئا بانجلترا، وجرت بين الطرفين اتصالات وعد فيها السلطان المغربي بتقديم العون في حالة مهاجمة الإنجليز للسواحل البرتغالية. لكن المنصور كان يلوح في نفس الوقت للإسبان بورقة الدون أنطونيو، خصوصا عندما استضاف ابنه الدون كريستوف مدة ليست بالقصيرة. وقد كان الاتفاق ينص على أن يدفع المنصور ألف قنطار من ملح البارود و300 ألف كروزادوش (Cruzados) وأن يبقى كريستوف رهينة. ورغم أن الاتفاق لم ينفذ فقد ربح المنصور من هذه المساومة عندما استرجع أصيلا سنة 1589.

3 ــ بعد ذلك قدم المحقق توضيحات حول المخطوطتين المعتمدتين، وحول الشكل الذي تم به إخراج النص في الطبعة النهائية.

كتاب أخبار المنصور :

مكث المؤلف بالمغرب حوالي 14 سنة من 1592 إلى سنة 1606. ولكن

فصول الكتاب البالغة 146 فصلا تبدأ من معركة وادي المخازن. فمن تاريخ المعركة إلى سنة 1592، يروي المؤلف ما توصل إليه من المشاركين في الأحداث أو المطلعين عليها. أما بعد هذا التاريخ فإنه يتحدث عن معاينة ومتابعة شخصية لما يرويه. وفي الحالتين معا تكتسي هذه الأخبار أهمية كبيرة بسبب دقتها وتنوعها.

من الصعب تلخيص محتويات هذه الفصول بسبب تنوع وتعدد المواضيع التي تتطرق إليها، ولذلك سأقدم نماذج لبعض الموضوعات التي تطرق إليها المؤلف، والتي من شأنها أن تعطي فكرة أوضح عن المضمون العام للكتاب.

1 ــ المعلومات المتعلقة بالمنصور والأسرة السعدية :

تولى المنصور وعمره 32 سنة، وهذا يعني أنه ولد سنة 1546 (ف 9) وقد كان شغوفا بالجواهر، لا يضاهيه في ذلك أحد (ف 16) وقد اشترى حجرا كريما بـ50 ألف كروزادو، كان في ملكية الأميرة ماريا ابنة الملك مانويل، وحلى به سيفه (ف 41)، كما أن قيمة سيف المنصور المرصع بلغت 500.000 كروزادو (ف 58).

كان عمر محمد الشيخ ابن المتوكل عند معركة وادي المخازن 12 سنة، وقد انتقل بعد المعركة إلى البرتغال، ثم إسبانيا، وتعمد مسيحيا بالإسكوريال يوم 3 نونبر 1593 (ف 8).

أبناء المنصور المذكورون في الكتاب هم : محمد الشيخ ولي العهد بفاس، وأبو فارس وهو ابن أمة وكان بسوس، وأبو الحسن علي وأمه حرة، وكان بتادلة، وزيدان وأمه حرة وكان بأزمور ودكالة (ف 23 و45).

مداخيل المنصور الخاصة : إضافة إلى السكر (ف 31)، خصص المنصور قسما من الأراضي لزراعة الحبوب لحسابه، وكانت تنقل إلى مراكش وتوضع في مخازنه. وكل سنة كان يتم تخزين أكثر من 400 ألف صاع من القمح، ومثله من الذرة والشعير. وكان المنصور يضع من هذا المال في خزائنه أكثر من مليوني أوقية سنويا، بدون حساب الجواهر والأحجار الكريمة والنقود الذهبية (ف 31). كما أنه كان يحصل من احتكار تجارة الملح على 300 ألف كروزادو سنويا (ف 32).

في الفصل 30 نجد تفصيلات عن قصر البديع الذي تعيش به أكثر من 2000 امرأة (ف 30).

وعن الصراع داخل الأسرة السعدية، تحدث المؤلف عن مقتل عبد المومن أخ الغالب الذي كان لاجئا بالجزائر بتدبير من السلطان الغالب الذي أرسل إليه من قتله وهو يصلي بمسجد تلمسان (ف 3). ومقتل مولاي أحمد الأعرج مع 11 من أفراد عائلته على يد رضوان وابن بكار، على إثر مقتل محمد الشيخ (ف 18). ويذكر أن المنصور سجن 16 فتى من ذرية مولاي أحمد الأعرج، وفقأ عيونهم (ف 26).

2 ــ الأحداث الداخلية :

معركة وادي المخازن : إضافة إلى التفصيلات المعروفة، يذكر أن مامي البربري انتقل إلى صفوف الجيش البرتغالي قبيل قيام المعركة، وأخبر المتوكل بأن عمه عبد المالك مريض وأنه لن يعيش أكثر من ساعتين (ف 7). وبعد الهزيمة حاول البرتغاليون إيهام المغاربة بأن سباستيان فر ولم يمت. لكن الخدعة انطلت على البرتغاليين أنفسهم، وظل بعضهم يعتقد أنه لازال على قيد الحياة (ف 8).

الثورات الداخلية : ثورة زواوة، وقضاء المنصور على جيش زواوة، وقتل أكثر من 8000 شخص (ف 18). وفي سنة 1583 ثار صالحان بجبال الأطلس، وعبرا عن استيائهما من معاصر السكر التي يستغلها المنصور لأنه أخذ مساحة كبيرة من الأراضي لفلاحة القصب مما أثر على السكان الذين لم يعودوا يجدون ما يأكلونه، فهاجموا معصرة ونهبوا اليهود التجار الذين اكتروها (ف 30). وفي إحدى الثورات، قام المنصور بمعاقبة الثائرين بأن سحب الخيل من القبائل الثائرة، وخاصة من الأعراب، وجردهم من السلاح. فبيعت خيولهم بثمن بخس، بحيث لم يتجاوز أحسنها 20 كروزادو (ف 31).

أحداث مختلفة : سنة 1588، وبعد هزيمة الأسطول الإسباني المتوجه إلى انجلترا، طاف عدد من الرعايا الأنجليز بالمدينة فرحين، هاتفين بشعارات معادية لإسبانيا وحدثت مشادة بينهم وبين الإسبان وأسفرت عن مقتل 7 إنجليز (ف 53). وفي 3 ماي 1593، قتل علج برتغالي يدعى بيرو غاليغو (Pero Galego)، ويورد المؤلف تفصيلات عن حياة هذا الأمير وسيرته وسبب انتقام العلج منه (ف

65). كما يتحدث في الفصل 64 عن العاصفة الثلجية التي هاجمت جيش المنصور بتادلة، بحيث لم يصل سوى المنصور ومعه ستة من فرسانه، ومات فيها حوالي ثلاثة آلاف شخص من البرد في الثلج، أما الأحياء فوصلوا إلى تادلة بعد أربعة أيام. وهي التي سمي عامها عند المؤرخين المغاربة بعام الثلجة. كما يتحدث عن تعرض محلة السلطان في سنة 1599 لنار شديدة، ساعدت الرياح على انتشارها. وقد نجا المنصور لأن القايد أحمد بنمنصور طلب من السلطان الهرب على حصان، ثم طلب من الجنود نزع حياكهم وفرشها على الأرض وبذلك أخمد النار (ف 101).

ثورة الناصر : وقد خصص لها أكثر من 10 فصول (من 71 إلى 80)، وقدم عدة تفاصيل عن قدوم الناصر من إسبانيا ولجوئه إلى صالح «بدو» ومصاهرته له والحروب التي تمت بينه وبين محمد الشيخ، وكيف تم القضاء على ثورته سنة 1595.

الطاعون : تحدث المؤلف عن الوباء وانتشاره وتأثيره، ففي سنة 1597، فتك الطاعون بالسكان فتكا ذريعا بحيث أنه في مراكش ونواحيها، مات من كل خمسة أشخاص أربعة، واضطر المنصور إلى الإقامة بالخيام خارج المدينة (ف 89). وفي سنة 1598 لم يبق من الأسرى البالغ عددهم 2400 أسيرا سوى 1600 (ف 102).

الشيخ المأمون : نجد تفاصيل كثيرة عن ثورة المأمون على والده، والمنافسة بينه وبين زيدان، والمفاوضات التي تمت على يد القايد عزوز. وإرسال المنصور لصالحين إلى ابنه بدون نتيجة، ثم حملة المنصور إلى فاس ضد ابنه المأمون والقبض عليه، وتأكد المنصور من عدم صلاحية ابنه للحكم (ف 102 وما يليه).

وفاة المنصور وما أعقبها من أحداث : يقدم الكتاب تفاصيل مهمة عن ظروف وفاة المنصور، ويؤكد وجود إشاعة بأن زيدان ابنه قتله بالسم، كما يفرد فصولا متعددة عن الصراع بين الإخوة الثلاثة زيدان وأبي فارس والمامون. ونتائج هذا الصراع، ومن بينها تهديم معاصر السكر : 18 معصرة في سوس وحدها، كل واحدة يعمل فيها أربعة آلاف شخص، وكانت تعطي دخلا يقدر بمليوني أوقية. و لم يعد من الممكن التعرف على مواقعها بسبب النهب الشديد الذي تعرضت له.

3 ـ الإدارة والجيش :

من المعلومات الواردة في الكتاب بشأن الإدارة والجيش، يمكن التوقف مثلا عند الدور الذي لعبه الأعلاج في الدولة. وتقلدهم لمناصب هامة في الإدارة. ومن بينهم : رضوان ومنصور ديكو وجودر وسليمان ومحمود زرقون (ف 9). وترد في الكتاب أسماء قادة مغاربة آخرين مثل إبراهيم سفيان وبومن بوكرزية والقايد عزوز (ف 25). ونجد في الكتاب تفصيلات عن اغتيال المنصور لقادة جيش الأندلس الثلاثة (ف 10)، وعن تقسيم الجيش إلى جيش الأندلس والأتراك وشراكَة والأعلاج، وعن تعداد الجيش الذي يتكون في مجموعه من أكثر من 80000 فارس، يتميز ضمنه جيش النار الذي يتكون من 4000 فارس و16000 من المشاة (ف 23). وكان المخزن السعدي يحتكر المدفعية (ف 49).

ومن المعلومات المتعلقة بالقضاء نجد ما يلي : لا يمكن لأي سجين أن يبقى في السجن أكثر من 15 يوما. وخلالها يتم إثبات جريمته، ويعاقب العقاب المناسب لها، إما بالكي بالحديد المحمي أو تقطع يداه أو رجل ويد أو يجلد بالسياط أو العصا. وإذا لم تثبت التهمة يخلى سبيله. أما الديون فلا تثبت إلا كتابة (ص 314).

4 ـ الاقتصـــاد :

معاصر السكر : أمر المنصور بالتوسع في بناء معاصر السكر. وقد سمح وجود الماء الكثير بإنتاج قصب كبير وجميل لا مثيل له في أي مكان في العالم. وعندما مات، كانت هناك 18 معصرة، يعمل في كل واحدة منها 2000 شخص على الأقل، ويستعملون أكثر من 200 عربة لحمل الخشب من أجل إحراقه (ف 31).

النحاس : يوجد بكثرة ويصدر إلى انجترا، وتصنع منه قدور كبيرة لتصفية السكر، وصنع القوالب التي تجعل منه أفضل من سكر ماديرا. وهو أهم مادة للتصدير (ف 31).

الصناعة : اعتنى المنصور بإعداد الأدوية من مشروبات ومراهم، وكان بالمغرب مصنع لصنع المدفعية، وفيه تعد كميات كبيرة من ملح البارود وتختزن ـ زيادة على ما يستهلكه الجنود ـ أكثر من 2000 قنطار سنويا. كما كان هناك معمل لصناعة البنادق والسيوف ومعدات الخيول، ومعمل للزليج من كل نوع، تحت إشراف عمال أوربيين مهرة (ف 30).

الجبايات : تعطى المكوس عن كل رأس أو خيمة، وتبلغ 16 أوقية (حوالي 5 كروزادوش). يقوم باستخلاصها 1000 من المشاة و200 من الفرسان يعيشون على حساب السكان، وعلاوة على ذلك يتقاضون راتبهم في مراكش (ف 18). وهي غرامات ثقيلة، مما يفسر لجوء المغاربة المستمر إلى الثورة (ف 18). ويبلغ مجموع المكوس مليوني أوقية في زمن السلم، ولاشيء في زمن الحرب لأن الناس لا يدفعونها إلا مكرهين (ف 31).

المبادلات مع الخارج : رفع المنصور من قيمة الذهب والفضة حتى يمنع خروجهما من البلاد، وشجع عددا من الصناعات بالمغرب. وباستثناء الذهب والخيول والحبوب، سمح بتصدير كل شيء بحرية (ف 31). وكانت مداخيل السكر خاصة بالمنصور. وتبلغ الأعشار المحصلة من التجارة الخارجية أكثر من مليون دوكا. (في مراكش : 150 ألف أوقية، وفي القصر الكبير 200 ألف، وفي تطوان 60 ألف وبمملكة سوس 200 ألف وفي تادلة 60 ألف. وفي درعة ــ وعن التمر وحده ــ تصل الأعشار إلى 200 ألف أوقية) (ف 31).

5 ــ العلاقات الخارجية :

العلاقات مع إسبانيا : بعد تولي المنصور بعثت إسبانيا مفاوضا يعرض عليه إقامة تحالف مقابل امتناعه عن التعاون مع الأتراك، وتسليم العرائش لإسبانيا، وفي المقابل تمتنع إسبانيا عن دفع الناصر ومحمد الشيخ إلى الثورة (ف 11)، وقد توالت السفارات الإنجليزية والإسبانية على المغرب بعد معركة وادي المخازن (ف 14) وكان المنصور يسعى إلى إظهار التحالف مع إسبانيا لردع التطلعات التركية لبسط الهيمنة على المغرب (ف 22). وقد ضغط الإسبان بقوة للحصول على العرائش، بحجة تخوفهم من وقوعها في يد الأتراك، لكن المنصور رفض بحجة استحالة ذلك، وتأثيره السيء على مكانته الداخلية. ثم عرض عليه الإسبان فيما بعد استبدالها بمازيغن، للتخفيف من الحرج الذي يمكن أن يقع فيه. لكن المنصور شيد حصن العرائش في ستة أشهر، وزوده بستين قطعة مدفعية و300 جندي، مدعيا أنه يفعل ذلك من أجل سلامة إسبانيا لمنع الأتراك من الإستيلاء عليه. وعندما ألح عليه الإسبان بعد ذلك في الموضوع، أفهمهم أنه لم يسلم العرائش حينما كانت غير محصنة، فكيف يفعل ذلك وقد أصبحت محمية من أي خطر تركي أو إسباني ؟ (ف 38).

العلاقات مع انجلترا : رحب المنصور بالمبعوثين الانجليز، وكان في حاجة إلى الدعم الإنجليزي في مناورته للإسبان. لذلك أسبغ عليهم صفة السفراء، رغم أنهم كانوا مجرد تجار (ف 16). وحاول استعمال ورقة ولي العهد البرتغالي مبديا رغبته في مساعدة انجلترا لإعادته إلى العرش وطرد الإسبان من البرتغال، واستطاع بذلك أن يسترجع مدينة أصيلا.

العلاقات مع الجزائر وتركيا : في الكتاب تفاصيل عن السفارات التي بعثها المنصور إلى الجزائر وتركيا (ف 20) وعن استعداداته لمقاومة أي تدخل محتمل من جانبها (ف 21). وكان المنصور قد بعث ــ بمجرد توليته ــ هدية معتبرة إلى باشا الجزائر، وبعث في نفس الآن من سعى لقتل إسماعيل بن عبد المالك، لكنه لم يتمكن من ذلك وإنما تمكن من مناولته شيئا أذهب عقله بواسطة إحدى الجواري (ف 10). وفي الكتاب أيضا بعض التفاصيل عن الصراع البحري بين القراصنة الأتراك والإسبان (ف 65).

العلاقات مع السودان : لإشغال الجيش وتشتيته، بعثه المنصور إلى السودان عبر طريق ساحلي يمر أولا بشنكيط، وكان يضم أكثر من 3000 شخص و500 فرس، خرجوا من مراكش في فبراير 1586 ووصلوا إلى شنكيط في نهاية أبريل. استقبل القائد حمو بن سالم بجفاوة. لكن الأمر كان عبارة عن خدعة، لأن السكان انسحبوا إلى الضفة الأخرى من النهر وأحرقوا كل شيء. وحين أحس القائد بخطورة الموقف، اضطر إلى الهرب مع ابنه في ظروف سيئة، ومات كل أفراد الجيش. ولم يخسر المنصور ــ حسب الكاتب ــ شيئا لأنه عوض نفقات الحملة من مصادرة أموال القائد، وتخلص من الجيش الذي كان في معظمه من شراكة الذين أصبحت سيرتهم غير محتملة (ف 36). وفي فترة تالية استدعى المنصور ابنه عليا من تادلة وكلفه بإعداد حملة إلى السودان : غاو وتومبوكتو، لكنه اعتقد أن أباه يرغب في نفيه إلى تلك البلاد البعيدة للتخلص منه فطلب إعفاءه من هذه المهمة. وبعد ذلك بعث المنصور بوفد ومعه رسالة رسمية بشأن احتكار الملح، وفي نفس الوقت للاطلاع على أحوال البلاد (ف 50). وبالكتاب تفاصيل دقيقة عن عودة الوفد وإعداد الحملة بقيادة جودر وانطلاقها ومراحل سيرها والمعارك التي تمت هناك (ف 56 ــ 57 ــ 58).

وضعية الأجانب بالمغرب : كان الأسرى يعيشون في مكان خاص. وتوجد داخل القصبة دار للأسرى المتزوجين، كما توجد دار خيرية لعلاج الأسرى أوقف عليها المخزن 3 مطاحن وعددا من الأراضي يحرثها الأسرى أنفسهم وتعطي أكثر من 2000 كروزادوش. واعتمادا على تبرعات الأسرى أنفسهم كانت الدار الخيرية تضم أكثر من 50 سريرا. يقول المؤلف : «ومن بين أكثر من 2000 أسير، كان كثيرون لا يفكرون في الرجوع إلى أرض المسيحية، ولو كانوا يعرفون أن الحياة ستطول بالمنصور فإن أحدا منهم لن يفكر في الرجوع إلى بلده لأنه لن يجد فيها ما يجده من يسر ورخاء بمراكش» (ف 30). ومن بين المواضيع التي وضحها المؤلف، أحوال الأجانب في فترات الكوارث، ومحاولاتهم للحصول على حريتهم، وبعض الأحداث المتعلقة بهم ومن بينها قتل سبعة مسيحيين رفضوا التخلي عن ديانتهم (ف 40) ومجيء أنطوني شيرلي ومفاوضاته مع أبي فارس من أجل إطلاق سراح المؤلف، وانتهاء هذه المفاوضات بحصول المؤلف أخيرا على حريته.

لجنة القراءة

كلمة شكر

تشكر هيئة التحرير السادة الأساتذة الذين ساهموا في مراجعة مواد هذا العدد وهم :

البشير قمري	عبد السلام الداشمي
الطيب بلغازي	عبد العزيز بنعبد الجليل
المختار الهراس	عبد الله نجمي
بلكامل البيضاوية	فاروق حمادة
حسن بحراوي	محمد أديوان
حسن حافظي علوي	محمد آيت حمزة
سعيد يقطين	محمد الأوراغي
عبد الرحيم بنحادة	ثريا ليهي
عبد الرحيم شعبان	محمد الوهابي

نجاة المريني

منشورات كلية الآداب
والعلوم الإنسانية ــ الرباط

Publications de la Faculté des Lettres – Rabat

رسائل وأطروحات جامعية

Thèses et Mémoires

- نعيمة هراج التوزاني : الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن (1290–1311/1873–1894) مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، يناير 1979.
- سعيد بنسعيد : دولة الخلافة، دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي، 1980.
- سالم يفوت : مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر، 1981.
- عبد اللطيف الشاذلي : الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، 1982.
- أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إنولتان 1850/1912)، طبعة جديدة، جزءان في مجلد واحد، 1983.
- محمد مزين : فاس وباديتها (1549–1637م)، جزءان 1986.
- مبارك ربيع : مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، 1991.
- محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، 1992.
- أحمد أبو زيد : التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، 1992.
- فاطمة طحطح : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، 1993.

□ محمد الروكي : نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، 1994.

□ عبد الرحمن المودن : البوادي المغربية قبل الاستعمار، 1994.

□ مصطفى الشابي : النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، 1995.

□ إدريس بلمليح : المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، 1995.

□ الحسين أفا : ديوان الحسن البونعماني، 1996.

□ أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، تحقيق نفيسة الذهبي، 1996.

□ خالد بن الصغير : المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، 1997.

□ زهراء النظام : الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس لابن عيشون الشراط، 1996.

□ أحمد بوشرب : مغاربة في البرتغال، 1996.

□ ثريا برادة : الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، 1997.

□ حسن الفكيكي : المقاومة المغربية للوجود الاسباني بمليلية، 1997.

□ عباس رحيلة : الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، إلى حدود القرن الثامن الهجري، 1999.

□ أحمد بن مبارك السجلماسي : تحرير مسألة القبول على ما تقتضيه قواعد الأصول والمعقول، تحقيق الحبيب عيادي، 1999.

□ نجاة المريني : الشعر المغربي في عصر المنصور السعدي، 1999.

□ علال الغازي : مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن للهجرة، 1999.

□ محمد الدغمومي : نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، 1999.

□ أحمد زيادي : الاتجاهات الوطنية في النثر المغربي الحديث في عهد الحماية، 1999.

□ أبو العباس أحمد الولالي، مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، تحقيق عبد العزيز بوعصاب، 1999.

□ عبد الله نجمي : التصوف والبدْعة بالمغرب، طائفة العكاكزة، القرن 16-17م، 1999.

□ محمد الأمين البزاز : المجلس الصحي الدولي في المغرب، 2000.

□ عثمان المنصوري، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، 2001.

□ أبو الربيع سليمان الكلاعي، جهد النصيح وخط المنيح من مساجلة المعري في خطبة الفصيح، تحقيق ثريا لهي، 2001.

□ Abderrahmane Taha : Langue et philosophie, essai sur les structures linguistiques de l'ontologie, Janvier 1979.

□ Ali Oumlil : L'histoire et son discours, essai sur la méthodologie d'Ibn Khaldoun, 1979.

□ Abdellatif Bencherifa : Chtouka et Massa, étude de géographie agraire, 1980.

□ Abdelkader Fassi Fehri : Linguistique arabe : forme et interprétation, 1982.

□ Ahmed Moutaouakil : Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe, 1982.

□ Aziza Bennani : Monde mental et monde romanesque de Carlos Fuentes, 1985.

□ Larbi Mezzine : Le Tafilalt, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e^ et XVIII^e^ siècles, 1987.

□ Hassan Benhalima : Petites villes traditionnelles et mutations socio-économiques au Maroc, le cas de Sefrou, 1987.

□ Mohamed Berriane : Tourisme national et migrations de loisirs au Maroc (étude géographique), 1992.

□ Ahmed Chaouqi Binbine : Histoire des bibliothèques au Maroc, 1992.

□ M'Hamed Jadda : Bibliographie analytique des publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines (1915-1959), 1994.

□ Mohammed Kenbib : Juifs et Musulmans au Maroc (1859-1948), 1994.

□ Mohammed El Medlaoui : Aspects des représentations phonologiques dans certaines langues chamito-sémitiques, 1995.

□ Bahija Simou : Les réformes militaires au Maroc de 1844 à 1912, 1995.

- □ Mohammed Refass : L'organisation urbaine de la péninsule tingitane, 1996.
- □ Mohammed Kenbib : Les Protégés, contribution à l'histoire contemporaine du Maroc, 1996.
- □ Mohamed Ezroura : Criticism Between Scientificity and Ideology : Theoretical Impasses in F.R. Leavis and P. Macherey, 1996.
- □ Jamaâ Baida : La Presse Marocaine d'Expression Française, des Origines à 1956, 1996.
- □ El Houssain El Moujahid : Grammaire Générative du Bérbére, 1997.
- □ El Mostafa Chadli : Le conte merveilleux marocain, 2000.

نصوص ووثائق

Textes et Documents

- □ محمد بن تاويت : جهار مقالة (أربع مقالات مترجمة عن الفارسية)، 1982.
- □ أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، 1984.
- □ محمد الحكيم الترميدي : كتاب إثبات العلل، تحقيق خالد زهري، 1998.

نصوص مترجمة

Traductions

- □ جورج ماطوري : منهج المعجمية، ترجمة وتقديم عبد العلي الودغيري، 1993.
- □ عبد الرحيم العطاوي، كتاب الروسية.
- □ سوزان ميلار : صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846، تعريب خالد بن الصغير، 1995.
- □ فوزي عبد الرزاق : مملكة الكتاب، تاريخ الطباعة في المغرب 1865-1912، تعريب خالد بن الصغير، 1996.
- □ دنيل شروتر : تجار الصويرة، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886، تعريب خالد بن الصغير، 1997.

□ مايكل ريفاتير : دلائليات الشعر، تعريب محمد معتصم، 1997.
□ محمد كنبيب : يهود المغرب، 1912-1948، تعريب إدريس بنسعيد، 1998.
□ محمد اللوزي، ما وراء النهر، أنتولوجيا القصة القصيرة الفارسية المعاصرة، 1999.

بحوث ودراسات

Essais et Etudes

□ محمد المنوني : تاريخ الوراقة المغربية (صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، 1991.
□ أحمد الطريس أعراب : الإبداع الشعري والتحولات الاجتماعية والفكرية بالمغرب، من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين للميلاد، 1992.
□ أحمد المتوكل : آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، 1993.
□ عمر أفا : النقود المغربية في القرن الثامن عشر، 1993.
□ أحمد شوقي بنبين : دراسات في علم المخطوطات والبحث البيبليوغرافي، 1993.
□ المكي المروني : البداغوجية المعاصرة وقضايا التعليم النظامي، ط. 1993، ط. 2، 2001.
□ سعيد بنسعيد العلوي : أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، 1995.
□ عبد المجيد القدوري : سفراء مغاربة في أوربا، 1910-1922، في الوعي بالتفاوت، 1995.
□ فاروق حمادة : منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، 1995.

- ☐ المكي المروني : الإصلاح التعليمي بالمغرب (1956–1994)، 1996.
- ☐ مصطفى بوشعراء : علاقة المخزن بأحواز سلا : قبيلة بني آحسن (1860–1912)، 1996.
- ☐ محمد المنوني : ورقات عن حضارة المرينيين، 1996.
- ☐ جماعة من الأساتذة : فكر وتاريخ، دراسات وأبحاث مهداة للدكتور مانويل فايشر، 1998.
- ☐ محمد زنيبر : المغرب في العصر الوسيط، الدولة — المدينة — الاقتصاد، 1999.
- ☐ عبد الأحد السبتي — محمد لخصاصي : من الشاي إلى الأتاي، العادة والتاريخ، 1999.
- ☐ جماعة من الأساتذة، وقفات في تاريخ المغرب : دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، 2001.
- ☐ محمد أبلاغ، أحمد جبار : حياة ومؤلفات ابن البنا المراكشي (مع نصوص غير منشورة)، 2001.

- ☐ El Mostafa Haddiya : Processus de la socialisation en milieu urbain au Maroc, 1995.
- ☐ Fouzia Rhissassi, A textual Study of Thomas Hardy's Life's Little Ironies, 1994.
- ☐ El Mostafa Chadli : Sémiotique : vers une nouvelle sémantique du texte (Problématique, enjeux et perspectives théoriques), 1995.
- ☐ Ahmed Boukous, Société, langues et cultures au Maroc, 1995.
- ☐ R. Bourqia, M. Harras, D. Bensaïd : Jeunesse estudiantine marocaine, Valeurs et stratégies, 1995.
- ☐ Abdesslam Dachmi : De la séduction maternelle négative : étude des interactions familiales au Maroc, 1995.
- ☐ Daniel Nordman : Profils du Maghreb; Frontières, figures et territoires (XVIIIe-XXe siècle), 1996.
- ☐ Mekki Merrouni : Système d'orientation scolaire et professionnelle et préparation des jeunes à la vie active, 1996.

- □ Abderrahim Lataoui : Ichtyonymie marocaine, Etude historico-linguistique des noms des poissons marins au Maroc, 1999.
- □ Ahmed Boukous et Fatima Agnaou, Alphabétisation et développement durable au Maroc, 2001.
- □ Taieb Balgnazi et Mohammed Madani, L'action collective au Maroc : de la mobilisation des ressources à la prise de Parole, 2001.

بيبليوغرافيا

Bibliographie

- □ محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، 1983.
- □ محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب : ج، 2. الفترة المعاصرة (1790-1930)، 1989.
- □ محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب : ج، 3. الفترة المعاصرة (1930-1956)، 2001.
- □ لجنة من أساتذة الكلية : مرشد الباحثين في قواعد إعداد النصوص للطبع وتصحيحها، 1986.
- □ لجنة من أساتذة الكلية : بيليوغرافية الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، 1990.
- □ كلية الآداب بالرباط : دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات الآداب بالمغرب، (1961-1994)، الإشراف عمر أفا، 1996.
- □ كلية الآداب بالرباط : دليل الأطروحات والرسائل الجامعية، (ملحق 1995)، الإشراف عمر أفا، 1997.
- □ كلية الآداب بالرباط : دليل الأطروحات والرسائل الجامعية، (ملحق 1996)، الإشراف عمر أفا، 1998.
- □ كلية الآداب بالرباط : دليل الأطروحات والرسائل الجامعية، (ملحق 1997)، الإشراف عمر أفا، 2000.

أعمال الندوات

Colloques

- □ اللقاء المغربي الأول للسانيات والسيميائيات، عروض ومناقشات، 1979.
- □ أعمال ندوة ابن رشد، 1981.
- □ أعمال ندوة ابن خلدون، 1981.
- □ أعمال ندوة البحث اللساني والسيميائي، 1984.
- □ أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية، 1985.
- □ أعمال ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن XIX، 1986.
- □ أعمال ندوة المغرب وهولندة، دراسات في التاريخ والهجرة واللسانيات وسيميائيات الثقافة، 1988.
- □ أعمال ندوة الإمام أبي حامد الغزالي، 1988.
- □ أعمال ندوة تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي، 1988.
- □ أعمال ندوة في الاقتصاد الإسلامي، 1989.
- □ أعمال ندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب :

  الجزء الأول : السوسيولوجيا المغربية المعاصرة، حصيلة وتقويم، 1988.

  الجزء الثاني : البحث الجغرافي بالمغرب، تقويم أولي، 1989.

  الجزء الثالث : البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم، 1989.

  الجزء الرابع : اللسانيات الاجتماعية (Langues et société) (باللغات الأجنبية)، 1989.
- □ الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، 1991.
- □ المغرب وألمانيا، 1991.
- □ الملتقى العلمي لمدينة طنجة :

  طنجة في التاريخ المعاصر (1800–1956)، 1991.

  طنجة في الآداب والفنون، 1992.

  طنجة : المجال والاقتصاد والمجتمع، 1993.

- □ التاريخ واللسانيات، النص ومستويات التأويل (مائدة مستديرة)، **1992**.
- □ الفكر الفلسفي بالمغرب المعاصر، **1993**.
- □ نظرية التلقي : إشكالات وتطبيقات، **1993**.
- □ علم النفس وقضايا المجتمع المعاصر، **1993**.
- □ دراسات فلسفية (أعمال مهداة إلى الأستاذ الطاهر وعزيز)، **1993**.
- □ التحولات الاجتماعية المجالية الحديثة في الأرياف المغربية، **1993**.
- □ الزكاة وانعكاساتها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، **1994**.
- □ مجالات لغوية : الكليات والوسائط، **1994**.
- □ في ذكرى جرمان عياش، دراسات تاريخية، **1994**.
- □ الإسطوغرافيا والأزمة، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافية، **1994**.
- □ المخطوط العربي وعلم المخطوطات، **1994**.
- □ من قضايا التلقي والتأويل، **1995**.
- □ الترجمة والتأويل، **1995**.
- □ مدينة أبي الجعد : الذاكرة والمستقبل، **1995**.
- □ المغارب في العهد العثماني، **1995**.
- □ الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، **1995**.
- □ التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، **1995**.
- □ المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية، **1995**.
- □ الشباب ومشكلات الإندماج، **1995**.
- □ اللسانيات المقارنة واللغات في المغرب، **1996**.
- □ الاجتهاد الفقهي، أي دور وأي جديد، **1996**.
- □ دراسات في تاريخ العلوم والإبستيمولوجيا، **1996**.
- □ اندماج الشباب وقضايا الهوية، **1996**.

- □ إشكال التحقيب، 1996.
- □ وثائق عهد الحماية : رصد أولي، 1996.
- □ كيف يؤرخ للعلم، 1996.
- □ الشباب المغربي في أفق القرن 21، 1996.
- □ التحقيب : التقليد ــ القطيعة ــ السيرورة، 1997.
- □ التفسير والتأويل في العلم، 1997.
- □ مظاهر التغايرية في المناخ المغربي، 1997.
- □ المغرب وإسبانيا خلال القرن 17، 1997.
- □ الخطاب حول المرأة، 1997.
- □ الطفل والتنمية، 1997.
- □ الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، 1997.
- □ التشريع الدولي في الإسلام، 1997.
- □ في الثقافة والفلسفة، دراسات مهداة للأستاذ أحمد السطاتي، 1997.
- □ انتقال النظريات والمفاهيم، 1999.
- □ البادية المغربية عبر التاريخ، 1999.
- □ الطفل والمدينة، 1999.
- □ المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، 1999.
- □ في كتابة التواريخ، 1999.
- □ المغرب وإسبانيا والبرتغال، 1999.
- □ جوانب من تطور الأفكار العلمية حتى العصر الوسيط، 2000.
- □ آليات الاستدلال في العلم، 2000.
- □ المدينة المغربية في مواجهة التدبير المحلي والتنظيم الجهوي، 2000.
- □ الديموقراطية والتحولات الإجتماعية في المغرب، 2000.

□ المفاهيم، تكونها وسيرورتها، 2000.

□ الخيال ودوره في تقدم المعرفة العلمية، 2000.

□ المفاهيم وأشكال التواصل، 2000.

□ العلم والفكر العلمي بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط، 2001.

□ الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات، التواصل والآفاق، 2001.

□ Actes 6° colloque international de linguistique fonctionnelle S.I.L.F, 1979.

□ Le Maroc et la Hollande : Etude sur l'histoire, la migration, la langue et la culture :
Volume 1 : Première rencontre universitaire, 1988.
Volume 2 : Deuxième rencontre universitaire, 1990.
Volume 3 : Troisième rencontre universitaire : La recherche scientifique au service du développement, 1992.

□ Quatrième rencontre universitaire : Le Maroc et la Hollande : une approche comparative des grands intérêts communs, 1995.

□ Le Maroc et l'Allemagne : Première rencontre universitaire, 1991.

□ Identité culturelle au Maghreb, 1991.

□ Le Maroc et l'Atlantique (Table ronde), 1992.

□ Westermarck et la société marocaine, 1993.

□ Montagnes et Hauts-Pays de l'Afrique, 1993.

□ Mahdisme, crise et changement dans l'histoire du Maroc, 1994.

□ Dialectologie et sciences humaines au Maroc, 1995.

□ Maroc-Belgique : Première rencontre scientifique inter-universitaire, 1995.

□ Cinéma, histoire et société, 1995.

□ Marocains et Allemands, la perception de l'autre, 1995.

□ Huellas Comunes y Miradas Cruzadas : Mundos Arabe, Iberico y Iberoamericano, 1995.

□ L'Afrique du Nord face aux menaces écologiques, 1995.

□ Maroc : Littérature et peinture coloniales (1912-1956), 1996.

□ Cultural Studies, Interdisciplinarity, and The University, 1996.

□ Rétif et le Théâtre, 1997.

□ Monde Moderne et Toxicomanie, 1997.

- □ Le beau mensonge, 1997.
- □ El siglo XVII Hispanomarroquí, 1997.
- □ Le discours sur la femme, 1997.
- □ Aspects de la variabilité du climat marocain, 1997.
- □ Etudes Féminines, Notes méthodologiques, 1997.
- □ The Idea of the University, 1997.
- □ Migration Intemationales entre le Maghreb et l'Europe, 1999.
- □ L'enfant et la ville, 1999.
- □ Le tourisme au Maroc au Maghreb : diverséfication et développement régional, 1999.
- □ Les espaces périphériques au Maroc et au Maghreb à l'heure de la mondialisation, 2000.
- □ Global / Local Cultures and Sustainable Development, 2001.
- □ Le Maroc à la veille du troisième millénaire (Défis, chances et risques d'un développement durable), 2001.
- □ Les nouvelles technologies et l'Ecrit dans les pays sud-méditerranéens, 2001.

المجـــلات

Revues

- □ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية : من العدد الأول 1977 إلى العدد الرابع والعشرين (2001).

- □ Langues et Littératures : du Vol. I (1981) au Vol. XVII (1999).
- □ Hespéris Tamuda : du Vol. I (1960) au Vol. XXXVIII (1998), + Vol. de l'année 1921 (réedition).


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

إلى عموم الباحثين

تهتم مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنشر البحوث والدراسات في مختلف مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، وتسعى في رصد أهم التطورات المستجدة في ميدان البحث، وتستوعب الأبواب الآتية :

- دراسات وبحوث أساسية.
- وثائق ونصوص.
- نصوص مترجمة.
- دراسات وعروض ببليوغرافية.
- عروض لمختلف الكتب والمجلات.

تُسلم جميع المساهمات للمجلة مرقونة، على ألا تتعدى 30 صفحة.

يتسلم صاحب المقال المنشور 30 فصلة من مقاله وسبع نسخ من العدد الذي صدر ضمنه.





رقم الايداع بالخزانة العامة 1977/1
الرقم الدولي الموحد : 1160 — 0851